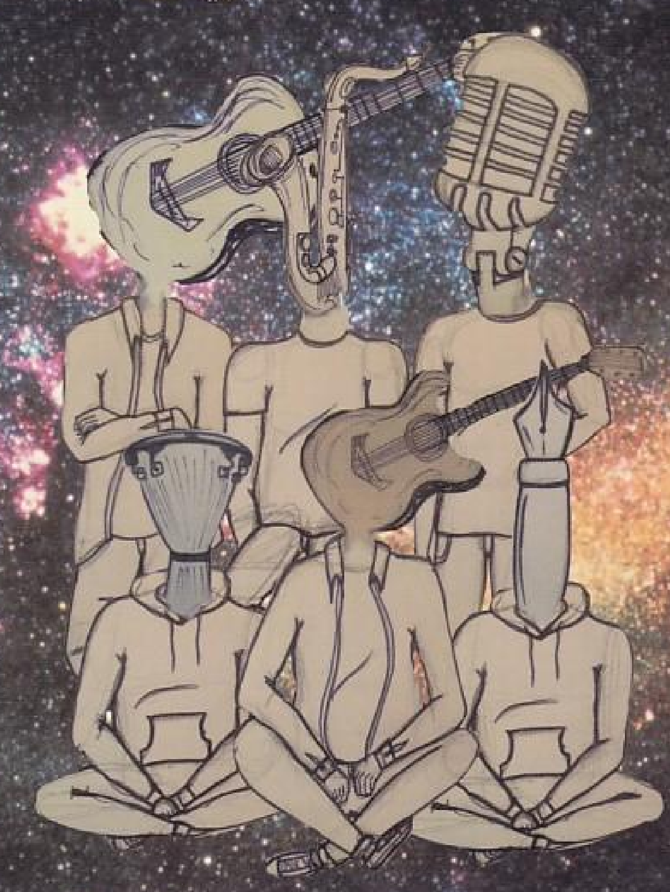
رواية

ظمأ الليل

شريف عبد الصمد



دار العين للنشر

ظمأ الليل

ظمأ الليـل

شريف عبد الصمد

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: صابرين مهران

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٨٧٤ /٢٠١٤

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 265 - 9

ظمأ الليـل

روايــة

شريف عبد الصمد

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشيءون الفنية

عبد الصمد، شريف

ظمأ الليل: رواية/ شريف عبد الصمد.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٦٥ ٩

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ١٨٧٤ / ٢٠١٤

إلى لي لي.. أول من قرأت لي
وكارول.. أول من شجعتني
وهديل وأدهم.. أول من فرحا لي
وصاوي وفانوس.. رفاقي في ليالي القاهرة الصاخبة

إلى أبي وأمي..

شكر خاص لخالي الدكتور محمد شيحه وأحمد ندا.

الفرقة:

خالد - غناء

توفيق - بيس

شادي - ساكسوفون

فاروق - جيتار

جنو - بركيشين

عاطف - شعر

لا أدري كيف.. أو من أين أبدأ..

أوتلانديش.. تذكر دائماً

المغني.. وجنيته

أيها الحب.. أنت سر بلائى.. وهمومى.. ولوعتي..
أيها الحب.. أنت سر سقمى.. ووجودى.. وقصتى..
يا قلبى الدامى.. لم الوجوم..
إن لم ألم قلبى.. فمن ألوم..
يا قلبى الباكى.. لم البكاء..
ما فى فضاء الكون.. شىء يدوم..

أيها الحب ـ وسط البلد

1

خطت فوق أطراف أناملها.

قدماها بالكاد تلامس أرض الرخام الساطعة. ثبتت قدماً ورفعت ساقاً برهافة، فاتخذ جسدها شكل قوس مشدود، متأهباً لإطلاق سهمه في مقتل.

رفرف فستانها الأبيض لانتفاضتها البسيطة. ارتعشت أطرافه المتجمدة، واتسم وجهها بالجدية وهي تفرد ذراعيها في نصف دائرة، بينما انسدل شعرها الأسود المموج سابحاً في الفضاء يهتز مع حركاتها..

جال بصره مفتوناً بكيانها.. ثم اعتلت نغمات جيتار رتيبة في بار صغير بوسط البلد. احتشد في أجوافه دخان هاجع، امتصته حيطان شاحبة، وردت شظايا الصوت لقالب الحجرة الضيقة.

سبحت عيونه في بحر غامض من وجوه غريبة ومألوفة، تشبثت بضحكة، رصدت تعبيراً ما، وردت تحية لأحد أصحاب المزاج العالي، الذين التفوا حول المسرح الصغير، يصفقون ويهللون ويلوحون بأياديهم ويتمايلون بأجسادهم، يرقصون ويغنون ويطلقون آهاتهم العارمة، يغشون المكان بثرثرتهم، غارقين في ولع الخمر، وثملين بتجانس الموسيقى..

تبدأ المقطوعة كأي لوحة تتكون، وبمجرد أن تهب فيها الحياة، تثور وتعلن عن تمردها على راسمها.

تنقلت أنامل فاروق برشاقة بين الأوتار، تعاملت يساره مع عنق الجيتار الأسباني بآلية، بينما داعبت اليمنى باطنه.. ووجهه خال من أي انفعالات، كأن أنامله منفصلة عن باقي جسده، تحفظ طريقها بنفسها..

تبادل توفيق معه نظرة متفحصة، يتبادلونها مئات المرات.. لا تعني شيئاً تحديداً.. غير غرض الطمأنينة.. شفتاه متواربتان وهو ينتشل "البيس" من جوف صندوقه المغلق، محملقاً أمامه فيما يشبه الدهشة.

وشادي غارق في حالة "ترانس" تام، لا يقدر غيره أن يجلبها لنفسه، ولا يفيق منها إلا لما ينتزع مبسم "الساكسوفون" من شفتيه، كأنه يفيق من أثر قبلة حارة.

وأخيراً جنو، قابع بالخلف، يهتز جسده العلوي مع كل ضربة ينهال بها بعصويه الرفيعين على آلة "الدرامز"، وشفتيه تلتويان بحزم كلما أضاف ضربة مؤثرة..

الفرقة، بجده ومناه.. والموسيقى تسري وتنتشي الأذن بما تحمله أولا تحمله من إيحاءات.

ارتكز اللحن حول ثلاث نوتات أساسية، يتم إعادتهم كل مرة بشكل مختلف.

- يا قدري..

تحولت كلماته إلى صرخات مسترسلة تشهد مدى تحمل الألم.. استعد ليلقي ما حملته أذنه من أنغام لم تعزف، وانطلق صوته كآلة مبهمة ترنو كالجسد الناري المشتعل في خلفية سماء نقية، مخلفاً وراءه شعاعاً يكسو سقف الأرض كندبة.

كلما نقب أعمق.. كلما استخرج "نوتات" لم يتطلع قبله أحد للإبحار في جوفها.

أطلق الغرب على هذه الموسيقى: "سول"، أي الروح. (وربما يجب أن تسمى "بين"، أي الألم.)

ابتكرها الأفارقة في أمريكا، لما لقوه من عذاب ومشقة فور وصولهم إلى الأرض الموعودة. تعكس "السول" صرخة خرساء لعبد لقى حتفه فوق سفن مهولة حملت على متنها آلاف لم يكتب لهم رؤية العالم الجديد. ليس عليه سوى أن يغمض عينيه ليحس بالماء البارد الذي كسا الجلد الميت إثر قذفه في محيط جائع.

- يا قدري..

يدّعي المؤمن أنه قدر، بينما يفطن العالم أنها صدفة. وما ينقص المؤمن سوى قليل من الشك.

- وما أنااااا قااااادر..

اشتدت الزغبة وتتضارعت. إنه تاجر المتعة التي يحرمها على نفسه.

التقط نفساً، حبسه في صدره، ليستعد إطلاقه كالغبار. صفق الجمهور وأطلقوا الصفافير.. إنه يستحوذ على كامل انتباههم الآن، وهو يدرك ذلك..

راقب السكارى والمستفيقين، صائدي النساء والمخنثين، الأثرياء والبوهيميين، البدينة والنحيلة، المحافظة والحرة، محبي الموسيقى وغير المبالين.. المجتمع الفاضل بمختلف أطيافه.

احتجز الصوت في صدره. إذا لم يطلقه الأن، سيمزقه إرباً.

ارتقب من ختم البلاغ.

- بأي حق تستبديين قلوووب محبيينك؟

لا يستطيع قلب امرأة مقاومة ذلك الأنين!

أطال صرخة، ناصباً أنينه المتهدج في الأسماع.

ثم خارت قواه، وتحطم الصوت لألف شظية.

2

سادت في الغرفة عتمة، لا يخدش سكونها إلا نداءات الشارع.

تحرك بحذر كي لا يزعج منامها. أفصح الباب الموارب عن سكون تام.

تزداد مخاوفه كلما تركها بمفردها على مدار اليوم، فلن تحكي له لو تعبت. هي من هذا الجيل الفولاذي، الذي تعود المشقة دون الشكوى. راقبها راقدة على جانبها الأيسر، وصدرها يعلو ويهبط في انتظام.

بالكاد يقضي معها ساعتين على مدار اليوم. تباركه بالأدعية في الصباح، ثم ينطلق لينخرط في العالم الواسع ساعياً وراء رزقه. يقضي يومه متنقلاً ما بين العمل والبار، وإذا سمح له الوقت يمر عليها عصراً لتناول الغداء، ثم يصلي المغرب والعشاء، ولا يرجع إلا منتصف الليل، فتكون قد نامت.

بعد انفصال والده عنهما، وهما يعيشان في كنف بعضهما، ولا يملكان من الدنيا إلا بعضهما..

تمازحه وتهاوده مثل أي أم طال انتظارها لترى ابنها عريساً في الكوشة، تعاود سؤاله باهتمام عن زميلاته، خاصة تيسير، وقد ترامى اسمها إلى مسمعها. تشكو له وتسمعه أن الجيران "كلوا وشها" لعدم ارتباطه حتى الآن، وهو صام أذنيه لمحاولاتها تلك، مؤكداً أن الأمر سابق لأوانه وهو في نهاية نصيب.

فتقول: اسع أنت بس!

استبدل ملابسه، وأعاد الصوت لهاتفه بعد ما أسكنه طوال عزفه. تفحص الأرقام التي حاولت سدى أن تصل إليه، معظمهم لا يعرفها، ولن يعاود الاتصال بها. ألقى نظرة حذرة على الساعة.. سيبدأ عمله بعد حوالي أربع ساعات..

يبدأ في التاسعة صباحاً.. ينطلق في مسيرة مع آلاف المواطنين النازحين إلى عملهم. يصطف في طابور لا نهائي من السيارات، وينتظر دوره. يقوم باختلاس النظرات حوله في سيارات فقدت حرمة خصوصيتها. يراوده أمل كاذب أنه سيجدها اليوم في وجه فتاة منتظرة تبادله بنظرة خافتة تكنها لغرباء. يستبيحان اللحظة ويدلفان حياة بعضهما لحظة كأنهما سمحا لأنفسهما بمشاهدة فيلم عابر على شاشة غير شاشتهما، ثم يختفيان عن

مرمى بعضهما، ويبقى ذلك الانطباع أن أجمل الأشياء في الحياة هي غير المكتملة.. وهذا قدر.

..

يقضي عمله ضجراً بلا شغف، قابعاً ثماني ساعات في مكتب يسع ثلاثة مكاتب أخرى. لا يستغرق عمله إلا نصف المدة، فيشغل نفسه بالإطلاع على "ويكيبيديا" و"يوتيوب" و"فيس بوك". يدون أسماء مشاهير من المغنين والممثلين والرياضيين، يتطلع باهتمام إلى سيرتهم الذاتية، وقصص نجاحاتهم وإخفاقاتهم، ويبدي اهتمامًا خاصة بزيجاتهم وافتراقاتهم، ثم يدون كلمة سر للفيسبوك للمرة - لا يدري كم - ويضغط بحركة آلية على "النيوز فيد" ليرى آخر أخبار وخواطر "الأصدقاء". يقرأ التعليقات، ويشاهد "الفيديوهات" أو المداخلات على "الستيتس"، عادة ما تكون هراءات أو آراء سياسية.

ميرنا..: أريد فيلاً!

أحمد...: وأنا كمان!

شيرين...: وأنا صغيرة كان نفسي في فيل. بس بابا قال لي العمارة هتقع!

أحمد....: ها ها ها!

..

رن صوت "الشات" كضفدع يقفز في الماء.

أمينة كتبت لك:

خالد عامل إيه؟ أنت في الشغل؟

لم يشعر برغبة في الرد. ترك الشباك معلقاً، وتردد على موقع الفرقة. لا يجد أياً منهم وقتاً كافياً ليستحدثه كل حين، ويزوده بصورهم وآخر أنبائهم. حمل أحد المعجبين "فيديو" مصوراً بهاتفه، كان رديء الجودة. قرأ تعليقاً أسفله: حفلة جامدة جداً.

جاء يرد على "الشات"، ولكن الفتاة كانت قد غادرت.

إذا أردت إرسال الرد، ابعث لأمينة برسالة.

أغلق الخانة وتفحص الساعة. باقي ساعتين ويغدو حراً!

قاطعه هاتف مكتبه. زميل بطابق علوي يستفسر عن ملفات أعدها وبعثها لقسمه منذ فترة.

حدثه باقتضاب كأنه أزعجه في وقت عمله، ثم حملق في شاشة فارغة أمامه، وانتابه شعور باستياء يداهمه في مثل هذه الساعة.

دائماً ينتهي به المطاف عند "بروفايلها" المحدود لغير الأصدقاء.

ظهرت صورتها يسار الشاشة، فكّبرها.

في انتظار أن تقبل طلب الصداقة.

تفرس وجهها الأسمر، أنفها المستقيم في تناسق مع وجنتيها المتوردتين. تهدل شعرها المتهدج الذي كسا عينها اليسرى. كانت ترمق المصور في رقة، محتضنة صديقتها.

صورة أخرى تظهرها في فستان "كلاسيكي" أسود يصل لأسفل

الركبة. وأخرى وهي تقف مع فتاة في فستان فرح، تبتسم تلك المرة في وقار للعدسة، كفتاة تنتظر عرسها.

لديها ما يقرب من عشرين صورة متاحة لغير الأصدقاء، تظهرها في ملابس و"بوزات" مختلفة. أحبهم إليه صورة تبدو فيها أصغر سناً، حفظتها الكاميرا وهي جالسة نصف مستديرة، ورقبتها السمراء الناعمة متكئة على يدها في انتظار من يمسها، تنظر للكاميرا في حذر أنثوي، بينما تحوم ابتسامة خافتة على شفتيها، كأنها ليست متأكدة من آثار جمالها.. وشفتيها المتواربتين ينفتحان لما يحن له الرجال.

أغلق الموقع بعد ما أشبع حنينه بجرعته اليومية. ثم انتابه ضجر مشفوع بتأنيب الضمير. عادة تبلغ الوحدة سأمها عصراً لّما يخلو المكتب ويقبع وحده منتظراً. .أصدر الباب تكة خافتة.

– أفشتك!

طل وجه تيسير أسفل حجابها الزهري. ابتسمت وشعت عينيها برغبة في المشاكسة. تقدمت ووقفت في منتصف المكتب الخالي. ثم ضمت يديها ببعضهما وسألته بنبرة طفل متشوق للهو:

– بتعمل إيه عندك؟

كانت ترتدي بلوزة فاتحة و"جيب جينز". منذ أن عرفها وهي لا ترتدي إلا "الجيبات" الواسعة، لأسباب دينية غالباً.

قرر تجاهلها وتابع الحملقة في الشاشة. فصاحت محتجة:

– الله.. هو أنا مش بكّلمك؟

غمغم:

- يا رب إني لا أسألك رد القضاء..

- كبّة!

اتخذت مجلساً أمامه ورمقته في فضول. تظاهر أنه يبحث عن ملفات فوق مكتبه.

- ما تعملش نفسك بتشتغل.. أنا عارفة إنك على "الفيسبوك".

زفر نافراً. فقالت:

- إيه ده.. أنت هتتلبلي وشك شرابات.. إحكيلي.. عملتوا إيه امبارح؟

تبدي له اهتماماً دون باقي زملائه. يدرك مدى انجذابها له، نظرات الإعجاب المشفرة وتلكؤها عند رجوعها إلى مكتبها.

رد باقتضاب:

- ولا حاجة. عادي!

حملقت فيه بعينين منتظرتين، فأردف وهو يقرقض ظفر إبهامه.

- نفس الوجوه اللي بنقابلها كل يوم، نفس الأماكن اللي بنروحها، ونفس الأغاني اللي بنعزفها.. ويوم ما بنقدم حاجة جديدة، يقولولنا عاوزين الأغاني القديمة.

أطلقت ضحكة عذبة:

- دي أزمة منتصف العمر ولا إيه يا خالد؟ أنت لسه صغير على

الحاجات دي.. وبعدين بطّل تقرقض ضوافرك كده!

نزع إبهامه من فمه وحرك "الماوس" بعصبية.

– سمّعت أصحابي أغانيك.. اتهبلوا لما سمعوا صوتك.

مازال قلبه ينشرح للمجاملات تلك، ما زال يغمره تصفيق الجمهور كلما تلا.

– خالد! خالد! ألو!

ابتسم رغماً منه!

– إتم بشكل!

أغلق الشاشة واكتفى بابتسامة زائفة. ضحكت وانبعثت من عينيها رغبة عاطفية. أثاره ثدييها المكورين تحت بلوزتها. بمقدرته امتلاكهما لو أراد..

انتفض قضيبه. لم يمارس العادة السرية منذ أيام. يلجأ إليها مرتين في الأسبوع. عادة صباح الجمعة عندما يكون العالم هادئاً وخال من أي انشغالات، يمكث في فراشه مرتخ ويتخيل نفسه مع فتاة يعرفها ويشعر بالانجذاب إليها. يمارس معها الأوضاع الشهوانية المختلفة، التي لم يجربها في حياته قط، ويفرك قضيبه لأعلى وأسفل حتى يتخلص من بذوره الخصبة في تلك اللحظات الصباحية الخافتة. إنها ضرورة بات يتلذذ بها، هكذا يبرر لنفسه، فتثنيه عن مغازلات حمقاوات، خاصة لما يجد نفسه يسترق النظرات إلى تيسير أو غيرهن من البنات، فيدرك أنه حان الوقت للتخلص من شهوته، والشهوة والحب كلاهما عالمان مختلفان.

لكزته تيسير بقوة في كتفه، فصاح متألماً:

- أنت هبلة؟

شرعت في مهاجمته مرة أخرى ووثبت نحوه، لكنه نهض وأمسكها بإحكام من معصمها تلك المرة، فكتف حركتها. قاومت سدى، كان مسيطراً وأدارها بقوة حيث باتت ملتفتة بظهرها له. اجتاحته رغبة ممزوجة بالقوة، فتركها في الحال.

تألم وجهها وهي تفرك معصمها:

- آه.. وجعتني.. يا معفن!

كان مازال يغالب الشهوة، وضاعفت الإهانة إثارته.

جلس محرجاً على مكتبه وتظاهر بالعمل مجدداً.

إنه لا يجيد التعامل معها، فهي بالنسبة له أخت لا أكثر!

3

- خالد كل البنات أخواته!

قهقه توفيق عالياً. كانت الساعة الواحدة صباحاً، وهم في طريقهم إلى "المقهى الثقافي" في شارع متفرع من "البستان". افرغوا للتو أربع ساعات تسجيل في الاستوديو "لألبومهم" الأول الذي من المفترض أن يصدر نهاية العام.

سار بجانب عاطف الشاعر، صديق مقرب لتوفيق، وقد قام بتأليف كذا أغنية ذات شعبية للفرقة، وهو في مثل سنهم تقريباً، أواخر العشرينيات أو بداية الثلاثينيات. أحياناً يعرضون عليه أغانيهم الجديدة التي مازالوا يعدلون فيها، قبل أي شخص آخر، ليبدي رأيه فيها.

عاود توفيق مشاكساً:

– مش كده يا خالد؟ شكللك ليلة دخلتك هتقول لعروستك: أخ.. أصلك طلعتي زي أختي!

ضحك عاطف، ورد هو بهدوء:

– وفيها إيه يا توفيق؟ مانت برضو زي أختي.!

استنجد توفيق بعاطف هاتفاً:

– والنبي يا كابتن عاطف الحقنا.. الأخ ده كل ليلة بيقف على المسرح البنات تبصبصله.. وصاحبنا واقف سنتيح.. تمثال رمسيس.. مالوش دعوة.. ولا بيهش ولا بينش.. يا أخي فلقتنا!

– مانت عارف خالد مالوش في الشغل المايع.. من البيت للبار ومن البار للبيت.

– ونعم الأخلاق الحميدة!

اعتاد مدعاباتهما، رغم الإحساس الملح الذي يستشعره بأن عليه أن يغازل فتاة فقط لإثبات رجولته.

– خالد بيدّور على الحب الحقيقي!

قام توفيق بتقليد محمد فؤاد بافتعال: "الحب الحقيقي"، ثم أردف:

– يا عم هو حد حايشه.. قولي يا خالد.. مالها لبنى.. بنت زي الفل وحطّ عينيها عليك بقالها فترة على فكرة.

لبنى إحدى الصديقات التي تراود على "الجاز كلاب" بانتظام، إنها ممتلئة بعض الشيء عند الخاصر، ودائما تصبغ شعرها المموج باللون الأشقر

الزائف، تبدو جذابة بطريقتها ولكن متحررة في تصرفاتها ولا يروق له مخاطبتها وتعاملها مع الفتيان. علاوة على ذلك، فهي شخصيتها معقدة، ولا تفصح بما تفكر فيه.

– صحيح يا خالد.. لبنى بت جدعة.

– خلاص اتجوزها أنت.

– يا أخي أنا مش عايز اتجوز.

– يبئا نقطنا بسكاتك!

انزووا في ركن هادئ بالمقهى بجوار رجلين نحيلين بالأرجح موظفان، كانا يتابعان فيلماً في زهق على شاشة التليفزيون المعلق في الواجهة. عكس وجهيهما عدم الاقتناع بأداء "محمود ياسين" وهو يشيح بوجه مكفهراً واستماتة "لنجلاء فتحي"، سائراً أمامها إياباً وذهاباً بسرواله "الشارلستون" وقميصه الزهري الضيق، إنهما لا يصلحان لبعضهما.

سأل توفيق بصوت عال:

– هو مفيش "ماتش" ولا إيه؟

رمقه أحد الرجلين بتأفف، كمن يدافع عن حقه الأساسي في الترفيه وسط حياة تعسة.

طلب الينسون ليليّن أحبال صوته الممشوقة، وراح توفيق وعاطف يدخنان الشيشة ويتنقلان بأعينهم من الشاشة إلى هواتفهما ليتابعان أخر أخبار "الفيسبوك".

امتص البيئة حوله والهدوء النسبي بعد صخب اليوم الهائل. زال الشعور الملح تدريجياً بقضاء المهام اليومية في عجل، فتطرق لصور عائمة في ذهنه.

علق توفيق بنبرة المعلمين:

– الهدوء نعمة برضو!

ثم مارس "تهييسه" المعتاد مقلداً مسرحية "العيال كبرت":

– والنبي يا عاطف.. عاوزك تشرح لي درس يوغسلافي لو سمحت!

لا يحتوي اليوم ساعات كافية لإتمام كل ما يتمناه. النوم والعمل والتلحين والعزف والتنقل من مكان إلى أخر. بات لا يستمتع بأي شيء تحت الضغط.

انسكبت رائحة معسل ثقيلة على أنفه نفثها توفيق على مراحل، كأنه يتنفس ويلتهم الدخان في آن.

أشار عاطف لبائع جرائد جوال فجلب له "المصري اليوم". تفحص عاطف وتوفيق العناوين وعلقا بسخرية كمحللين سياسيين محنكين.

ردد توفيق ما كتبه محلل سياسي في أخر صفحة.

– اسمعوا دي! الوطنية انهارده بئت منحصرة في تشجيع الكرة والاحتفال بكأس أفريقيا. تحيا مصر.

– عنده حق!

مسح نادل المقهى رخامة المطبخ في شكل نصف دوائر بمنشفة

متسخة، وهو يرمق زبوناً عجوزاً بنفور، لعله شاغل المكان منذ النهار ولا يريد القيام، بينما جلس صاحب المقهى، رجل ضخم يرتدي جلباباً رمادياً يكسو بحافته البلاط المترّب، يوازن أفكاره وتأملاته في تأرجح مع الخارج، ويفيق من عالمه كلما خاطبه النادل أو أحد الزبائن، ليقطعوا عنه سلوته دون استعداد.

- فوكس.. نورت القاعدة يا برنس!

ابتسم فاروق بحياء وأسند شنطة جيتاره على الحائط، ثم اتخذ مجلساً جانبه.

انتابه على الفور الارتياح لقدومه. ثمة يسر في التعامل معه رغم لوذه بالانطواء. يميل مثله إلى الصمت والقلق المفرط.

سأله إذا كان "المناجر" بلغه شيئاً قبل مغادرته، فهز فاروق رأسه نافياً. ثم أخرج علبة سجائره في صمت، وقرع السيجارة مرتين على المائدة النحاسية كي يتكدس التبغ..

كان توفيق وعاطف مازالا يتفحصان الجريدة، فمال برأسه بفضول ليتبين ما أثار انتباههما.

تطرقا لاعتصام العمال أمام مجلس الشعب، وتصريحات أحد البرلمانيين برغبته في إطلاق النار على المتظاهرين، فيما توعدت منظمة لحقوق الإنسان بمقاضاته لتصريحاته.

قرأ توفيق على مسمعهم مقتطفات من مقال ينتقد البرادعي، حيث أفاد الكاتب أن البرادعي خذل الجميع، و لم يلب أياً من التوقعات المنتظرة

منه، حيث غدت تصريحاته وعوداً فارغة.

علق عاطف بسخرية:

– هما متوقعين منه إيه يعني؟ فاكرينه موسى هيرمي عصايته؟

تابع توفيق مشمئزاً:

– "عادل إمام" بيقول إن "البرادعي" لو ما حاسبش على كلامه، هيجعل من نفسه أضحوكة.

– وهو مين "عادل إمام" ده أصلاً؟

سأم حديثهما، والتفت إلى فاروق هامساً:

– عملت إيه مع منى؟

أطبق فاروق شفتيه وانتفض الرماد من السيجارة.

حدق فيه في إلحاح، لكنه ظل موصداً كالخزينة. رمقهما توفيق بفضول قبل أن يستكمل قراءته.

لم يبد فاروق منذ طلاقه أي اهتمام بأي امرأة أخرى حتى ظهرت منى، وعلاوة على أنها قبطية وهو مسلم، فهي تعيش في الأسكندرية وتصغره بخمسة عشر عاماً، ولا يوجد أي دافع للتشبث بهذه العلاقة البائسة سوى إيلام نفسه. لقد صار في الواحد والأربعين من عمره، وقد انصاع شعره للبياض من الجانبين، ومازالت تطارده الأمال الشائكة.

طوى توفيق الجريدة، وحدق فيهم في إصرار. كان مازال مفعماً بالطاقة.

- هنعمل إيه يا شباب؟

رن هاتف فاروق. تجهم وجهه على الفور إثر تبينه من المتصل، واتجه إلى الخارج.

سمع صاحب المقهى ينهر النادل لأنه لم يفرغ محتويات الثلاجة كما طلب منه البارحة. بادل النادل أنه وجد الطعام صالحاً لما تفقده، فشخط فيه المعلم واتهمه بالكذب. فضرب النادل كفيه غيظاً واستغفر الله العظيم.

حاول أحد رواد المقهى التهدئة بينهما. لكن المعلم أصر على أنه أفسد المحتويات، بينما تقمص النادل دور الضحية، وتابع عمله في وجوم مبالغ فيه.

رجع فاروق مكفهراً واستعاد مجلسه. رفع ساقاً فوق الأخرى، كما اعتاد الجلوس بأقل حركة وتعبير ممكن، ثم ولع سيجارة وراح ينفث غضبه في الدخان.

لم يحك شيئاً. المشاعر الوحيدة التي تفلت منه، تنسرب من جيتاره. وبعد وهلة نهض بتعبير آسف على وجهه، كأنه حاول قمع ضيقه و لم ينجح.

- أنا هروح!

- أنت لحقت يا بني؟

- استنى! أنا جاي معاك.

صاح توفيق معترضاً:

- إيه يا جماعة البيض ده؟

اقترب منهما النادل ونشف يديه في مريلته المتسخة.

– خلي يا باشا!

قال لتوفيق مودعاً:

– أصل في قطتين مستنينا!

– أخرك العادة السرية في بيتكم.

– ده لو وقف أصلاً.

تماشى مع إيقاع فاروق البطيء، كما يتأقلم مع "كورداته" الممنهجة.

كان الهواء ساقعاً وأضفى عليهما طابعاً بالجدية. خلت الشوارع في هذه الساعة وتقلص الرصيف من كتل البشر والباعة المتجولين.

أشعل فاروق سيجارة، وارتد الدخان إلى وجهه. خيل إليه أن زوجته تضغط عليه بشأن مصاريف ابنتهما.

سأله بدافع تشتيت أفكاره:

– مفيش أي أخبار عن الجنس الأخر؟

رد فاروق:

– منى عاوزانا نبعد عن بعض شوية.

بدا صديقه عجوزاً، وهو يطل أمامه بعينين منكمشتين من النيكوتين.

مرا بجانب "مول البستان". جذب انتباهه شاب يجلس خلف مكتب في الدور الأرضي يعيد تركيب مئات الأشلاء لكمبيوتر مفكك. فبدا سعيه مستحيلاً.

ابتسم فاروق في مرارة:

– قالتلي خلينا أصدقاء أحسن!

قرب السيجارة بحركة آلية من شفتيه الشاحبتين، ليمتص منهما ما قدر من النيكوتين، فانتابه سعال شديد.

إنه يدخن، ويحب أكثر من اللازم.

– وأنت قلتلها إيه؟

هز كتفيه.

لا يروق له استسلامه هكذا، تفيضه عواطف وإدراكات لا يتبعها، كأنه لا يبالي، مع أنه يبالي.

لو كان فاروق أصغر سناً، لنصحه بالابتعاد عنها، ولكنه ظن أن تلك الأشياء يمكن تخطيها مع تقدم العمر.

قال محاولاً مواساته:

– الموضوع كده كده ما كانش نافع من الأول!

ضاقت عينا فاروق، وأومأ برأسه بطرف واجم، غالباً ليصمته.

أراد أن يطيب خاطره بكلمة قبل أن يفترقا عند البار حيث ركن سيارته.

رمى فاروق عقب السيجارة، ثم ابتسم بطيبة:

– الحكمة صعبة برضو.

فكّر ليقول شيئاً لصديقه. صاح أخيراً:

- ما تشغلش بالك! كله هيبئا كويس!

ابتسم فاروق ومد له يده، فصافحه بقوة.

- سلام يا صديقي!

ثم ولى كل منهما إلى طريقه.

4

عبر كوبري "قصر النيل" إلى شارع الأوبرا، ثم انعطف يميناً.

صادف على الكورنيش وجوهاً تحرس دككاً خالية، تفكر فيما لم يتحقق.

صار الصمت ممكناً أخيراً. وتفرغ لملاحقة أفكار هزيلة انتابته خلال اليوم، نظرات ووجوه لا يجد لها سجعاً.

وبعد ما أستحضرته أفكار، لاحقها كمن يسعى وراء فراشة عابثة. تملكته رغبة في أن يسرع خطاه. فأوسع برجله، ولما لم يعد هذا كافياً، تخطى بداخله حاجز مانع وركض. ركض بانتظام وثبات بداية، ثم دفع بكل قوته، مسابقاً روحه كأنها ستفارق جسده.

اعتصر الهواء رئتيه، وشاح بذراعيه في الهواء. أراد أن يسرع اكثر،

ولكنه تقيد بحاجز بدني.

ثم توقف لاهثاً في شارع جانبي يومضه مصباح وحيد شامخ ومنحني الرأس، كمغن متواضع يتلقى التصفيق.

كان في السادسة عشر من عمره، لما دعاه عمه ليقضي عطلته الصيفية في الغردقة. يعزف ويغني عمه ببار في فندق خمسة نجوم. صار يتابعه كل ليلة مبهور الأنفاس وهو يتحكم ويأسر جمهوره الذي يصفق له كأنه ملك.

تدرب يومياً على أغنية لـ"إلتون جون"، درس إيقاعها ووزع أنفاسه عليها ليلقى النوتات العالية. كان عليه أن يتعلم كيف يستخرج الصوت من بطنه وليس حنجرته. ثم طلب من عمه يوماً أن يعطيه الفرصة.

رمقه بشك وقال له محذراً:

- لو طلعت وحشة مش هتغني تاني!

ثم قدمه على المسرح:

- أرجوكم أن ترحبوا بابن أخي خالد!

كان أداؤه مهزوزاً ووقع في بعض الأخطاء، ولكن لم يكن بطالاً، ونال تشجيع الجمهور.

سأل عمه بعدها لو بإمكانه أن يصبح مغنياً مثله، فرد ببساطة:

- إما عندك الموهبة أو ما عندكش!

اعتاد بعدها المثول كل ليلة على المسرح لتقديم أغنية. اندمج رويداً مع رواد البار، مثل "بيبي فيس" الذي كانت دائماً في صحبته سائحة

جميلة، و"تومي" تاجر وصاحب المزاج العالي وصديق لعمه، وأبو دومه، رجل صعيدي لا يوفق مع النساء، فيكتفي باحتساء الخمر عند البار، وسرد قصص ضجرة على النادلين، هم في غنا عن سماعها.

بدأت الفتيات والسيدات تلحظه وتشدن بموهبته رغم صغر سنه.

ثم أضطر للرجوع إلى القاهرة للالتحاق بالعام الدراسي الجديد.

كان والده يعمل في الخليج منذ ما يقرب عامين، ووالدته تتباهى أمام الجيران والأقارب بارتفاع مستواهم المعيشي والنعمة التي رزقوا بها بفضل الله عز وجل.

أصبحت العيشة ميسورة، لكن بلا أب. وغدت أمه تعيسة، ومغلوبة على أمرها، فازداد وزنها وراحت تسرف في التدخين وقراءة المجلات في ضجر.

ثم انقطع الوالد عن زيارته السنوية لهم. ولما وجد والدته تبكي يوماً بحرقة في غرفتها، علم بالأمر وسلم به كأمر واقع.

سرعان ما اضطرا أن يتأقلما مع الوضع الجديد، وأن يوفرا مصاريفهما بقدر استطاعتهما. راح يستقل المواصلات العامة، وسلبت منه متاع حياة الشاب المراهق تدريجياً التي كان يتمتع بها، فلم يكن بقدرته توفير ما يلزمه لشراء حذاء "نايك" و"بلاي ستيشين" مثل باقي زملائه.

خجل لفقره، وعزم على تعويضه بمغامراته في الغردقة.

اعتمد على صوته وانجذاب الفتيات له لتقليص شعوره بالنقص. كان أول من ارتبط في فصله. فتاة فرنسية تدعى "كلارا" من مدرسة "الليسيه".

دعته يلامس صدرها الناعم كلما اختليا ببعضهما. بات مشهوراً بفضل صديقته الفرنسية وصوته، ثم ارتبط بفتاة مصرية تعرّف عليها في الغردقة، ولم تتعد علاقتهما أيضاً إلا القبلات والملامسات السطحية، ذلك قبل أن يتدين في الجامعة، وكم كان يتباهى لما يرجع إلى العام الدراسي بتعارفه على فتيات وقعن في غرامه في الغردقة، تباهى بمقاومته لإغراءات نسائية عدة، وذوقها بتفاصيل خيالية، ليضيف عليها المصداقية لنفسه ولغيره..

توطدت علاقته بأمه كأي علاقة تعتمد على الاعتماد المتبادل، ولكن ليس دون أن يشوبها بوادر الازدراء والحنق، فتباينت له عيوبها بفضل احتكاكهما الضروري، ولامها بداخله لما انتابهما.

تواعدا ذات مرة أمام كليته ليرجعا معاً، فرصدته زميلة وعرضت عليه أن توصلهما بسائقها الخاص. وافق على مضض، ولم يصدق إذنيه لمّا بادرت أمه في السيارة:

– طب ما توصليه كده كل يوم ينوبك في ثواب!

كاد أن يقتلها غيظاً. ولما وصلا البيت صرخ فيها بهيستريا، فدافعت عن نفسها باندهاش.

– هو أنا قلت إيه يعني؟ أنت هتعمل زي أبوك وتتلككلي على الواحدة؟

رد برغبة عارمة لإيذائها بأقصى درجة:

– ماهو علشان كده هو سابنا. بسبب تصرفاتك دي!

سكتت لحظة ثم انفجرت باكية بحرقة، وراحت تصدر عويلاً مثل الأطفال.

وقف أمامها مذهولاً، لا يصدق ما لفظه للتو. رغب في احتضانها والاعتذار لها، ولكن كرامته لم تسمح، فهي التي أخطأت. بكى هو الآخر، و لم يحتمل فهرب إلى غرفته.

سيظل طوال عمره يعاني من هذا الموقف والنقص الذي استشعره..

..

أحس بألم خفيف يدور في رأسه.. كان الشارع خالياً كأنه ترك وحيداً.

وثبت قطة بأناقة فوق سيارة مغطاة وانتشلته حركتها من ذاكرته. استقلت القطة فوق سقف السيارة وتماطت في كسل متنفضة برأسها.

كان العمود مازال منحنياً كمغن تجمد في حركته المتواضعة..

– ماما أنا عاوز اتجوز..

جاءه النداء ذات ليلة وهو ماض إلى بيته في العجوزة. استوقفته موسيقى متلاطشة نافذة من حديقة الأورمان.

كانت التذكرة بعشرين جنيه، لم يمتلكها. وقف على البوابة ينصت، ثم شفق عليه الحارس وسمح له بالدخول. لم يسمع موسيقى مثل التي سمعها تلك الليلة.. عزف سبع شبان مغمورون موسيقى غربية، وفي الوقت نفسه شرقية. أذهله كلامهم الذي ألفه في الحال، وشمخ المغني كإله على المسرح

رافعاً جيتاره لأعلى مدوياً صرخته في العالم.

استمع إليه مذهولاً، وأيقن أن هذا ما يريد فعله طوال ما حيا. ثم تعرف على توفيق..

..

حدقت فيه القطة بعداء، لكن ما لبثت أن موءت ودعته يلامس رقبتها برفق، فأغلقت عينيها في استمتاع.

كان صمت الشارع محملاً بتحريم خدش السكون. انتابه شغف وشحنت نفسه بطاقة مستعدة للتكوين، واتخاذ أي شكل ترغبه كالصلصال.

اجتاحته رغبة قوية في زلزلة الشارع بسكونه. رغبة تتوسع وتضفي على أي رغبة أخرى. كبتها بداية.

حدقت فيه القطة بتأهب، كأنه يتحول ويجتاحه نشاط "بارانورمال". انتفخت رئتيه ووشكتا على الانفجار..

ثم انفلتت الصرخة رغماً منه وبإرادته. زفير حيوان انقرض وحلق صراخه في عالم ما قبل الميلاد.

دوى صوته طويلاً في الشارع قبل أن ينزوي. ثم نظر حوله ليرى إذا كان قد أحدث فارقاً..

كانت القطة قد وثبت من فوق السيارة.

5

تدفقت الموسيقى كمياه تعتنق وتحتوي ما تصادفها.

صرخ بكل ما أوتي من ضعف وقوة.

ثم توقف توفيق بغتة وهمهم:

- في حاجة ناقصة!

استطرد شادي في تأفف:

- اللحن ماكانش نافع من الأول.

اشتكى جنو:

- إحنا ليه غيرناه أصلاً؟

عاد شادي متذمراً:

– الأغنية ما فيهاش دراما.. حد يقوله يا جماعة!

– دراما؟ هو مسلسل تليفزيوني؟

– أه مسلسل. اسمه.. لن أعيش في جلباب النغمة المتعفنة..

اشتد توفيق غيظاً وتدخل فاروق برزانة:

– بالهداوة يا جدعان!

انفعل توفيق:

– مش كل مرة نغير الأغنية على مزاجه.

– مزاجي إيه ومزاجك. إيه يا أخي الأنانية دي؟

– أنانية؟

– أه أنانية. الموسيقى ابتكار مش احتكار.

نزع توفيق حاملة الجيتار وخرج من الاستوديو دون أن يتفوه بكلمة أخرى.

تسمروا مكانهم مندهشين. لم يحدث أن غادر أحدهم الاستوديو أثناء العزف من قبل.

تمتم شادي:

– هو إيه يا أخي ده؟ إحنا في حضانة؟

بادره جنو بضيق وهو صديق لتوفيق:

– هو كل مرة خناء خناء. خنقتونا!

تأهب شادي ليرد عليه، ولكن فاروق سبقه:

– جنو تعالى نجرب الإيقاع مع بعض تاني، وأنتم يا جماعة خدوا "بريك"!

بحث عن توفيق. وجده في الردهة جالساً يتفرس الأرض تحت قدميه.

ليس لديهم وقت لهذا الهراء. تكاليف استوديو التسجيل باهظة. جلس بجانبه، وتفكر في شيء يقوله.

– إيه رأيك نكمل تسجيل؟

توقع أن يصب غضبه على شادي، ولكنه فاجأه قولاً:

– ما فكّرتش نحمل الأغاني على "النت" وخلاص؟

طالما حلموا بإصدار اسطوانة لهم. رغم أن "السي دي هات" باتت شبه منقرضة بعد ما حل محلها الـ"م بي 3"، وباتت الشبكة أفضل وسيلة للتسويق والتعريف.

حدق فيه وأحس أنه لا تنقصه سوى دفعة بسيطة ويستسلم. لعن شادي في سره.

– توفيق! أبوس إيدك! يلا بينا نكمل!

– أنا نفسي أمشي!

– تمشي تروح فين؟

– أسيب البلد دي وأهج!

– هي إيه المشكلة بالظبط؟

- المشكلة هي إحنا!

- يا بني هو أنا بحل كلمات متقاطعة؟

- واحد يقولي مسلسل والتاني كلمات متقاطعة.

زفر توفيق ونهض:

- يلا بينا!

لا يدري إذا كان يأخذ كلامه على محمل الجد. دائماً ينتهي به المطاف بالاستهزاء بالأمور..

لم يتبادل توفيق وشادي كلمة أثناء التسجيل، عزفوا الأغنية بتعديلات شادي.

وبالفعل كانت تنقصها "الدراما".

6

يعتمد مهرجان ال SOS على تقديم فرق ذي اتجاهات وخلفيات مختلفة تشمل "الروك" حتى "الراب". ويشترط المنظمون أن تقدم الفرق مقطوعات أصلية، وأن يجتمعوا في جلسات "جامينج" بعد العزف الأصلي ليشرعوا في تفكيك شفرات "الدي إن إيه" اللانهائية للموسيقى وإعادة تركيبها، فيمتزج "البوب" "بالريجيه" و"الروك" بـ"الراب"، مما يعتبره المنظمون إنجازاً لوجود الخصومات بين مختلفي الاتجاهات.

حيّا العازفون المتواجدون في الحديقة. هم مجتمع صغير يعرفون بعضهم البعض وتجمعهم الصداقات والعداوات، وبعضهم يجمعهم العزف في فرق ومشاريع مشتركة.

تجول توفيق بالميكروفون ليجرب الصوت وسط الشباب المتناثر فوق

العشب. تابع مهندس الصوت يوصل الأسلاك بـ"الميكسر"، وهو يشكو له من فرقة عمل معها منذ يومين و لم يسلماه الأجر المتفق عليه.

– كان مفروض تشديلهم الفيشة وهم بيعزفوا!

قال له توفيق ورجع إليه الميكروفون.

– هو فاروق لسا ما جاش؟

– فاروق مع بنته!

أومأ برأسه. اليوم الجمعة، يومهما المشترك بعد افتراقه عن والدتها.

تابعوا العاملين بالأكشاك المدعمة للحفل يصطفون ويرتبون "إعلاناتهم" و"يافطاتهم".

أردف توفيق:

– ساعات بحس إنها الفرحة الوحيدة في حياته.

– هي والموسيقى.

ما توعدهم ساحة الموسيقى المستقلة في مصر بشيء سوى إمتاع أنفسهم وجمهورهم، وبدون ذلك يستطيعون أن يحزموا أمتعتهم ويتركوا المجال..

راقب توفيق بحذر وتساءل إذا كانت رغبته في الهجرة التي أعلن عنها في الاستوديو متغلغلة بداخله أم ناتجة عن لحظة يأس عابرة.

– إزيكم يا شباب؟

..

بادلتهما لبنى ابتسامة بطريقتها الحافلة التي توحي دائماً لمستقبلها أنها تكن له إعجاباً دون الآخرين. كان شعرها مبتلاً، وترتدي "بادي" أزهري بحملات رفيعة وبنطلون جينز ضيق، أما قدميها فطلت بأظافرها المطلية بلون أحمر داكن في "صندل" خشبي ملتف بإحكام حولهما.

طوقت صدرها حمالة شنطة استكنت على خاصرها الأيمن وأظهرت الفارق بين صدرها.

قال توفيق مرحباً:

- يا أرض احفظي ما عليك!

ابتسمت برقة. كانت تحمل في يديها زجاجة مياه معدنية تقلبها بين يديها، صوبتها نحوه فارتدت المياه في الغطاء.

رمقته منتظرة منه مجاملة هو الأخر، فاكتفى بابتسامة. سألت بلامبالاة وهي تستخرج علبة سجائر "كنت لايت"من شنطتها، لا تدخن سواها:

- بتعملوا إيه كده؟

رد توفيق وهو يلاعب لها حواجبه:

- مستنيين القمر!

- يا سلام. ولو مكنتش جيت كنتوا هتعملوا إيه بنا؟

رد هو تلك المرة:

- كنت ههديلك كل أغنية في غيابك!

علق توفيق:

- يا نهار ألش!

قالت بعتابها المعتاد الذي لا يدري إذ كان جاداً أم هزاراً:

- أنت عمرك ما هاديتني أي أغنية!

أدخلت علبة السجائر في شنطتها، ونفذت الدخان ناحيته، ولمّا لاح بيده في الهواء ليبعده عنه، ابتسمت وسألت:

- هتغنيلنا إيه انهارده طيب؟

ردد توفيق هائماً:

- بالحق، هتغني إيه يا وحيد؟

- هغني "أي هيت يو سو ماتش رايت نو".

ضحكت وأظهرت أسنانها البيضاء المتساوية، فصاح توفيق:

- والنعمة قمر!

التفتت إليه وسألته:

- هي دي الأغنية اللي كنت عاوز تهديها لي يا خالد؟

ثم وجهت الكلام لتوفيق:

- ما عندوش نظر صاحبك!

- طول عمره طربش!

نفثت الدخان وأردفت:

- ما تعلمه يا توفيق إزي يتعامل مع الجنس اللطيف!

- بص واتعلم!

أمسك توفيق يدها وطبع بشفتيه قبلة عليها. فأسندت يدها على صدرها في تأثر بالغ، وابتسمت بسرور.

- أنا مش قادرة كده!

قال في استنفار:

- أنت فالح بس تكتئب معايا.

- ما أنت ما بتخلنيش أبوسك. بوس أيد ستك يلا!

- لأ، أنا مش مبوسة.

تمتم بنية انتقامية:

- توفيق قالك إنه بيمر بأزمة؟

- ليه يا توفيق؟ خالد منكد عليك عيشتك؟

- هو احنا ليه بنطحن في بعض؟

- اسأل نفسك!

- ما هو علشان كده ما بنصاحبش!

- خالد بي "بي ب م س" بقاله فترة.

- خالد دايماً بـ"ي بي م إس"!

بدأ يسأم مزاحهما، وأراد الاختلاء بنفسه قبل الحفل.

- رايح فين؟

- مش قلت بـ"بي م س". هغير "التامبونس".

- جتك القرف!

ابتعد كمن فلت من صحبة منيعة، وترك المسرح خلفه. كان الطقس خريفياً معتدلاً وملائماً للحفل.

توغل في الحديقة التي بدت أشبه بالغابة. وخفت الأصوات النابعة من ناحية المسرح، فاستدار وخيل إليه أن عليه العودة.

كل الفرق تكف يوماً ما، قال لنفسه وهو يبتعد عن المسرح.

اعتلى فجأة بوق شادي السماء، عزف منعزل عن الحياة. أطال نغمة مشدودة قبل أن ترنو نغمات قصيرة المدى تجرف الهواء وتشحنه بالوحدة.. كم نغماته نقية!

أراد اختبار إلى أي مدى إمكانه سماع الصوت. فتوغل أكثر وتلاطم العزف.

تعالت تغاريد بدلاً منه، عصافير مختبئة بين الأغصان ومتخفية بأوراق الشجر. كلما اشتد رنين البوق، اشتد صياحها محاولة أن تكسو برنينها الصوت الدخيل، ثم اشتد هياجها وراحت تثب فرحة ومنتصرة، بعد أن خمد البوق، فرجعت لشؤنها الصغيرة.

لا تجد تلك الكائنات الوديعة إلا التغريد للتواصل، حتى صريخها لا يخلو من الجمال.

اتخذ عاملون بالحديقة مجلساً على مشرف مبنى ناء، كانوا يتحادثون في صوت خافت في شئونهم.

حاذاهم على دكة قريبة منهم، وفرد ذراعيه على المسند. سكن المكان حوله في سلام، وأحس بكركرة في معدته. انتابته خفة لذيذة بالاسترخاء.. لو بإمكانه حفظ هذه السلوى..

استغرق في خموله حتى قطع السكون إرباً بدقات طبلة سريعة ومتتالية، كأن أحداً أفرغ طلقات مسدس. وصل جنو إذاً واكتملت الفرقة.

قاومت نفسه سلوانها، كسمكة تنتفض خارج مياهها. راقب عصفور يحرك رأسه بآلية فوق غصن شجرة، ينصت بحرص للتغيير حوله، متأهباً لفرد أجنحته والإقلاع أي لحظة.

ثم انعدمت الأصوات الأتية من ناحية المسرح، وتوقفت الطيور التي ترتجف قلوبها الصغيرة سريعاً عن ملاحقتها.

قام العمال المنهكون وتركوه وحده. وشعر بحيرة لا واعية كأنه آخر مخلوق في العالم. ثم ما لبث أن تحول الشعور إلى معرفة ساكنة، وانساب في تأمل الطبيعة التي تفتحت له كلما أمعن النظر فيها.

تراءت له عشرات العصافير، مخلوقات خلقت لتكون سعيدة، ولتجلب السعادة لغيرها. استنشق رائحة فل عابرة تنساب مع ألوان طبيعية تسترح لها الأعين. وتمايلت وانحنت أعواد العشب.

أوحى له السكون حوله بأن كل شيء مكتمل.

ولا ينقصه سواها.

ارتخت معدته لدرجة أنه أحس بأن عليه قضاء حاجته. مر بأنامله فوق جبينه.

واستحضر في ذهنه مقطوعة صوفية تحتدم نغماتها المتكررة مثل الابتهال..

يؤمن الصوفيون بأن الروح تسعى لملاقاة وجه الله تعالى والرجوع لمصدرها منذ افتراقها عنه بالجنة.

يقال إن مسافراً عبر الصحراء من قديم الأزل، كان يقضي ليله ونهاره في كبح الجماح، لا تتراءى له أرواح ولا مخلوقات، فاستشعرت نفسه الوحدة، ولاحقته ذكريات أحياء وأموات هبت فيهم الحياة. كانوا يحدثونه ليلاً، ويهمسون له ما لم يتفوهوا به وهم أحياء... تراءت له يوماً خيمة بيضاء انتصبت وحيدة قبال جبل يحجب عنها الشمس والرياح. قصدها بشغف وحنين للبني أدمين، وميز شيخ بدوي من بعيد وما يشبه صبياً جالساً عند قدميه. لاح لهما بذراعيه ليثبت حسن نواياه ويتبين أنهما حقيقيان.

– السلام عليكم!

رد الشيخ بهدوء الصحراء. لاحظ أن فم الولد مكمم، فاستغرب من أمره.

جلس بجانب الشيخ يلتقط أنفاسه ويشرب الماء. عندما أوشكت الشمس على الغروب، أعطى الشيخ إشارة للغلام كي يعد الطعام. أكلوا وجلسوا يستمعون لأسرار الصحراء المدفونة بداخلهم، يتابعون لألأة النجوم وشهابها الغير متوقع، والشيخ يتمتم الأدعية كل حين.

استوقفه حال الصبي الذي سمح له الشيخ بفك الكمامة فقط لتناول الطعام، مترقباً بتحسب حتى فرغ من مضغه، ثم أعاد الكمامة بنفسه طائعاً.

استفسر المسافر عن هذا الوضع الشاذ، فزفر الشيخ و لم يجب. ولما ألح المسافر على المعرفة كأن الصحراء لا تملك أسراراً، أفشى الشيخ أن الغلام يمتلك صوتاً لم يسمع له مثيلاً.

– عندما يشدو تصاب الخيول بالجنون ويبكي المرء مراراً لشدة جماله.

تساءل المسافر مستعجباً لم يخف جمال وهبه الله.

رد الشيخ بحزن:

– إن قلب البشر لا يحتمل الجمال المفرط، ولهذا خلق الله الصحراء، كي يحلم المرء بالحدائق والأنهار.

طلب منه المسافر فك كمام الصبي لسماع صوته والحكم بنفسه. فهز الشيخ رأسه نافياً.

– هذا الطلب ستكون له عواقب ضارة.

ولكن المسافر ألح فتفتت مقاومة الشيخ تدريجياً، ورمق الفتى كأجل. أومأ للصبي أخيراً برأسه، ففك تكبيله دون أن ينطق بحرف.

لم يبد الفتى أي رد فعل. ومضت فترة من الصمت في صحراء لا تسمع المرء سوى أنفاسه.

كرر المسافر طلبه دون استجابة.

ظنه أخرس، ونظر الفتى إلى الشيخ مستسفراً. لكن الأخر بدا مستسلماً ومتباعداً كأنه سلّم أمره.

أغلق الفتى عينيه و لم يتحرك له جفن. فنفر المسافر ونهض، ظنهما يسخران منه.

أوشك على المغادرة فإذا بصوتاً ناعماً عذباً ينساب كمياه دافئة، استجاب قلبه له بفطرة وكأنه نابع منه. جلس رغماً منه. وشدا الغلام بصوت طفولي مليء برحمة واسعة، غمرت عيناه بالدموع.

أحس بحواجز داخله تزول.

واصل الصبي غناءه، وتملكه حزن جامح بقدر الجمال أن يسببه. فاض به قلبه وكسا وجهه بيديه واشتد نحيبه.

كان الشيخ يبكي جانبه بلا حول ولا قوة، ولحيته البيضاء مبللة بالدموع.

توسل للغلام ليكف، ولكنه تابع شدوه.

تراجعت الخيول في ذعر، وما لبثت أن انتفضت ورفصت بأرجلها ثم انطلقت في الصحراء العرجة كأنها ملبوسة.

انحنى على ركبتيه، وبكى كما لم يبك في حياته. تذكر أحداثاً في حياته ملئته بالندم والشغف. و لم يعد يميز ما أتى به إلى هنا..

يقال إنه عندما توقف الفتى، اندفع الشيخ نحوه وأسدل الكمامة على فمه، و لم يسمعه بشر بعدها..

فقد كان يسمح له الشيخ بالاختلاء في الصحراء، حيث لا يسمعه بشر، وكانت تتجمع الثعابين والعقارب حوله وتصاب بسكون غريب.

..

أفاق على شخص يلوح له بذراعيه من بعيد، تبين أنه توفيق. ثم تدارك أنه كان يحلم.

7

- يا قدري..

أغلق عينيه وهبّ ليلقي مواله.

انبسط الجمهور أمامه والتحمت الرؤوس ببعضها كشعب ينتظر خطاب ملكه.

- بأيييييي حق تستبدييين قلوب محبيييك..

اشتد التصفيق وتعالت الآهات. انساب الجمهور معه في انفعال غريزي.

تموج صوته وأطال الكلمات كأنه يريد أن يشمل بها العالم أجمع.

معجزة الإنسان تكمن في أنه لم يؤمن بها.

تابعته الفرقة وهو يتجه نحو الذروة. جابت الأجواء صرخة مدوية للساكسوفون. رنت نغمات "جيتار" و"بيس" متوازية ترافقه لما هو ساعي البوح به. كل الأعين متسلطة عليه الآن!

استعد لختم البلاغ. رسالة استحالت عليه نفسه فهمها. اشتد صوته كأنه ينازع نفسه، صرخ:

- أنت قدري وما أنا قاااااااادر..

اندلعت طاقة عارمة اجتاحت القاعة والصفوف الأمامية منتشرة حتى الصفوف الأخيرة. لم تدع روح دون أن تمسها.

دوت مشاعر في المستمعين، لم يكن ليدركوا أنهم يمتلكونها، فصفقوا لينفضوا هذا الإحساس الغريب.

حلقت جنيته في الهواء بشعرها المتهدج، ووجه لا يحمل أي عواطف..

سرت ارتعاشة في بدنه وراودته أحلام المنى..

استجمع قوته ليتخطى تحفظ النفس اليومي، فأطلق ختم البلاغ. والتهب كشهاب يخترق الأبعاد، غير آبه بموقع سقوطه.

ثم حمله رفاقه إلى البر، بعد ماغدا إلى ما كان يصبو إليه..

8

- جامد يا مان!

- برنس!

- هاااايل!!

- "أميزينج"! "واو"!

ربتت الأيادي عليه وأشرقت الوجوه قباله. انتشلته حالة ثمل اعتادها، وتغمره دائماً من جديد.

..

- ويا ترى مين حبيبة القلب اللي بتغني لها؟

نشذ التعليق عن الآخرين، وعلق في الجو. تربصت به لبنى. اخترقته

بعينيها العسليتين وابتسمت كأنها ألقت دعابة، فابتسم بدوره.

- خالد.. إيه النظام؟

تمازح توفيق مع جنو وشادي وحتى فاروق بدا سعيداً. إنهم يحيون حياتين، حياة قبل وأخرى بعد العزف. تطلع في وجوه اعتادها وأحاطته في نصف دائرة، قرر أحدهم:

- هنروح عند لبنى يا جماعة!

تفحصته بنظرة استطلاعية. عادة يصطحب توفيق وفاروق إلى المقهى، أو يذهب إلى البيت مباشرة..

- هاه؟ سبع ولا ضبع؟

تدفق هواء امتزج بطعم الدخان إلى السيارة. ففتح النافذة لينسرب..

وهم في المدرسة كانوا يتجولون بالسيارة ليلاً يستمعون لـ"داير ستريتس" و"ميتاليكا"، ويتخيلون أنهم يعزفون النغمات المعقدة، فيحركون أناملهم مع الموسيقى ويلتوون بوجوههم في تألم. كانت "الميلانكولية" شعارهم!

رمقه توفيق بابتسامة خبيثة. يظن هذا المخبول حقاً أن شيئاً يدور بينه وبين لبنى. لا يدري لم يشجعه على أي حال، وهما لا يتناسبان لبعضهما البتة، فهي متحررة وتدعو الفتيان إلى بيتها، وخلاف ذلك تشرب وهذا وضع لن يتقبله أبداً..

بلغوا بوابة "الكومباوند" الفخمة.

- الأنسة لبنى!

فتح الحارس البوابة وأدار توفيق عجلة القيادة إلى أقصى اليسار ليجتاز الممر الضيق وسط السور والفيلات المحاطة بالحدائق. خيل إليه أن الهواء أنقى حين غادر السيارة.

احتوت حديقة متوسطة الحجم حمام سباحة صغير ودرج أفضي إلى شقة مطوقة بزجاج مقوس. أفاده توفيق بأنهم يستطيعون التصرف على سجيتهم، فوالدي لبنى يعتليان الطابق الأرضي والعلوي وغالباً ليسا بالبيت..

توسطت الصالة شاشة عريضة، تبعثرت أمامها وسادات ملونة وفوتيهات ارتموا عليها في تسابق. امتدت الصالة إلى ردهة تفضي إلى غرف أخرى، واعتلت الحوائط لوحات زيتية لريف أجنبي كئيب..

أخذته لبنى في جولة. هو الوحيد الذي لم يزرها من قبل. جال في ذهنه أن بقدره تملك كل هذا لو تزوجها.

فتحت باب غرفة تحتوي مكتبة اصطفت فوقها كتب عتيقة بعناوين فرنسية. سطعت أباجورة مغطاة بالقطيفة تفضي بنورها على "فوتيه" تثير النفس للقراءة.

- كتب جدو!

اصطفت فوق المكتب صور ترصدها في مراحل مختلفة في عمرها. ترقبته بفضول وهو يقتحم مملكتها.

- بتشتغلي هنا؟

حدقت فيه بنظرة لم يفهمها. توحي نظراتها دائماً بتوقعها أكثر مما هو ناوي أن يعطيها.

لسبب ما توقع أن يجد لون الحائط زهرياً. لم تدل ممتلكاتها على أي أنوثة. خيل إليه أنها تتعمد إخفاءها قصداً للتظاهر بالقوة.

قبعت علبة سيجار فخمة على المكتب.

– بتوعك؟

– عاوز واحدة؟

خطر بباله ما فعله "كلينتون" مع "مونيكا لوينسكي". مست بأظافرها المطلية باللون النبيذي، لون الجنس، غطاء العلبة وبادلته نظرة عدائية.

– يلا نرجع!

تهافت الشباب على متابعة مبارة "بلاي ستيشين" افتراضية. راقبتهن الفتيات في ضجر وتقمص توفيق دور المذيع وعلق بسخرية على أحداث المباراة مما أثار ضحك الفتيات.

دخل عليهم عامل وضع صنية برونزية مليئة بالمشروبات والفواكه على المائدة. أصابه الضجر وتوجه إلى الردهة حيث كان شادي يجالس شاباً وفتاة يحتسون البيرة ويلفون سجائر تبغ.

– خالد يا "مان".

مد له شادي ذراعه وصافحه بقوة.

– تعالى نحتفل بصداقتنا!

ناوله زجاجة بيرة، أبى أن يتناولها، فصمم شادي:

– عليّ الطلاق؟

ضحكت الفتاة، وقضب الفتى الأخر جبينه، لم يكن مستمتعاً بالعرض.

– والعشرة المشبوكين دول!

احتجت الفتاة:

– سيبه بئا!

ابتسم شادي ابتسامته العريضة:

– منور يا "مان".

يظنه أحياناً مخبولاً لما ينتابه من تقلبات متناقضة، فيمتعض وجهه ويكسوه النفور، ثم يفتر ثغره فجأة عن ابتسامة بلهاء، ولا تدري إن كان سينقض عليك في اللحظة، أم يأخذك في أحضانه.

– أفسدتم أخلاق الولد خلاص؟

جاءت لبنى وقد أبدلت ملابسها. ارتدت سروالاً رياضياً وقميصاً أسود ضيقاً، بدت أنيقة فيه. لاحظ الزينة التي وضعتها على وجهها وفاح منها عطر أنثوي مسكر. اتخذت مجلساً بجواره.

– أفتحلك "ستيلا" يا لبنى؟

– لأ!

ألا تشرب كي لا يظن بها سوءاً؟ قد رآها تشرب من قبل.

– مالك يا "مان"؟

تفحصه شادي بجدية جعلت الآخرين يهتمون بأمره، فتعكر لجعله محض الاهتمام.. وجودها يوتره.

- إنما خالد كان "برنس" في الحفلة.

- خالد دايماً "برنس"!

كان الشاب الأخر منهمكاً في لف سيجارة.

ماذا لو كان مخطئاً وهي لا تسعى وراءه؟ فربما تغازل فتيان آخرين بالطريقة نفسها، هذا لو اعتبر ما يجري بينهما غزلاً حقاً. كل المغنيين يعتقدون أن العالم يدور حولهم..

تركه شادي وحدق في لبنى بجدية مصطنعة.

- لبنى!

أخرج من جيب قميصه "جيونت"، وضعه أمامها على المائدة، ورفع يديه كأنه يشهدها.

- مش عارف وصل جيبي ازاي، بس "مستر جو" مجيته غالية علينا.

- هو "مستر جو" عنده انتفاخ كده ليه؟

نفخ شادي وجنتيه بينما انهمكت الفتاة في الضحك وأثار المشهد انتباه الفتى الأخر.

- "مستر جو" يقعد ولا يتفضل من غير مطرود؟

تناول الشاب "الجيونت" بشغف بين أصبعه.

رمقته لبنى بشغف وقد بدت متسلية من العرض. كان موقناً أنه لا

يروق لها أن يدخنوا في بيتها. ولكنها لن ترفض لهم طلباً. ليست طريقتها. قالت أخيراً:

– ادخلوا الحمام وافتحوا الشفاط! لو أبويا شم الريحة هيقتلني.

– حبيبة قلبي!

نهض شادي مسرعاً مع الفتاة والشاب.

– وافقتي ليه؟

– ما كنتش عاوزة أفسد عليهم الجو.

– ده بيتك. لو مش مرتاحة أنهم يدخنوا، قولي!

لم ترد. داعبت شعرها باستسلام. ربما تريد رجلاً "يشكمها" ويتحكم فيها.. لم تبد له جميلة الآن.

– مين بئا اللي بتغنيلها؟

قررت الهجوم، طالما لم يفسر استسلامها عن نتيجة مرغوبة.

أسند ظهره للكنبة. لسبب ما لم يرد خسارتها.

– إشعرفك؟

– أنا بنت، واعرف الحاجات دي كويس.

– ده دور بتقمصه على "الستيج".

– أنت ما بتعرفش تمثل يا خالد!

لم يرق له أن يذكره أحد بما لم يستطع فعله. حدقت فيه بعينين ثابتتين، مشهرة أسلحة الغيرة، عازمة أن تحطم هدفها إذا لم تتملكه.

ظهر توفيق.

- إيه يا "مان"! بيرة؟ مش ناقصك إلا دنيا.

كست نفورها بابتسامة باهتة.

- صاحبك بيحب!

- خالد كله عواطف.

رجع شادي مع الفتاة والفتى الذي بدا في مزاج أفضل.

- لبنى! مستر "جو" بيبلغك تحياته، وبيقولك أنتي فين، ما تيجي بنا!

- أنا هكت!

انهالت عليه الاعتراضات، واختلس النظر إليها ليتبين رد فعلها. فلم يرغب في مغادرتها هكذا.

تابع مؤخرتها تعلو وتهتز أمامه وهي تصعد الدرج. تفكر أنه ربما ينجذب إليها لو فقدت بعض الوزن.

أراد أن يقول شيئاً محايداً.

- شكراً على الدعوة!

محايد أكثر من اللازم. ابتسمت وذكرته ابتسامتها بشادي. خيل إليه أنهما ربما يتناسبان أكثر لبعضهما..

سألته وهي تفتح البوابة:

- ما عجبكش الجو؟

نفى مسرعاً:

- عندي شغل الصبح.

- ممكن أقول لك حاجة؟

ابتسم مواسياً. أحس بمجاملة آتية وتملكه الغرور.

- إبقا حاول مرة تاخد "جوينت" من شادي. جايز ساعتها تفك شوية!

أغلقت البوابة الحديدية. وتبعثر كلامها في ذهنه عندما وصل البيت. ولكن لم يتلاش دون ترك أثر مرير.

9

- صابر! واحد مشمش!

نفث توفيق سحابة كثيفة من الدخان..

انتهوا للتو من التسجيل، إذا جرت الأمور حسب خطتهم، سيعيدون أخر ترتيبات الأسطوانة بعد شهرين. سيوقفون التسجيل ليومين فقط لارتباطهم بحفل في الأسكندرية، فكانوا في حاجة للأجر..

- مش فاهم! يعني أنت بتشوف صورها بس على "الفيس"؟ طب تطلع مين؟

- قلتلك ما عرفش!

اعترف له بولعه بجنيته في لحظة حميمة بين أصدقاء، شاء بها تلطيف الجو بينهما غالباً.

– فيها إيه يعني؟

هز كتفيه.

– طب، اسمها إيه؟

– واسمها يهمك في إيه؟

امتعض وجه توفيق وصاح:

– أنت متخلف يا بني؟

قطب جبينه واستطرد مسرعاً:

– يعني أنت بتحب بنت شفت صورتها؟ بالذمة ده كلام ناس عاقلين؟

كان فاروق سيبدو أكثر تفهماً، فهو رومانسي مثله.

– حاولت تبعتلها طيب؟

– ما ردتش!

– معاها حق.

أخذ توفيق نفساً وقال متفلسفاً:

– تفسيري الوحيد أنك عندك مخاوف ارتباط. أنت بتقابل كل ليلة ميت بنت. اشمعنى دي؟ أقطع دراعي أنها لو كانت عبرتك، كانت هتطلع زي أختك برضو.

– قولي أنت! إيه حكايتك بنا مع السياسة؟ أنت وعاطف مابتاش ليكوا سيرة غيرها اليومين دول.

- عاوزني أتكلم في إيه يعني؟ في إيه أهم من الواقع اللي احنا عايشينه؟

- هو أنت ليه عدائي معايا كده يا بني؟

- يا عم أنا جيت جنبك؟ أنت بتسأل وأنا بجاوب. أنت عجباك يعني أحوال البلد؟

نظر حوله منزعجاً، ليتبين إذا كان أحد ينصت إليهم. قال واجماً:

- السكة دي قلق وأنت عارف!

- مش ربنا قال: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم!

- طب غير نفسك أنت الأول!

فركت يد توفيق رقبة الشيشة وزفر:

- أديني بحاول!

انفرجت شفتاه لتقول شيئاً ولكنه تراجع. ثم ابتسم وعاود:

- مش هتقوللي اسم الأمورة إيه؟

قرقض مبسم الشيشة بأسنانه في فضول.

- مش جايز أكون عارفها.

أفشى له عن اسمها..

- ارتحت؟

- أديني يومين وأجيبلك أرارها!

10

اعتلى مسرحاً صغيراً في وسط البلد.

انتصب أمامه رجال في بدل سوداء ونساء يرتدين فساتين أنيقة، تعرت سيقانهن وأذرعهن الباهتة. دقق في وجوههم التي كستها أقنعة سوداء، وبدلاً من عيونهم قبعت جحور واسعة أثارت الرعب في نفسه.

تسمروا دون حركة، وطوقوه في نصف دائرة، بينما سلط الكشاف الضوء عليه وحده، كاشفاً ما تخبؤه العتمة.

حاول أن يحجب النور بيده. لوح لشخص غير موجود كي يخفت الأنوار.

تذكر أنه لا يرتاح العزف أمام جمهور صغير.. انعدم الصوت و لم يسمع سوى أنفاسه.

راحت الجحور تثقبه بسوادها. فلم يجد مخرجاً غير الغناء. انتظر الموسيقى ولكنها لم تعل. تساءل لما هو وحده وأين رفاقه؟

تأهب للغناء، لكن تحشرج صوته، و لم يقدر على التفوه بكلمة.

احتدت الوجوه وبدت نافذة الصبر.

نظر حوله في ارتباك، وجد توفيق يداعب الجيتار بأنامله دون أن تنسرب منه نغمات. بدا منظره قبيحاً، ووجهه محفوراً به ندابات زائغة. حاول أن يجذب انتباهه هباءً، لكن لم يغب بصره عن جيتاره.

بذل أقصى جهده كي يستخرج صوته. حذق والتوى وجهه. ثم انتابه إحساس ملح للتبول.

تحققت مخاوفه عندما تقدمت الأقنعة نحوه كالأشباح. أمسك الميكروفون في ذعر، وحذق بكل قوته.

و لم تحلق إلا صرخة مكتومة.

11

استيقظ إثر رجة السيارة..

دلت علامة الطريق أمامهم: الأسكندرية 60 كم.

كانوا في طريقهم لإحياء حفل موسيقي بالمكتبة، هم وفرقة فرنسية دعاهما المركز الثقافي الفرنسي. عادة تستند المراكز الأجنبية لشعبية الفرق المحلية لتضمن نجاح الحفل. هم أنفسهم بدأوا مشوارهم في المراكز الأجنبية، يعزفون لأصدقائهم وأصدقاء أصدقائهم. لم يكن وقتها هناك وجوداً للساقية وحديقة الأزهر وبيت السحيمي وروابط والمورد إلخ..

استقل هو وعاطف سيارة شادي، بينما ركب توفيق مع فاروق. ظن أنها فكرة جيدة للتلاحم مع شادي ومناقشة بعض الأمور معه. اختبأت عينا شادي تحت قبعة "البيسبول"، وهو يحرك عجلة القيادة في ضجر.

حملق في يديه الكبيرتين المستلقيتين على عجلة القيادة.. طالما تعجب كيف يستخرج هذا الكائن المتقلب نغماته الرهيفة. رفع شادي قبعة "البيسبول" ليمسح العرق المتصبب فوق جبينه وقال:

– أنا هخطفلي يومين في الغردقة بداية الأسبوع!

هذا المخبول! لديهم تسجيل وترتيبات طوال الأسبوعين القادمين.

– والألبوم!

آثر الصمت. مهما حاول الاقتراب منه سيظل متقلباً. هناك عازفون لا يجيدون الاندماج، وهو نادراً ما يصطحبهم إلى أي مكان بعد العزف، مفضلاً التسكع مع غرباء مثله.

أخرج شادي "الأيفون" وراحت عيناه تتنقل بين الشاشة والطريق، فقال له بحدة:

– ممكن تركز في السواقة؟

تابع شادي الهاتف وكأنه لم يقل شيئاً.

الأسكندرية: 40 كم..

أدار شادي موسيقى جاز صاخبة، وبعد وهلة اشتكى عاطف في الخلف، وطلب منه أن يخفت الصوت. رمقه شادي في المرآة بتأفف، فسأله:

– تقدر تقولي بتحب فيها إيه الموسيقى دي؟

– بحبها علشان مش فاهمها!

تفاوتت درجة خضرة الحقول والأشجار حولهم، تناثر فلاحون نحيفة أجسادهم المترهلة وزوجاتهن اللاتي ترتدين جلاليب سوداء تخفي قوامهن كاملاً. تفكر كم يكون الجمال مرهوناً بالثراء! كان الفلاحون يتابعون عملهم بأجسادهم المتقشفة، قناعة أنهم يحيون الحياة التي يستحقونها.. مرقت مقاهي على الطريق متردية، تجالسها أرواح ليست لها مكان في هذا العالم، بائعات يحملن رضيعهن في حجرهن، وحمير تساق وراءها راكبوها، وهم منساقون بدورهم وراءآمال كاذبة. تابعهم بعينين لا تستوعب ما يتراءى لهما كلياً...

تصلب قضيبه أثر الرج. لم يمارس العادة منذ لا يدري كم من الأيام. إثر مرواحه ليلاً يكون عادة منهكاً لا يشعر بأي شيء. ضغط قضيبه ضد سرواله وانتفخ.. شاحت له لبنى بساقيها المملوءتين وهي تفحص ببطء عن حمالاتها، كاشفة عن نهدين مثل الباذنجان. أثاره منظرهما رغم عدم اكتمالهما. ثم جال خياله بتيسير بصدرها الممتلىء وابتسامتها الموحية بالجنس.

لو فاضل بينها وبين لبنى، لختار تيسير.. بوسعه الزواج منها مثلما يفعل الشباب في سنه.

بغتة أوقف شادي السيارة ووثب إلى الخارج.

– بيبّي!

صاح واختفى وراء بيت مهجور على المحارة. نظر خلفه خاشياً أن تصطدم بهما سيارة قادمة. تبادل نظرات ضيق مع عاطف. مرت خمس

دقائق و لم يعد، فصاح عاطف متأففاً:

– هو بيعمل إيه كل ده؟

رجع شادي أخيراً وهو يسحب سوستة سرواله، وابتسامته البلهاء على وجهه.

– في فلاحة شافتني وأنا بروي الأرض.

فاحت منه رائحة حشيش. رمقه غير مصدق.. هذا المعتوه!

..

انطلقت السيارة فوق الطريق، فغفلت عيناه، ولما فتحهما، فاح رحيق البحر قبل أن يعتلي أمامهم بجدارة. نزع شادي قبعته، ودع الرياح تداعب خصلاته.

– حمد الله على السلامة يا رجالة!

امتد الكورنيش أمامهم إلى ما لا نهاية معبقاً برائحة ملح ذائب، مكتظاً بمارة وفتيات وشباب. تناثر رجال تحادث البحر ويحادثهم، وصيادون وبائعون ينادون على رزقهم.

تابع البيئة التي اقتحموها بشغف.

تمتم عاطف:

– أنا بعشق الأسكندرية!

لم يبد على شادي أي تأثر بالمنظر حوله.

سأله:

-- أنت ملكش في الأسكندرية ولا إيه؟

- أنا أصلاً من الأسكندرية!

أكلوا "ساندوتشات" في "كوفيه شوب" على الكورنيش، ثم توجهوا إلى المكتبة. كانت المنطقة قد ازدهرت حولها بعد افتتاح مكتبة "ديوان" و"سيلانترو". استقبلهم "زافيير" مدير المركز الفرنسي على المسرح، وصافحهم بحرارة، ثم عرفهم على أربع فرنسيين، أحدهم من أصل أفريقي، والأخر من أصل مغربي، وفرنسي أشقر وفتاة قصيرة القامة بملامح أوروبية. لا يلتقون فتيات في مجالهم إلا نادراً، حتى وسط الأجانب. اختلس النظر إليها، كان شعرها ذهبياً، وترتدي نظارة سوداء سميكة متناسقة مع وجهها.. لم تكن فاتنة، لكن جذابة بطريقة ما.

- دي سارة.. المغنية.

تكلمت بإنجليزية ممزوجة بلهجة فرنسية قوية:

- لقد أرسل لنا "زافيير" أغانيكم. إني متشوقة للاستماع إلى عزفكم. أنت خالد! عرفتك من الفيديو.

كانوا ودودين وألقوا عليهم أسئلة عديدة عن الساحة الموسيقية المستقلة في مصر. شرحوا لهم كيفية الصعوبة في التفرغ للموسيقى في فرنسا، حيث لا تكفي الأجور للاعتماد عليها كلياً وحيث المنافسة شديدة.

شرح زافيير:

– إنه الحال نفسه هنا. هناك الكثير من العازفين البارعين ولا يجدون الدعم.

تابعت سارة بصوتها الداكن:

– في باديء الأمر لم نكترث أين نعزف، حتى لو لم يتخط عدد الجمهور إلا عشرات، كنا سعداء. لكن مع مرور الوقت اكتشفنا حدودنا، وصار الإحباط يصيبنا. ولكن كلما نعتلي المسرح ننسى كل شيء آخر. أليس كذلك يا أولاد؟

ابتسم العازف من أصل أفريقي:

– نعم، لما تصعد سارة على المسرح تخلع حذاءها وتقف حافية كأنها على "البلاج" وتنسى كل شيء.

سبته بالفرنسية فانفجر الفرنسيون ضاحكين. أردفت بالإنجليزية:

– إني قلقة بعض الشيء إزاء التواصل مع الجمهور، فهم لا يفهمون لغتي، أليس كذلك؟

طمأنها متخوفاً أن يسخر منه توفيق:

– ستكونين رائعة! ستغريهم لكنتك الفرنسية "الشرمانت".

نطق "شرمانت" بطريقة فرنسية. فهمس له توفيق بالعربية:

– أنت عارف "شرمانت" دي جاية منين صح؟

– "شرمانت" دي تبقى خالتك!

ثم قال للفرنسيين شارحاً:

- إني أسبه كما فعلت هي معكم للتو!

ضحكوا ودعك زافيير يديه في حماس.

- لدينا الكثير من الترتيبات قبل الحفل. سأراكم لاحقاً!

- أتتخيل أن الجمهور سينسجم حقاً مع أغانينا؟

سألته سارة بقلق. بدا طبيعياً أنهما يتحادثان، فهما المغنيان. رمقه توفيق وابتسم بخبث.

- لا أدري كل مرة اعتليت المسرح، وكل مرة أشعر كأنها أول مرة.. لقد أذهلني صوتك. أنت تستخدمه كآلة، وصرخاتك الوجودية.. "باردون موي". إني دارسة الفلسفة، وأميل لانتقاء مصطلحات غير مفهومة أحياناً.. "بورجوازية" متعفنة، ماذا أفعل.. عليك أن تحترس، فمعظم من درسوا الفلسفة معقدون نفسياً على كل حال.

اسمع.. يسعدني التوغل معك في الحديث لاحقاً بعد الحفل. ربما هناك مكان نستطيع أن نلتقي به..

12

اتجه مع عاطف بعد ضبط الصوت إلى قاعة جانبية، ليقضيا صلاة المغرب والعشاء.

دعا الله أن يحفظه أمه، ويكتب لهم النجاح في الألبوم، ثم تفكر في أشياء أخرى يطلبها، لكن لم يأت شيئاً على باله.

كان جنو ينتظره في الردهة.

– خالد، ممكن نتكلم؟

– ما ينفعش بعد الحفل؟

لاح الوجوم على وجهه وتمتم:

– أفضل دلوقتي!

توجها إلى الخارج. أطلقت السيارات العابرة هديراً كالأمواج، وهم يعبرونها. اصطبغت خلفية السماء بلون برتقالي سائح، كأنها أغرقت في علبة ألوان. وكانت الشمس تهوى هشة في قاع البحر.

تمدد رجل وحيد فوق السور، وتدلت قدماه الحافيتان التي راح يأرجحهما.

جلس جنو بوجهه للبحر قبال المباني المطوقة الشاطيء على الجانب الأخر.

نطق مباشرة:

– أنا هسافر انجلترا كمان تلت شهور.. هعمل "أم بي أيه" لمدة سنتين.. أنت أول واحد أقوله.

اعتلت موجة بعيدة تجمعت قبل أن يلتهمها البحر. فرك الرجل قدميه العاريتين ببعضهما.

– لسه جواب القبول من الجامعة واصل من يومين.. أنا كنت عاوز أبلغك على طول علشان تعملوا ترتيباتكم!

في البداية حاول قمع موجة غضب اجتاحته، ولكنه لم يقدر تمالك نفسه، فهب فيه غاضباً:

– أنت جاي دلوقتي بروح أمك تقول إنك مسافر كمان تلات شهور؟ أنت بتستهبل يا جون؟

رمق جنو البحر في حرج وتمتم اعتذاراً.

هذا ما تخوفه دائماً، أن تتفكك الفرقة. سيضطرون لإعادة كل ترتيباتهم.

– والألبوم؟

– أنت مش قلت فاضلّنا شهرين؟ أنا ماشي آخر يناير! هنكون خلصنا!

شظيت موجة انتحارية تحطمت على الشاطيء وتفتت لألف قطرة، بينما توعدت أخرى بالعزوف، مستعدة للهلاك، أكثر إصراراً لبلوغ أبعد بقعة ممكنة.

– أنا آسف يا خالد! بأمانة!

وماذا بوسعه فعله؟ سيضطرون البحث عن "بركيشينيست" آخر.

تنفس البحر بصعوبة، وكأن سفر الأمواج أرهقه.

– يلا بينا نرجع!

أحس بالأعين تحدق فيه وهو يتخطى الزوار أمام المدخل. لفظ أحد اسمه، التفت متأهباً متوقعاً سماع مصيبة جديدة.

مثلت تيسير أمامه بابتسامتها المشرقة. كانت ترتدي حجاباً أزهرياً وقميصاً برتقالياً.

أول ما خطر على باله أنها أتت من أجله، فتحنط وجهه.

– مالك؟

– ماليش!

حملقت في وجهه بحنية.

- أنت كويس؟

اشمئز لإكتراثها، فاحتدمت ملامحها الحسنة، وضغطت على شفتيها بتفهم.

- أنا هسيبك دلوقت. ربنا معاك!

أوشك الحفل أن يبدأ وهو في حالة مزرية.

ارتدى حمالة الجيتار خلف الستار، وقرأ المعوذتين، ثم توهجت الأنوار وسحب الستار.

13

تلاشى القلق بمجرد أن بدأوا العزف.

شقت النغمات طريقها تدريجاً إلى حسهم، وبمجرد أن دأب الغناء، اندفعت نشوة الأندورفين في جسده. إنه يحيا من أجل تلك اللحظة.

لم يكن أفضل عروضهم. بدا شادي منقبضاً في ارتجاله، ثمة تكدسات غامضة تغلغلت في نفخاته، و لم يكن جنو منسجماً أيضاً في انطلاقاته. ولما أطال توفيق "البيس"، أفسد عليه دخلته.

جاءته تيسير بعد العرض لتودعه.

– أشوفك في مصر!

كان وجهها متجهماً. واستغرب لتحملها تقلباته.

– استني!

نظرت له بعتاب. داهمته الرغبة أن يمسك يديها.

– ما كنش قصدي أكون غلس.

صفت ملامحها وفاضت بحنان.

– أنت كويس؟

أومأ برأسه.

– مش هتسمعي الفرقة الفرنسية؟

– القطر هيفوتني. خللي بالك من نفسك!

أراد وعدها بشيء قبل أن تغادر، ولكنه خشى ألاّ يدوم.

قدمت الفرقة الفرنسية مزيجاً من "الريجي" و"الجاز". أمسكت سارة الميكروفون وهي تنظر حولها على سبيل التعارف. ثم تمايلت مع الموسيقى، وخبطت براحتها على معصمها مع الإيقاع. تدلتا ذراعيها العاريتين في الهواء وغنت بصوتها الداكن لحناً "ميلانكولياً". كانت تنطق وتجر كل حرف بوضوح. ثم اشتد الإيقاع وتجولت فوق المسرح وهي تحث الجمهور على التصفيق وتلقي الدعابات مثل "نينا سيمون" بإنجليزيتها الركيكة. واستجاب الجمهور معها بتلقائية، فنسيت توترها وبدا له أنها تسير فعلاً فوق "بلاج".

أصر زافيير أن يرتادوا معاً حانة "الشيخ علي" بعد الحفل. استقلت سارة بجانبه السيارة. بدت في مزاج طيب وراحت تثرثر بارتياح بعد ما

تمت الحفلة بسلام. ولما أشار زافيير إلى خارج النافذة ليريها "فيلا" المركز الفرنسي، انحنت إلى الأمام واستندت بيدها على ركبته.

تفرقوا على ثلاث طاولات، مصريون وفرنسيون معاً. بدا طبيعياً أن تجلس جواره.

كان البار أشبه بحانة فيلم أبيض وأسود، بحيطانه الباهتة وباره الخشبي قديم الطراز وتحشرج صوت أم كلثوم من السماعات المتآكلة. شغل الموائد فنانون وصناع أفلام يتناقشون في الأفلام والسياسة، واكتفى الرواد الأصليون بجلوسهم صامتين وقد سادتهم حالة من الخمول وقد جمعتهم مشاركة وجدانية كل حين.

لاحظ مصافحة النادل لشادي بحرارة، لم يكن لديه أي علم بأنه اسكندراني الأصل..

طلبت سارة "ستيلا"، وثنت ساقها تحت ركبتها ملتفتة إليه. حكت له بلكنتها الفرنسية عن ترعرعها في سوريا لإشغال والدها منصباً في السلك الدبلوماسي، وكيف اختلطت بالثقافة العربية في طفولتها. وهي الآن تعيش بمفردها في باريس، مدينة العازبين، كما وصفت.

روت له عن ارتباطها بشاب مغربي. كانت تتردد معه على المطاعم العربية بباريس وتختلط بأصدقائه.

– كم أنا مولعة بطعامكم! الكسكس والمناقيش والمقلوبة.

شرح لها أن هذا ليس طعاماً مصريا، فأبدت معتذرة:

- إنه من السذاجة أن أعتقد أن ثقافتكم موحدة لأنكم تتكلمون بلسان واحد.

ارتاح لتأملاتها العشوائية، تفرغها من قولها، واستدراكها خاطر أخر.

تفهمت رفضه لتناول الكحول، ودلت عن إعجابها بتمسكه بقيمه.

- لدي أصدقاء في فرنسا يحافظون على هويتهم الإسلامية، ومع ذلك يحيون في صلح تام مع عيشتهم في فرنسا.

لامست ذراعه عدة مرات ولما أرته صور على هاتفها لشقتها الصغيرة، طوق يدها لثوان.

حكت له عن بارها المفضل في شارع بـ"مونتبيلير" وكيف اعتادت الغناء هناك، لأن صاحب البار يعرفها منذ صغرها.

لاحظ أناملها تتحرك بتلقائية مع الموسيقى. واستمعا لأم كلثوم وهي تشدو أن الحب لم يرى سكارى مثلهما.

- أتدري أن الموسيقى هي أفضل طريقة لنشر رسالة؟ انظر مثلاً ما قام به "الرستافارينس" أو الأفروأمريكان. العازف يتطلع إلى الخلود في مقطوعة لا تتعدى دقائق، إنه يبغي المثول خارج الوقت.

- لا أؤمن بالخلود!

- ربما ليس خلوداً، وإنما ذاكرة لم يعشها. أحياناً يخيل إليّ أننا نحمل أنفسنا بعواطف تفوق طاقتنا.

أسندت ظهرها للمسند، وفردت ساقيها.

– ماذا عنك أنت؟ أتعيش في الواقع أم الخيال؟

– هناك امرأة تعيش في خيالي.

– أهي جنية في قارورة؟ ينبغي أن يكون لك "ميوز" حقيقية.

– إن الأمور معقدة هنا! ليست كما في فرنسا!

– وكيف تسنى لك المعرفة وأنت لم تزرها قط؟

ضحكت ثم داعبت شفتيها بأناملها، وأردفت بمكر:

– هل لديك امرأة؟

التمعت عيناها السوداوين مذكرة إياه بالجمال الشرقي. وتناولت رشفة من "الستيلا"

– لا تتقبل البنات هنا حياة العازف بسهولة. التفكير منحسر في الطبقات، والفتيات إما متحفظات للغاية أو متحررات. ولا بقدري أن أساوم..

أضيفي إلى ذلك أني من النوع الرومانسي! فلا أكاد أنجذب إلى فتاة حتى أخيفها وأردعها، ولا تكاد فتاة تنجذب إليّ حتى أتصرف بمثل الحال.. ستفسرين ذلك حتماً بأني أشتهي ما لا أستطيع الحصول عليه..

– من حقك أن تشتهي ما تريد..

– أحياناً يخيل إلي أن الرجل والمرأة، كلاً منهما يجذبان حبلاً، وكلاهما يحاول نيل الأخر. فطبيعة الرجل متستحوذة بالطبع، يريد أن

يهيمن في أقل وقت ومجهود ممكن، وما إن ترخي الفتاة الحبل وتصبح في متناوله، حتى يقدم لها الاعتذارات وينسحب. الانجذاب قائم طالما هناك مقاومة، والسر في جذب الأخر وعدم الانجذاب له كلياً.

– أقمت بدراسة عن الموضوع يا خالد؟

– مررت بتجارب فحسب!

لمست مرفقه برفق وقالت معتذرة:

– لم أقصد أن أسخر منك! بالنسبة لي الإعجاب مثلما وصفت، بل هو أشبه برقصة "التشا تشا". كلما اقترب الرجل خطوة، رجعت المرأة للخلف، وكلما اقتربت هي، تراجع هو. ناهيك عن الخطوات الجانبية لتفاديها والتقرب منها دون الالتماس. الرقص مثل "الفوربلاي"!

– أتدرين ما قاله "ماركيز" عن الحب؟

أسندت الزجاجة على شفتيها.

– قل لي!

– قال: إني أحبك ليس لكونك أنت، بل للشعور الذي تمنحيني إياه لمّا أكون معك.

– أليست تلك أنانية منه؟

وضع النادل صحن ترمس و"ستيلا" أمامهما. ظنه قولاً رومانسياً سيعجبها. تلفتت حولها ونادت بشيء للعازف الفرنسي. كان شادي قد انتقل لمائدة يشغلها فنانون من الأسكندرية. أما فاروق فجلس صامتاً

يدخن سيجارة تلو الأخرى، بينما تحادث توفيق وعاطف في السياسة مع الفرنسيين.

ظنها سئمت منه. ولما مر جنو أمامهم، كان عائداً من المرحاض، استوقفته مازحة:

– أزودت العيار يا رجل "البوجا"؟

انضم جنو إلى مجلسهما، وراحت تتحادث معه وتشوح بذراعيها في الهواء، وهما يتجادلان بسبب دفاعها عن "أم كلثوم" وسخريته من ذوقها معللاً أن أغانيها لا تنتهي ولا تعطي مجالاً للإبداع لاعتمادها على التكرار.

احتجت بشدة:

– ماذا تتحدث عنه؟ إلقاؤها لكل بيت يختلف عن سابقه.. ليس لديهم أي ذوق هؤلاء الشباب!

بدا له أنها ثملت، وتوق للانفراد بها مجدداً.

نهضت واستندت بيدها على ركبته.

– سأفرغ أنا شحنتي تلك المرة!

رمق جنو بنظرة توحي برغبته في المغادرة، فتفهم الأخر وانسحب بهدوء. لما رجعت حشرت جسدها الرقيق بين مجلسه والطاولة.

– التواليت لم يكن نظيفاً! اضطررت للقرفصة وأنا واقفة.. لا تعانون من هذه المشكلة بالطبع، بفضل خرطومكم هذا. أين كنا؟ نعم تذكرت.

"الشا شا". وأنت يا أستاذ..

ضغطت بسبابتها على كتفه.

– لا تجيد الرقص!

– بإمكانك أن تعلميني!

أطبقت الزجاجة على شفتيها متناولة رشفة طويلة.

– إن المرأة تخلف بصمتها على كل رجل تلامسه. أكنت تدري ذلك؟

– ليتهن يتركن بصمتهن فحسب.

صاحت في انتشاء:

– أيها المسكين! وماذا يتركن إذاً؟

– إنهن يسحقن قلبي!

– أتتوقع مني تصديقك فعلاً؟

روت له عن صديقها السابق، وكيف اتسمت نهايتهما بالنزاعات والخلافات.

– ربما مازلت أحبه.. لا أدري. أو ربما أنكأ جرحي بنفسي. الألم واللذة لا يفترقان، حتى في "الأورجازيم" نستشعرهما معاً.

– لماذا تودين جرح نفسك؟

تفكرت:

– لعلها مواقف تعرضت لها ولم يسعفني التعامل معها، فتراكمت.

ربما لذلك نفرط في الإحساس أحياناً، بينما هناك من يقضون حياتهم دون أي إفراطات.

- ولكنك لست منهم؟

- لا، إني بحاجة إلى رجل!

تناولت رشفة أخيرة فأفرغت الزجاجة. شربت أربع زجاجات حتى الأن، ومضت في طلب زجاجة آخرى.

سألها في تحد:

- أتتحملين المزيد؟ لا أستطيع وعدك بأني لن أستغل الموقف.

- استغلني أرجوك!

ثم أشلعت سيجارة وقالت ضاحكة:

- لا، لدي قدرة فائقة على الشراب، مثل الرجال! أحكِ لي عن صديقتك السابقة!

لم يرغب في خوض هذا الحديث. رد مستخفاً بالأمر.

- كانت هناك بداية.. شيء في الوسط.. ونهاية.

- أنت رومانسي حقاً! أتعرف ذلك؟

- ليس لديك أي فكرة!

- كيف تعامل فتاة في أول مقابلة؟

- أفعل هذا!

مر بسبابته فوق كتفها حتى مرفقها.

– ما الذي تفعله بالضبط؟

– إنها طريقتي في التقارب!

– مضطرة أن أقول لك إنه تحرش جنسي!

– إذاً لست في الطريق الصحيح!

– ليس حقاً!

سألته بدلال:

– وماذا تفعل بعد ذلك؟

اصطنع الارتباك على وجهه، فضحكت:

– لا أستطيع أن أريك في مكان عام!

ضربته بلطف على ذراعه.

– أنت مخيف!

– انتظري حتى تري الباقي!

– لست متأكدة إن كنت أريد ذلك فعلاً!

رشفت دون أن تنزع عيناها عنه..

أسند زافيير يديه على كتفيهما ليحثهما على الرحيل. كانت بقية المجموعة تهم بالخروج.

حجز زافيير غرفة مزدوجة له وجنو في الفندق الذي يستضيف الفرقة الفرنسية.

قرر شادي أنه سيقضي الليلة عند أصدقائه، أما فاروق وتوفيق وعاطف

فاضطروا إلى الاتجاه للقاهرة لارتباطهم بشئونهم في الغد.

اتفق مع شادي أن يلتقيا مبكراً للعودة.

رافقهم زافير إلى الفندق ليتأكد من سلامة الحجز، ثم تمنى لهم ليلة سعيدة بالفرنسية.

رمقت سارة رقم مفتاحه في المصعد، ولمحت:

- أنت أسفل مني بدور!

14

جلس متأهباً فوق السرير وسمع جنو يشد "السيفون" في الحمام.

انتظر هذه اللحظة واحد وثلاثون عاماً..

هناك أوروبيات لا تمانعن "الوان نايت ستاند"، يعرف ذلك. يعدونها مغامرة شقية في حياة منعدمة إلا من قليل من الشغف، وبعدها يرجعن إلى روتينهن بعد ما يلبين شهواتهن الطبيعية.

ولكنه سيغضب الله.

تباهى بمقاومته إغراءات عدة، ولكنها لم تكن كتلك. لم يكن منجذباً إليهن مثل انجذابه لسارة.

الحقيقة أنه يخشى المقابلة الأولى، عسى أن يجعل من نفسه أضحوكة.

خرج جنو من المرحاض، مرتدياً البوكسر وتيشيرت. رمقه بحذر. كان مازال غاضباً منه.

استلقى على سريره وأدار التليفزيون. عرضت "إم بي سي 2" فيلماً "أكشن"، كانت بطلته مثيرة. لو غادر الآن سيدرك حتماً أنه تسلل إلى غرفتها.

تخيل معاشرتها وسخريتها منه لبلوغ ذروته مبكراً. ستحكي لرفقائها في الطائرة عن عدم قدرته إشباعها وعدم تملكه نفسه. أو وربما تتفهم. ألم تقل له إن لديها أصدقاء عرباً في باريس، وأنها تكن لهم التقدير لتمسكهم بتقاليدهم.

ربما تفتخر حتى لاختياره لها كي يمارس معها تجربته الأولى وتعلمه برفق..

تصلب قضيبه!

ليس بالضرورة أن يمارسا النكاح، فهناك وسائل أخرى للإشباع.

راح يزن مفتاح الغرفة في يده. رمق جنو جالساً في سكينة. معظم عازفي الإيقاع الذين يعرفهم عادة عصبيين.

راودته الرغبة في سؤاله إذا كان مازال عذراء. بالتأكيد لا يمارس الفاحشة مع مريم، صديقته. لكن ربما قبل أن يتعرف عليها..

الوقت يتسرب، وهو يضيع الفرصة.

نهض وحدق في الباب المغلق. خطوتان ويتوق المقبض بيديه.

- أنا نازل أشم شوية هواء!

هبط الدرج. كان سقف الدور عال، وانبسطت الأرض تحته مفروشة بسجاد أحمر. توقف برهة في دورها وتسللت عينيه في جميع الاتجاهات.

الأن! أطرق بابها!

..

كان بهو الفندق خالياً إلا من موظف الاستقبال وحارس يرتدي معطفاً أحمر واسعاً.

تلألأت أنوار المحلات في الشارع تغوي المارين.. ذكرته المنطقة بوسط البلد وهو يسير وسط صخبها. ترامى له صوت "بيس" مجسم نابع من سيارة.. اصطدم بأم وابنتيها اللاتي توقفن في منتصف الطريق لتفقد أحذية رخيصة في "فاترينا".. اتكأ رجل بدين على كرسي أمام محله، وجال بذهنه، إنه قد خاض التجربة الجنسية منذ زمن. كل من حوله خاضها بالأحرى.

حام حول الفندق متفحصاً ساعته كل حين، ولما سئم الزحام توجه إلى الكورنيش.

علت أمواج متوقة لبوح رسالة ما قبل أن تغرق.

كل الإبداع يبدأ من الحنين..

راودته رغبة أن يمر العالم من جانبه بالتصوير البطيء، فقط كي يفهمه..

..

دفع باب الفندق الزجاجي بغتة، وثب الدرج في عزم وتسمر أمام بابها.

ماذا لو تفاجأت وقابلته بقسوة؟ تسارعت الأفكار في كل الاتجاهات. قرب قبضته من الباب. باستطاعته سماع صوت تلفاز.. لعلها فقدت الأمل في قدومه.

تظاهر إنك نسيت معجون الأسنان وتريد استعارته!

حدق في الباب وولت عينيه إلى الردهة.

سنتيمترات فارقة تفصله عن جسد امرأة ملتهب..

..

لاحقته عينا جنو المتسائلتان وهو يخلع حذاءه. انزوى تحت الغطاء وأدار له ظهره..

وتخيل كيف كانت ستبدو سارة بنظارتها السوداء عارية..

14

شرع في تفاديها في الصباح.

حاول إقناع جنو بتناول الإفطار بالخارج، ولكنه أبى.

– نفطر ليه بره وفي فطار في الفندق؟

تم إعداد البوفيه بالدور الأول. شغل رجل خليجي وزوجته مائدة، ومجموعة شباب من باكستان أو الهند يتحدثون الإنجليزية الأخرى. كانوا يرتدون فوق رؤوسهم قبعات سنية وهم يتفحصون دليلهم ويناقشون الأماكن التي ينوون زيارتها.

أعد إفطاراً على عجل، وجلس يتناوله. كان الفول طعمه رديئاً.

– بعد إذنكما؟

خاطبهما شاب بالإنجليزية مستفسراً عن القلعة.

رد جنو معتذراً:

– نحن لسنا من هنا؟ أنتم من الهند؟

-- نحن باكستانيون، ولكن ترعرعنا في "ويستمينيستر".

ثم أضاف الشاب بفخر:

– نحن مسلمون!

رمق وجه جنو، ونقب عن علامات عداء ما. رد فحسب:

– إني مسيحي!

ابتسم الشاب وتسمرت ابتسامته لحظة في إحراج قبل أن يعلن:

– لقد زرنا الكنيسة المعلقة في القاهرة!

لم يعلق جنو. تناول رشفة من قهوته.

نهض وخاطبه:

– هستناك في اللوبي!

سمعه يتبادل الحديث مع الباكستانيين وهو يغادر القاعة.

امتزجت نداءات البائعون بنعاس الصباح الذي أطاح بجنون الأمس، كمقشة عريضة محت أثار الهزل وأقدام المارة فوعدت خلوته ببداية.. استخرج الصيادون حصتهم الشحيحة المرهونة بمزاج البحر، وتعلقت النفايات بشباكهم المتهالكة.

على الشاطيء تأرجحت مراكب هزيلة على متنها غلمان نحيلون

تعكس أجسادهم السمراء أشعة فضية.

- مركب يا بيه؟

جلس فتى أسمر وسيم بجانب فتاة محجبة وسمراء هي الأخرى، يبتسمان ويمسكان أيديهما. ومر بائع "فرسكة" بصندوقه المعلق فوق كتفه يتطلع إليهما.

كانت الأمواج تتجمع لتشن هجوماً جديداً على الشاطيء.. تابع سيره.. وواصل البني أدمين ما كانوا يفعلونه لما قاطعهم الليل.

..

التوى المفتاح مرتين في الباب ليسفر عن تكة بسيطة قبل أن يخضع لمواربته. كانت أمه نائمة..

بات يزداد قلقاً كلما تركها لوحدها على مدار اليوم. اقترب منها ليتبين إذا ما كان نفسها يسري بانتظام.. اعتلا ظهرها وهبط في سكينة.. باتت تنام كثيراً مؤخراً.

أشعل الكمبيوتر ودون كلمة سر "الفيسبوك".. دعاه توفيق لينضم إلى مجموعة ناشطين ناد أعضاؤها بإقامة اعتصام أمام البرلمان. مجانين.. ظهرت صورة توفيق بين الحاضرين.

لم يحتمل الانتظار.. دس أول حرف من اسمها، فاعتلت صورتها الشاشة، كأن الكمبيوتر يحفظ نواياه.

غيرت صورتها..

انسدل شعرها الأسود مائلاً على وجنتها.. ضغط على الصورة، فظهرت له صور "البروفايل".

إذا كنت تعرف..، ضفها إلى قائمة أصدقائك أو أرسل إليها رسالة!

ظهر له شباك صغير احتوى خانة للمرسل وخانة أكبر للمضمون.

دون السطور بالإنجليزية، ثم ما لبث أن محاها وكتبها من جديد:

"سأغني الجمعة القادمة بالساقية.. أود أن أتعرف عليك.. لا أدري إذا كنا تقابلنا في الحقيقة.. ولكني حلمت بك.. كلما أغني تتراءى لي صورتك.. أؤكد لك سلامة نوايا.."

راجع الرسالة قبل أن يحذف كلمات ويستبدلها.

دق قلبه بانفعال كأنه سيعتلي مسرح.. ليس بإمكانه التغاضي الآن.

ضغط على "إرسل" وشاهد بذهول كيف يستجيب الكمبيوتر لطلبه.

15

تدهور حال أمه وأبت تناول الطعام.

استدعى طبيب كتب لها علاجاً ووعده بأنه سيأتي بعد يومين ليتفحصها مجدداً. اعتنت بها إحدى الأقارب أثناء غيابه، ثم أتى الطبيب ولم يبشره بالخير.

– لازم ننقلها المستشفى!

تنهد الطبيب ثم أضاف بنبرة مطمئنة:

– خير إن شاء الله.

– احجز لها غرفة عادية؟

– لأ، عناية مركزة!

اتصلوا بجميع المستشفيات، كانت محجوزة. لم ينجحوا في إيجاد غرفة إلا عن طريق عمه الذي تربطه الصداقة بشريك في مستشفى بالدقي.

استقل سيارة الإسعاف معها وهم ينقلونها. تمتم بأيات قرآنية بينما تابعوه أقاربه في سيارة مستقلة.

تم تجهيز سرير لها بعد ساعة من الانتظار، وأعطاها الطبيب مسكناً. ظل جانبها حتى جذبه خاله، واجتمعوا في البهو ليناقشوا نوبات الأيام القادمة.

توافد الأصدقاء عليه، وظلت تيسير تتردد يومياً تجلب له الطعام وتمكث بجانبه. وتحولت المستشفى في هذه الساعات القصيرة لملتقى بين أصدقاء وأحباء، يهون عليه.

ثم جاء يوم الحفلة..

..

امتلأت قاعة النهر بحذافيرها وانبسط المستمعون تحتهم برؤوسهم وطرحهم. تم انتصاب شاشة بالحديقة الممتدة. وتكدست وتعالت الأصوات حتى صارت كتلة واحدة تجمعت واندلعت نحوهم.

ألقى مدير الساقية نكتة على الجمهور لم تكن مضحكة، فقابلوه بالصفير ورفع ذراعه مسرعاً تاركاً لهم المجال.

افتتحوا بمقطوعة صوفية غامضة.. عزف توفيق نغمات داكنة، فتبلور لحناً ألفته الأذن تدريجياً وتم تأويله وحشده بالآلات دون تلاشي جوهره.

تجاوب الجمهور وتمايلوا بأجسادهم.. رفع فاروق جيتاره، وباح بما لا يقدر استرساله بكلمات. غيّر جنو الإيقاع وتغير اللحن. أخذ منعطفاً وتوحدت ثم تفتت النغمة، وهوت نغمات أخرى وتفتت إلى شظايا امتزجت بشظايا أخرى.. أغلق عينيه وهب نفسه للبوح..

- يا قدري..

ندت عن شادي صرخة ساكسوفون مكبوتة، تفاقمت مع سرعة "البيس" في الخلفية.

حلق وجهها كالأشباح.. ورمقته طائفة بعينين جامدتين.. لا يبديان أي تأثر.

فقد الوعي بالمكان وغرز صرخة طويلة في الحواس كمن فقد القدرة على النطق ويجاهد لتعلمه من جديد. ثم غشاه صمت شامل، قبل أن يندفع صخب الجمهور نحوه بغتة.

لا يدرك هذا الشعور إلا من اعتلى المسرح!

ندا عن الجماهير تصفيق حاد. مرقت في خياله، تنطفأ وتظهر كأنوار لمركب هزيلة ليلاً.

ثم ارتطم حسه الواهن بصدى الألات. اخترق صوته الأبعاد بطبقته، وتابعه رفاقه بذهول. لم يسمعوه منفعلاً هكذا من قبل. تسلل غناؤه ذبذبات لم تتسم بنعومتها المعتادة.

ظنوا أنها أمه..

بات على حافة الهاوية. انسابت خيوط ومض بعيدة تبرق وتنطفيء، ولخلسة نعم بتوقف الجاذبية، محملقاً فوق الرؤوس..

ثم هوى مدفوعاً إلى الهاوية..

16

مرت الأيام، قضاها بين المجد في البار والضجر بالمكتب.

تفحص بروفايلها وحدق في الصور لتنسرب فيها الحياة، فيما عدا أنها كانت حقيقية بالفعل، فتسلل إليه الوهم ليغشي سرائر واقع بليد.

تجاوزت أمه الأزمة، ولكن دون ترك أثار مريرة على صحتها. بات يساوره الشك لما يستيقظ، و لم يرتح له بال ولا جفن إلا عندما يوارب باب غرفتها، ويتبين من انتظام أنفاسها.

انجرف وراء الحياة ومتطلباتها، وبات انطلاق الألبوم قريباً.

ثم فتح يوماً "الفيسبوك" وحلقت بدلاً من صورتها علامة استفهام.

17

جلجلت موسيقى في صالة مكيفة.

أشرقت وجوه ولألأت فساتين فاخرة معبرة عن الزهو والرخاء. ابتسم له رفاقه وحمله أصدقاؤه فوق أكتافهم. رموه لأعلى ثم طافوا به القاعة. أحس بالدوار وأصابه الارتباك فداراه بابتسامة.

عزفت الفرقة و لم يكن معهم. كان جالساً في الكوشة بجانب عروسته المشرقة. ابتسم ليرضيها وليرضي المعازيم. كانت الصورة على أكمل وجه. وهما أسعد زوجين.

بعد وهلة أجبروه أصدقاؤه على الرقص مع عروسته.

أتت والدته فأمسك يديها، ورقصت معه في وقار، ثم قبلته واحتضنته واحتضنت تيسير.

إلتف أصدقاؤه حوله وطوقوه بأجسادهم الحاجزة، وفعلت صديقات تيسير الشيء نفسه، ثم جمعهما في دائرة كبيرة وحاصروهما من جميع النواحي..

توافد المعازيم ليباركوا لهما وليلتقطا معهما الصور التذكارية.. صافح أيادي وبادر وجوه باسمة.

- ألف مبروك!

- أقدملك حسن، جوز خالتي!

- طنط عفت!

- خالد... دي نورا!!

اجتاحه الوجه الأسمر والشعر الكستاني الناعم.. هذا الوجه..

ابتسمت الفتاة في أدب وانحنت لتصافحه. كانت ترتدي فستاناً أسود أنيقاً، يظهر فلتة صغيرة من صدرها، وشعرها المموج مائل على وجنتها.

قبلت تيسير بحرارة، وشعت أسنانها البيضاء في فرح.

- خالد.. ده أونكل محمد.

امتدت رقبته ليتابعها تنزل الدرج ببطء، ترمقها أعين معجبة، وكأن لديهم فرصة. ثم وقفت والتفتت.

واعتلا صوت الفرقة واقتربوا منه بوجوه ضاحكة ومخيفة.

ثم راحوا يهللون ويغنون.. وكأنه فرح شخص آخر..

عازف البيس والمظاهرة

هذا الطريق.. لن يكون سهلاً..
هذا الطريق.. سيكون مليئاً بالحواجز والصعوبات..
مع أشياء كثيرة عليك أن تتوحد..
لكن هذه الحياة تقدم أكثر مما تتخيل..
..
بعضهم سيحبونك..
بعضهم سيركلونك..
بعضهم سيدهمونك.. ويضحون من أجلك..
فلا تطلق شراعك.. إلا لما يغربل الريح البحر..

زافيير نايدو.. هذا الطريق

1

رمق ظهر خالد المنحني، مطوقاً الميكروفون بيديه، عيناه المغلقتان مستسلمتان للنغمة.

وبدا فاروق تائهاً في عزفه، يسكتشف أين سينعطف به الطريق. فيما التوى جسد شادي الضخم يميناً ويساراً مع عزفه كمركب تتأرجح. أما جنو فقبع وراءه وصدره يهتز مع كل ضربة "درامز" وبوجهه تعبير بلاهة كأنه يسمع الصوت لأول مرة.

تصبب العرق فوق جبينه وأنامله تداعب أوتار "البيس"، تتحسسه بغريزة، فتتخذ أنامله أشكالاً عدة، تلتوي وتنعقد في رشاقة وبسرعة فائقة، لتصيب النغمات المفترضة، فينسرب تكونها في بنائها المنظم.

رن عزفه ثقيلاً وبدائياً، وما لبث أن تسلق سلم الموسيقى واعتلاه حتى

هوى بثقل واثب لوتر آخر، وأنامله تتنقل بإحكام بين الأوتار.

لا يتقن سماعه إلا من دقق في تفاصيل اللحن المتضاربة. فعازف "البيس" هو الجندي المجهول للفرقة، هو من يحدد سرعة الأغنية، وهو من يمكّن الانتقال بين الإيقاع والنغمات، فيملؤها بمكونات أساسية للحفاظ على هيكل توازنها. الجسد كله يحكمه إيقاع "بيس" يلتمسه الإنسان من خلال "أوركيسترا" خاص بداخله.

كرر الأوتار الداكنة، ووزع الإيقاع حتى انتشته وغمرته إدراكات غامضة. اختفى نمط أفكاره المسيطر، وراح يفطن لعا لم تنفرد فيه التجليات. أغلق عينيه، وامتثلت أمامه النوتات راقصة ومتدلية، تثاقلت في حواسه.

والتحم عزفهم في هيئة كائن جماعي يلتهم النغمات..

وبضربة قاسية أنهى جنو المقطوعة..

2

- جاهز؟

لملم أسلاكه ووضع الجيتار في حقيبته الجلد السوداء. أطلق خالد عبارة ساخرة نالت من مهندس الصوت الذي لم يتقن ضبط "الميكسر".

أومأ عاطف له برأسه، فهم بالتحرك. استوقفهما شادي في فضول.

- على فين العزم؟

- هنزور جماعة أصحابنا.

- حريم؟

ألا يفكر ذلك الكائن إلا بالحشيش والنساء؟

أجاب عاطف باقتضاب:

- لأ. سياسة!

رفع شادي ذراعه كأنه يتبرأ منهما.

- ماليش فيها يا "مان".

صب خالد ناحيته نظرة عتاب لكن دون أن يعلق.

غمره القلق وهما يتوغلان في منطقة وسط البلد. كانا متجهين إلى شقة موريس، شاب فرنسي- مصري قضى دراسته في الخارج بضع سنوات، ورجع لإعداد "الماسترز" في الجامعة الأمريكية. تم اعتقاله أو اختطافه.بمعنى أصح منذ سنتين، لتنظيمه مظاهرة تضامناً مع غزة وإغلاق نفق رفح.

اقتاده رجلان يرتديان ملابس مدنية في سيارة ملاكي، وعدوه هو وأصدقاءه أنه لن يتغيب سوى بضع دقائق، و لم يفرج عنه إلا بعد مرور خمسة أيام، قضاهم معصوب العينان في مكان مجهول.

جاء الإفراج عنه بالأحرى نتيجة للضغوط الدولية التي مورست كون أمه فرنسية، رغم أنه ينطبق عليه القانون المصري لحمله الجنسيتين. شنت الصحف الفرنسية والدولية حملة كبيرة للإفراج عنه، قادها والده المسكين الذي تم اقتحام منزله من أمن الدولة بعد اختطافه، ولحسن حظه استدعى ساعتها محامياً مرموقاً بالمجتمع المدني، فسأل الضابط بكل احترام إذا كان لديه إذن بالتفتيش من النيابة، وعندما نفى الآخر، أغلق المحامي الباب في وجهه، قائلاً: إذاً مع السلامة.

وبما أنه لم يتم اختطاف موريس رسمياً، فهو لم يفرج عنه رسمياً أيضاً، فقد وضع في "ميكروباص" وتم توصيله إلى المعادي حيث يقطن والديه،

وأخذ يتجول في الشارع حتى انصرفت السيارة التي كانت تتبعه، فقصد منزل والديه، ولما فتح والده الباب متفاجئاً، احتضنه موريس وذهب مباشرة إلى المرحاض ليدعك وجهه وعينيه ليتخلص من آثار المعصم القذر.

استقل موريس بعدها شقة في وسط البلد مع صحفي انجليزي يدعي جاك ليجنب والديه مشقة الناشط السياسي، خصيصاً أمه الفرنسية التي قضت في مصر واحداً وثلاثين عاماً، و لم تلق المهانة مثل ليلة اقتحام أمن الدولة منزلها في منتصف الليل..

اتجها يمين حانة ستيلا، واعتليا درج مبنى قديم في عجل وعزم، كأنهما اتخذا قراراً راحا ينفذاه قبل أن يتراجعا فيه.

فتح لهما جاك، ورحب بهما بعربية ركيكة:

– توفيق الفنان وعاطف الشاعر.. يا هلا.. خطوة عزيزة.

كان موريس يتوسط مجموعة من الشباب، فتاتان محجبتان وأخرى غير محجبة، وشابان في أوائل الثلاثينيات، ورجلان أحدهما يرتدي بدلة سوداء وامرأة في منتصف العمر.. و.. سامية..

سامية قصيرة القامة، في منتصف العشرينيات، تشبه الممثلة الفرنسية "جولييت بينوش" بشعرها البني القصير، ورقتها المتناهية، ناهيك عن ضحكتها العذبة كلما داعبها. تعمل بالمركز الألماني، وهي ناشطة تشارك في المظاهرات منذ اندلاع حركة كفاية. وكلما تم القبض عليها يفرج عنها ليلتها لأن عمها لواء متقاعد بالجيش.

جلس بجانبها أمام طاولة مطروح عليها شيبسي وسوداني. قدمهم

موريس في حلقة كساها التوتر والتربص. حدق في المرأة والرجل قباله، وتخيل أنه رآهما من قبل في إحدى القنوات الفضائية. جلس بجواره الرجل ذو البدلة السوداء وبادره بنظرة شك.

إنهم مجانين هؤلاء النشطاء، لما يخاطرون به ويواجهونه من ضغوط نفسية.

– نحن اجتمعنا اليوم لمناقشة مظاهرة الحد الأدنى للأجور السبت القادم، وهي فرصة مميزة لكي نوسع حركتنا، ونشمل بها العمال، ونضرب كذلك عصفورين بحجر. قضية الأجور الأدنى مطلب مشروع ويهمنا، وفي الوقت نفسه نعيد طرح قضية التوريث والفساد لدى الرأي العام.

أومأ الجميع في اتفاق، فتمتم الرجل ذو البدلة السوداء:

– دعونا نناقش الأن مجرى المظاهرة!

خفق قلبه وهلة وحاول أن يصطنع الشجاعة.

تابع موريس:

– أهم شيء ألا ندعهم يستفزوننا، فهم كما تعلمون يؤجرون بلطجية متنكرين في زي مدني يندسون وسطنا ليفسدوا المظاهرة بأعمال العنف والشغب التي ينسبونها إلينا.

انتاب التوتر الموجودين بالغرفة، وأحس بانقباض الوجوه لذكر كلمة "بلطجية".

– لا تقاوموا القبض عليكم، إذا وصل الأمر لذلك. احفظوا رقم من يستطيع مساعدتكم، لأنهم سوف يستولون على هواتفكم، لا تندفعوا

تحت أي ظرف من الظروف وتردون الاعتداء الذي قد تتعرضون إليه، لأنه حين ذلك ستوجه إليكم تهمة الاعتداء على شرطي عند أداء واجبه، وستدخلون في متاهات قانونية لا أول لها ولا أخر.

أكدت السيدة رافعة حاجبيها:

– هذه مقاومة سلمية ومشروعة، والمظاهرة حق من حقوق الشعوب قي العالم أجمع، ولكن في نظر الحكومة هي مظاهرة غير قانونية، لذلك سيتعاملون معكم على هذا النحو.

صاح شاب بحماس:

– لا يهم، نحن ندافع عن حقوقنا المدنية المنهوبة، فقد تعرضت كل حركات الحقوق المدنية للقمع، كنت اقرأ عن الحركة "الأفروأمريكية" تحت قيادة "مارتن لوثر كينج" واطلعت عن دور حركة "سنيك" الطلابية، فقد كانوا يستفزون السلطات لتقابلهم بالبطش، فيفضحون أمرهم أمام الرأي العام. وقبض على الكثير منهم، ومع ذلك حققوا انتصارات بالغة، انظروا من يحكم أمريكا اليوم، فلم يكن يحلم "مارتن لوثر كينج" أبداً بأن يصير رجل أسود يوماً من الأيام رئيس الولايات المتحدة.

استطرد شاب آخر:

– نعم، لقد حقق الزنوج إنجازاً تاريخياً.

بادره موريس بامتعاض:

– من فضلك لا تستخدم هذه الكلمة المسيئة، فنحن نطلق عليهم اسم: سود أو أفروأمريكان.

همهم الشاب إنه لم يقصد أي إساءة، وهتف الرجل ذو البدلة بحماس:

- إذن أيها الرفاق!

ثم خطب في جلالة:

- اعلموا أيها السادة أنه سيأتي اليوم في مصر أيضاً الذي سنرى فيه واحداً منا يعتلي منصب رئيس الجمهورية.

أومأ الجميع في حبور.

- يارب!

- يارب يا خويا!

زغرد أحد الشباب فزال التوتر تدريجاً، وهموا في الوقوف، وتناولوا السوداني والشيبسي، ثم تفرقوا لمجموعات صغيرة راحت تتناقش في أركان الشقة.

ابتسم موريس راضياً وهو يستمع للرجل ذي البدلة يتلو عليه أنشطة الحركة في المحافظات.. كان موريس يشبه حقاً الثوريين من أمريكا الجنوبية بقامته العالية وذقنه "الجيفارية" فضلاً عن جديته الصارمة منذ اعتقاله، رغم أنه يعلم أنها تركت أثاراً مريرة بنفسيته، وتتغلب عليه نوبات اكتئاب كل حين..

استغرقت سامية في حوار سياسي مع جاك، واقفة بساق مائل، وهي تحمل سيجارة بأناقة بين أناملها. كانت ترتدي جونلة وتحتها كولون داكن.

– سامية!

التمعت أظافرها وهي تقرب السيجارة من شفتيها.

– عاملة إيه في المركز الألماني؟

– زفت! المدير مشغل صاحبته واتخانقت معاها. فقالي شوفيلك شغل تاني.

– حتى الألمان طلعوا فكسانين!

– يلا في ستين داهية. أنا أصلاً ما كنتش حبة الشغلانة.

– وهتعملي إيه دلوقتي؟

حاول أن يبدو مهتماً.

– مش عارفة. اتعرض على شغلانة في منظمة غير حكومية. الفلوس زفت بس غالباً هقبلها.

برقت عيناها لما ظهر موريس، قال الأخر:

– يا سلام يا سامية لو جيتي المظاهرة بالجيبة دي!

– هذل أمهم!

قال جاك:

– أنتم عارفين إن في ثورة الربيع في الشيك المزز الشيكيات كانوا بيتعمدوا يلبسوا قصير علشان يغيظوا العساكر الروس.

هزت سامية رأسها ضاحكة:

– ما نصحش أي بنت تعمل كده في مصر.

او تصاحبا سيضطر أن يلاحقها في أقسام الشرطة، ولكنها لن تنجذب إلا لثوري مثل موريس.

تحادث شاب مع الرجل ذو البدلة عن نظريات ماركسية يسارية، بينما التفت الفتاتان المحجبتان حول المرأة التي راحت تطلع عليهما أرائها باهتمام. وقف عاطف بمفرده يطل من النافذة. لا يستطيع الاندماج بسهولة. ذهب إليه بعد ما أيقن أنه لا جدوى في ملاحقة سامية، فكانت كلتا عينيها لموريس فقط.

– يلا بينا؟

نزلا الدرج ونفساهما معبئة بمظاهرة بعد الغد.

ارتادا مقهى في شارع البستان وظل كل منهما مستغرقاً في أفكاره، لا ينتبهان إلى العالم الخارجي إلا كلما شق صوت طريقه إلى أذهانهم، فيتنبهان دون وعي إلى المصدر المزعج.

بعد وهلة قال عاطف:

– شكة دبوس!

ترامت إليه قصص مفزعة عن الحجز وبطش قوات الأمن للمتظاهرين والتهويل من قبل السجناء الأخرين، علاوة على وساخة الحبس وقذارته.

رن هاتفه.

– أيوه يا خالد.. عامل إيه.. كنا في إجتماع.. يا خالد.. ماتقلقش.. أنا مش هعرض الفرقة لمخاطر. أنا عارف إنك مش قصدك.. يا أخي أنا عارف إنك خايف علينا.. ما تقلقش!

وضع الهاتف أمامه.

سأله عاطف:

- أنت خايف؟

أومأ برأسه. لا يدري تحديداً متى صار مهتماً بالسياسة، ولكنه يتذكر وجود عاطف معه.

- طيب ليه رايح؟

رمقه بنظرة شائكة:

- أنت عاوز تخلع؟

- لأ. لكن مادمنا ناويين نعرض نفسنا للخطر، خلينا على الأقل نكون واضحين مع نفسينا.

- أنت رايح ليه طيب؟

فكر عاطف قليلاً.

- "خالد سعيد" غالباً. وأنت؟

- مش عارف.

- بص. خلينا نتكل على الله. لكن أنا مستعد أجري لو حسيت إن الموضوع هيقلب جد.

- وأنا كمان!

لم يشأ المماطلة في الحديث. سيتصدى للهواجس داخله بعد غد. وتمنى أن يأتي بعد الغد سريعاً. وربما اختلفت الحياة بعدها..

3

استيقظ على زعيق والده في الردهة.

دائماً يصرخ لما يتحدث في الهاتف، ينتاب صوته الفزع كأنه على وشك الانهيار، وفي الغالب ما يجري إلا مكالمة مع السمكري أو الكهربائي.

واربت أمه بابه وهمست:

- توفيق؟

لما تهمس وهي توقظه على كل حال؟

- إيه؟

- لما دخلت الحمام كان في نور؟

رد في نفور:

- إيه؟

ترامى إليه صياح والده المشروخ:

- أه.. إحنا في عرضك.. تعالى وما تحملش هم التاكسي. علي أنا!

انتصب غاضباً في السرير.

- في إيه على الصبح؟

- النور اتقطع وانهارده الجمعة، وأبوك مش ناقص.

انتقل والده إلى المعاش منذ سنوات، وتفرغ لأمور البيت كاملاً، بات يقضي وقته في اجتناء المشتروات وإعداد الطعام وتنظيف البيت ومتابعة البرامج التليفزيونية، خاصة المسلسلات الدرامية، فكلما وجد إشارة تردد لقناة جديدة تم الإعلان عنها في الجرائد، استدعاه بشغف كي يجلبها له، ويظل واقفاً بجانبه، يتتبع لمساته السحرية، كي يتعلم منه ولا "ينحوج إليه" كما يزعم.

- يلعن أبو العيشة واللي عايشنها!

دائماً يلعن والده العيشة ومن يعيشها. لا تستحمل أعصابه المرهفة متطلبات الشقة الصغيرة، وينفعل لأتفه الأسباب.. لما يترك الجيران قمامتهم في أكياس بلاستك تبعثرها القطة، أو لما يتعطل صنبور المطبخ، أو تنفذ أنبوبة البوتجاز، فيصيبه اليأس، ويتناول الهاتف، ويبالغ في عرض مأساته على الحرفيين حتى يأتوا لنجدتهم. ويستدعي معاناتهم كي يحز في نفس الحرفي المثول في أسرع وقت، فيدعي أن الأم تبكي أو الولاد أي هو وأخته لا يستطيعون النوم..

تفكر في تأجير شقة بوسط البلد، حيث يقضي معظم أوقاته، ولكن الأسعار باهظة. عرض على عاطف أن يشاركه شقة بسعر معقول، ولكنهما لم يدبرا أمرهما. وكل ما يفيض به الكيل، يذكر نفسه بأن والده هو الذي يأتي بكل المشتريات إلى البيت، وأنه مدلل، ونادراً ما يتطوع ويدخل عليهما بكيس فاكهة أو مشتريات من "السوبر ماركت". ولكنه سئم هذه الحياة. إنه في الثامنة والعشرين، ومازال يعيش مع أهله.

ولو علم والده أنه سيلتحق بمظاهرة غداً، لأوصد الباب كي يمنعه من الخروج. طوال عمره يلزمه هو وأخته "بالمشي جنب الحيط"، والبعد عن الشر والغناء بل والرقص له لو تطلب الأمر.

كان والده موظفاً في مصلحة الضرائب، ولا يمل من تحذير ابنه وابنته من تجنب المشاكل والبهدلة، فهم لا يدرون كم الشر الذين يجلبه متهربوا الضرائب لأنفسهم. تعرض والده في شبابه للمثول أمام ضابط شرطة في القسم عندما ادعى عليه أحد العملاء لرفض والده تلبية طلبه "المخالف للوائح"، فقام بالبلاغ ضده، وزعم أن والده أهانه واعتدى عليه بالضرب.

وقف والده مع زميل له أمام الضابط والعميل، وجزم في ذهول للضابط أنه لم يمس ذلك الشخص. فصاح الضابط في وجهه وأمره بالكف عن الكلام، ثم أملى على أمين الشرطة ما عليه كتابته، وظل والده يحدق في العميل في ذهول، ويضرب كفيه ببعضهما، ولا يجرؤ على مخالفة أمر الضابط.

- وبعدين يا بابا؟

روى لهم والده القصة أكثر من عشر مرات، ولا يدري إذا كانت أخته تعاني من "ألزهايمر"، كأنها لم تسمعها من قبل.

- جه المدير وشهد في صفي وتصالحنا مع الرجل المفتري.

تشتعل عينا والده بالظلم وهو يتذكر تلك الحادثة الفارقة في حياته. تسببت هذه القصة في ارتيابه من تخطي أي عتبة قسم شرطة، وهو يغالب نفسه كلما اضطر لأن يقضي أموره، كاستخراج رخصة أو بطاقة.

يحاول أن يبرر الأعذار لنفسه لارتياب والده، فهو يخاف عليه هو وأخته، ولكنه يشعر بالاختناق لحرصه المبالغ. بات يداهمه النفور من سلبيته حتى بات يظن أن إحدى أسباب اشتراكه في المظاهرة، أنه يريد أن يخرج عن طوعه.

لقد اختلط بدافع عزفه كثير من الأجانب في مصر الذين أتوا لتعلم العربية أو الدراسة والرغبة في معايشة الثقافة، وهم مغامرون يقضون حياتهم كما تهيأت لهم، يخرجون في العالم الواسع ليكتشفوا ما يحمله لهم من جمال وعجائب ومشقات، وهو يحلم بالخروج مثلهم، فالحياة بمصر بقت مزيفة بكل ما تعنيها الكلمة من معنى. المتوقع منه استبدال دار والديه بعش الزوجية، وتحمل مسوئليات لا أول لها ولا آخر، لقضاء ربع حياته في المواصلات، وربع في العمل، وربع في النوم، والربع الآخير في الارتياح من الثلاث إربع السابقين.

أما المجتمع فهو طبقي متعال. الطبقة العليا تعتمد على المظاهر والمربيات

الأفريقيات و"البلاك بيري"، والطبقة الوسطى فهي متحفظة وتسعي وراء لقمة العيش والتعلق في المواصلات ومتابعة المسلسلات والبرامج الفارغة والاعتناء بعالمها الصغير في تغافل عما يدور حولها، أما الطبقة الفقيرة فهي تكمن في عشوائيتها ولا يقترب منهم أحد، ممنوع اللمس أو التصوير، يعانون الفقر والجوع ونقص الكهرباء والصرف الصحي إضافة إلى افتقار الإمكانيات، ولا يختلطون بالطبقات الأخرى إلا لإتمام الأعمال اليدوية الغير مربحة حقاً، ولا يجتمع غير ذلك أي من الثلاث طبقات ببعضهم البعض، فيعيشون في مجتمعات متوازية، وما أعجب منظر شاب يقوم بالتزحلق المائي متدلياً من "ياخت" أمام مشارف إمبابة..

بعد قليل أتى موظف من مصلحة الكهرباء، استقبله أبوه كالمنقذ، وراح يشرح له معاناة العائلة منذ انقطاع الكهرباء في الصباح. وبعد تقريباً مرور ربع ساعة عاد النور إلى البيت، فاكتشف الموظف أنه تم إغلاق المفتاح بجانب بوابة العمارة. فشكره والده وأعطاه أجراً سخياً. ولكنه كان مازال متعكر المزاج، فبدلاً من أن يقفل الباب وراء الكهربائي، صار يتأمل كيس القمامة الممزق في الطرقة، ثم ما لبث أن خطا للباب المقابل بعزيمة، وضرب الجرس بوجه منكمش بعلامات التقزز.

وعندما فتح له الجار المندهش، فاض له والده شرحاً بتوليفة درامية أثار ترك كيس القمامة على الأرض حيث تنبشه القطط وما يسببه ذلك من تلويث للطرقة حتماً سيصيبهم بالأمراض وهو يلوح بيديه كالإيطاليين عندما ينفعلون.

– خلاص يا بابا! يلا بينا نفطر!

لم يشأ في استحداث المشاكل مع الجيران.

– يا بيه هو مسمار.. دق مسمار وعلق به كيس الزبالة.. يا بيه..

راح والده يدق مسمار غير مرئي بشاكوش غير مرئي كي يفهم جاره.

– يا بيه علشان صحتنا وصحتكم.

– يلا يا بابا، شكراً يا أستاذ كرم.. اتفضل معانا!

أغلق الباب بعد أن نجح بصعوبة في إدخال والده المنفعل.

– مش معقولة نبدأ يوم الجمعة بالزعيق والخناء.

حدق والده فيه باشمئزاز.

– إحنا آسفين جداً إننا قلقنا منامك.. شوف كنت هتعمل إيه من غير كهرباء!

– يا حاج بالهداوة!

تدخلت الأم كالعادة لتهدأ الأجواء، فانفعل والده أكثر:

– ما تحط يافتة على بابك زي في اللوكندات.. مش عاوزين إزعاج. يا أخي إيه ده.

تراجع إلى غرفته وارتدى ملابسه في غضب، ثم اتجه نحو الباب.

– على فين يا توفيق.. مش هتفطر؟

أغلق الباب وراءه دون أن يرد على أمه الغلبانة التي دائماً تظلم في الوسط.

لا يحتمل شاب في الثامنة والعشرين من عمره أن يعيش مع عائلته أكثر من ذلك! فالأجانب يغادرون ببلوغهم الثامنة عشر.

خطا بحذاءه الرياضي فوق الأسفلت المترب، ونعم بالهدوء الصباحي المتفشي في أركان الشارع. كانت محلاته مازالت مغلقة. تمشى لعربة الفول لجابر على الناصية، وتأمله وهو يضع اللمسات الأخيرة بتأني، يذوق صحن الفول بالبصل الأخضر والخل والطماطم، ثم يعطي إياه ابتسامة عريضة كأنه فرغ من إنهاء لوحة فنية. كل عائلة كرم في هذا المجال، أبوه لديه عربة بداية شارع بورسعيد بالحلمية الجديدة، وأخوه في شارع متفرع من محمد علي.

- إن شاء الله يجعله دايم يا رب..

غرف جابر من القدرة العجيبة الملتصقة بحذافيرها ببواقي فول متجمدة.

- تشكر يا جابر!

لم يصطف في هذه الساعة المبكرة إلا شابان بجواره يتناولان إفطارهما في سكوت ووجوم قبل أن يتوجها غالباً لعملهما صباح الجمعة الباكر. التهم الفول في شغف، وتناول حديثاً مع جابر من جانب التسلية.

- أنت عارف ياد يا جابر.. مفروض يغلوا الفول ده والنعمة.. ويكون تمنه زي "الكافيار" و"الكريم بروليه".. وساعتها أنت وأبوك هتكسبوا دهب.. طب والله ده طعمه ألذ من اللحمة..

- كريم إيه؟ بوليه؟ يا أستاذ توفيق كلمني عربي!

دس لقمة ينسرب منها الزيت متلذذاً في فمه.

– يا بني هو أنا بقولك على دواء.. "كريم بروليه".. ده ملين للمعدة.

ابتسم جابر ملياً وهو يعد طبقاً لزبون أخر انضم إليهم:

– الله لا يسيئك يا أستاذ توفيق.. انت بترياً.. الفول ده للناس الغلابة اللي زي حالتنا. أما الباشوات فليهم اللي بيأكلهم.

وجه توفيق الحديث للشابين الصامتين:

– ده الأغنياء بيموتوا في الفول.. مين اللي قالك الكلام الفاضي ده.. الحاجة الوحيدة اللي بيكونوا الناس متساوين فيها، لما بيصلوا في الجامع، ولما بيضربوا طبق الفول الصبح.. إيش فهمك أنت؟

لم يكن الشابان مستمتعين بكلامه، وتناولا إفطارهما دون تعليق.

– ماشي يا أستاذ توفيق.. إيدي على كتفك.. دلني أنت بس وأنا وراك! أدي ربك بيحب الساعي!

مسح توفيق أخر قطرة زيت برغيف العيش وأرجع له الطبق.

– يا عم وأنا مالي.. أنت هترمي بالاك علينا.. طالع فقري زي أبوك. خد يا عم!

مضى إلى شارع بور سعيد. كان أصحاب عربات الكارو يستعدون ويسيرون ببطء تجاه باب الخلق، وحميرهم الناعسة تجر البضائع التي تضاعف وزنهم بتمهل.

بدا الشارع الواسع ببيوته ذات الجدران الصلبة كدرب خال من

القوافل. ثمت بعض الحركة في منطقة سوق الثلاثاء حيث اتخذت نساء ترتدين ثياباً رثة بأطفالهن مجلساً أمام أقفاص الخضار والفاكهة، نيابة عن أزواجهن الذين تأهبوا للصلاة ومازالوا يتثاءبون في ملل، ورحن يسوين الطماطم والخيار، ويرتبهن للعرض وهن يتبادلن الحديث والشكوى من غلو العيشة ومن أزواجهن..

قطع شوطاً حتى ميدان "لاظوغلي"، انعطف إلى مجلس الشعب، وجال بعينيه في شارع الشيخ ريحان.. هنا ستكون المعركة غداً. من المقرر أن يعزفوا بعدها في "الجاز كلب".

نقشت الحروف الذهبية على المدخل: السلطة للشعب..

عبر فناء مجمع التحرير بعشاقه الذين احتلوا بقعاً تفصل عن بعضها في وقار، تهامسوا وألقوا على أحبائهم ما ظنوه يتطلبه العشق.. بدا على وجوه بعضهم الحزن لتقلبات الحب واستحالته، وعلى وجوه أخرين النشوة والبهجة لنيل مرادهم..

ارتبط مرة واحدة، كانت زميلة له في كلية الموسيقى، أوشك التقدم لأهلها وفاتح والدها بالتليفون في موضوع الزواج، ففوجيء بطلبه تسوية خلافاته مع ابنته أولاً، إذ ترامى له عدم اتفاقهما في بعض الأمور.

كان مستقلاً السيارة معها لما صارحته بما تناقشت مع والدها فيه ويحوم حول أفكارها منذ أسابيع، وذلك رغبتها في التحاقه بعمل حقيقي بدلاً من ضياع وقته في الموسيقى هكذا، منصاعة بلا شك لضغوط والديها وأصدقائها.

أوقف العربة لحظتها وطلب منها بكل هدوء أن تنزل من السيارة. وعندما حدقت فيه بذهول غير مصدقة، انحنى جانبها ليفتح باب السيارة، ليؤكد حزمه، ثم صاح فيها لمّا لم تتحرك، وما إن خرجت، حتى اندفع بسيارته عازماً ألا يراها مجدداً.

بات لا يتذكر تلك الحقبة من حياته سواء باللهفة أو البغض، متيقناً ومقسماً لنفسه أنه لن يرتبط مرة أخرى بمصرية. فتكتمت مشاعره وتوارت بداخله، وتبدلت مع ما هو "ضروري"، وتهيأ له أنه لم يعد هذا الشخص.

اتصل بعاطف. لم يرد. ظنه مازال نائماً.

اتجه إلى مقهى وسط التحرير، وما أن دخله حتى وقع بصره على شاب جالس في الركن يصطدم به كل حين ولا يروق التعامل معه.

طلب شاياً وشعر بمزاجه يتبدد وهو يحتسيه ببطء متذكراً مواقف بغيضة ضاعفت من امتعاضه. استرجع اتهام خالد له بأنه لم يعد يهتم بشئون الفرقة، رغم أنهما أسساها معاً. وهو لم يبرأ بعد من نداء الفرقة، رغم ما يظنه خالد. لن يغادر إلا لو هاجر مثلاً، وهذا لن يحصل في الغالب. يخشى خالد أن يتلاشى الحلم، ولكنه حلمه هو الآخر. شرح له تكراراً أن عليهم أن يطوروا من أنفسهم، ويجددوا ويضفوا علي ألحانهم "ستايلات" أخرى، ولكن خالد لا يصغي وصار مزاجه متقلباً لاحقاً، خاصة بعد عقد قرانه على تيسير. إن الزواج مشروع فاشل، تفكر وهو يطرد الأفكار المرهقة من ذهنه..

تغلغل شادي إلى أفكاره، فصب عليه غضبه، كم هو متعجرف ومتعنت! ميزته الوحيدة أنه لا يجري وراء المال مثل عازفين آخرين، رغم ما يتلقاه من عروض عدة لفرق رديئة، ولكنه أناني. وفاروق بسلبيته. بمقدرته أن يتدخل أكثر في التلحين، ولكنه يترك الأمور كافة لخالد وشادي، وقد كونا جبهة ضده.

أراد تغيير نمط أفكاره، واستجمع تركيزه، لكن شروده أجهده.

التفكير يعطل الحواس الأخرى..

دفع سيل أفكاره نحو إيزابيلا، فتاة إيطالية تعرف عليها البارحة في البار، وقد أثارته بشفتيها الممشوقتين كلما أفصحتا عن ضحكة عذبة، فجعلته يتوق في خياله لمضاجعة لحمها الأبيض الرقيق.. انتصب عضوه في خمول، فدعه مستسلماً قبل أن يرتخي ويغلبه النعاس..

أفاق على أثر حر غليظ تسرب إلى عنقه وصدره. انتفض كي يفرز ثمالة النوم واعترته رغبة في الخروج. رماه الشاب بنظرة متفحصة وهو يغادر فبادله بغضب، وتخيل نفسه يعدو نحوه ويطرق بقبضته ليهشم فكه.

اصطدم بعشوائية الشارع ووجد نفسه يسير فوق كوبري 6 أكتوبر بلا هدف. تسلل الظمأ إليه وتثاقل جسده، وسيطرت عليه على حين غرة حالة غضب تجاه والديه. سيشارك بالمشاركة عناداً فيهما..

سوطت الشمس الأسفلت تحت قدميه فتقوس من لهيبها.. سار حتى منعطف "مركز شباب الجزيرة"، حيث احتمى سائقوا التاكسي بسيارتهم متكئين على السور بتراخي متخذين في ظله مآوى، يحتسون الشاي بتأن قبل موعد الصلاة.

نادته منظر الملاعب الخضراء الواسعة. خطا البوابة بعد تردد متفادياً النظر للحارس في كوخه.

- كابتن!

نادى عليه، لم يلتفت.

- التذكرة يا كابتن!

ركض الحارس وراءه، فادعى أنه لم يلحظه. قطع تذكرة بخمسة جنيهات على مضض، ثم اختار بقعة مظللة بعيدة عن لاعبي الكرة الذين اختاروا الملاعب المسفلتة أسفل الكوبري ليتجنبوا الشمس.

استلقى على الأرجيلة واضعاً رجلاً على رجل، وطوى يديه تحت رأسه. كانت أفكاره تدور بتلقائية نفسها. تفكر في سامية، وابتكر أحاديث بينهما وتطورات واعترافات مجيبة. تلاعب بعود أرجيلة بين شفتيه، وترامى إليه صياح الشباب يأمرون بتمرير الكرة. زقزق عصفوران فوقه كي لا يشعر بالوحدة. ظل مستلقياً ناعماً بالراحة التي سلبت منه في الصباح. وهدأت خواطره.

رن على باله لحن ابتكره و لم يكتمل بعد. كل الفرق تعتز بأغان لها، وأجمل لحظات العازف لما يردد المئات أو الألاف لحن قام بابتكاره. لن ينسى حفلتهم في صيف 2006 عقب اعتداء إسرائيل على لبنان، لما ارتدوا "تيشيرتات" مكتوب عليها "لبنان"، طبعتها منظمة من أجل إرسال الأرباح إلى ضحايا لبنان. قدموا مقطوعة عن نكبة فلسطين، ألفها عاطف ولحنها هو، ولما جاء "الكورس" ردد الجمهور بالمئات "بيروت بيروت"،

مما أصابه بالقشعريرة. ورغم حزن الأغنية وسردها لنزوح آلاف اللاجئين من بيوتهم، إلا أن لحنها بهيجاً مثل بجعة راقصة يدعو للأمل والعصف بكل المآسي. وهذا ما تفعله الموسيقى.

ليلتها أحس أن موسيقاهم وصلت بيروت نفسها، وأنهم حفوا سكانها بالأمل.

ظهرت الحفلة بعدها على "اليوتيوب"، وتردد خلال أيام قصيرة ثمانية عشر ألف شخص على الموقع، تاركين تعليقاتهم المتضامنة مع لبنان.

بعدها ألح على خالد كي يلحنوا مزيداً من الأغاني السياسية مثل "نغم مصري" و"بلاك تيما"، لكن خالد أبى معللاً تحفظه من تمييز الفرقة بنمط معين.

تداعبه الفكرة بأن يكوّن فرقة مكرسة لشغفه الحقيقي، "الجاز" الشرقي. فمعظم ما تشهده الساحة الآن هو تقليد أعمى لبراعم "البوب" الضجرة، باستثناء فرق قليلة ولّدت تجارب فريدة لا تصنف وتختلف برمتها عما تقدمه الفرق الحالية، مثل "وسط البلد" و"كايروكي" و"سلالم" و"الدور الأول".

وهو يحلم بفتح المجال لتجربة "البيس". فـ"البيس" لا يحظى بشعبية الآلات الآخرى، إلا أن هناك عازفين مثل "ماركوس ميلير" و"ستانلي كلارك" قد حققوا تجربة فريدة، وجعلوا فرقهم ترتكز حولهم. وهناك الأسطورة "شارلز مينجيس"، الذي حدد معالم "الجاز" من جديد، وقدم مقطوعات خارج الزمن.

ولكن خالد سيعارضه حتماً. لو لم يكن شادي متعجرفاً لفاتحه في الأمر، ولكنهما لا ينسجمان.

اعتلا الملعب صريخ حماسي. تابع الشباب يركضون وراء الكرة بلا هموم، فتقرب منهم في فضول وسألهم:

– في مكان يا كباتن؟

انضم لأحد الفريقين، وراح يلهو ويلعب بفطرة وحماس، ثم تمكن من إحراز هدف قبل أن يبدل مكانه لاهث الأنفاس مع شاب آخر. التصقت فانلته المبللة بجسده وتفكر أن لو أصابه البرد سيكون لديه عذر لعدم الذهاب للمظاهرة..

..

أستأنف سيره ماراً بمراكب "لو باشا" و"سراي". اصطف العاشقون صغار السن على مدار السور مختبئين ومتخذين من الأشجار مآوى، لعدم امتلاكهم ما يكفي من المال للجلوس في "كافيه".

وضع صبيان أذرعتهم حول حبيباتهم، واكتفى أخرون بالاختلاء الحميم دون ملامسات، بينما فرض البعض نظرات التسلط بغية التحكم في بنات ميالات للضحك وسريعات الدمعة.. غض بصره وهو عابرهم.

تفشى الهدوء في شارع 26 يوليو. كان صباح جمعة هادئاً. العائلات مازالت قابعة في بيوتها، والأجانب يمشون على مهل كأنهم في أوروبا، والفتيات تجلسن في "كافيهات" مطلة على الشارع تنعمن بالشمس..

هاتف عاطف مجدداً. لم يرد. تصفح لائحة هاتفه وتوقف عند جنو.

- توفيق.. حماتك بتحبك.. تعالى.. مريم عاماللنا رز بلبن.

تعجب من صحبة مريم له في الشقة، لكن حتماً أمه معهما.

بات شهرين على سفر جنو، وقد تفاجأ مثل الجميع بالخبر. يقطن بجانب "الماريوت" في عمارة عالية تطل على النيل والزمالك بمشارفها، يسكن مع والدته بعد ما افترق الوالد عنهما منذ زمن، وقد لقى حتفه حسب ما سمعه في ظروف غامضة في أمريكا.

ألقى السلام على البواب المتجهم دائماً، أوصد وراءه باب المصعد الحديدي، أحس بدقات قلبه تتسارع وهو يرتفع. تمتم بأية الكرسي..

- إيه الحلاوة دي يا واد؟

استقبله جنو "بيشيرت" و"شورت" بدا فيهما نحيفاً أكثر مما هو عليه.

كانت مريم في صحبة والدته كما توقع.

- نورت البيت يا توفيق!

قبل والدة جنو على وجنتيها، وصافحته مريم بحرارة قبل أن يسأل جنو في إحراج:

- ممكن استلف منك "تيشيرت"؟

قالت مريم وقد اعتاد مزاحها ومناكفتها:

- يا بخت من زار وخفف!

فرد عليها جنو:

- بس يا بت! روحي هاتي الرز بلبن بتاعك ده اللي شكله هيجيبلنا تسمم.

- تسمم.. فشر.. خسارة فيكم أصلاً.. مفيش غير طنط حبيبتي اللي هتنصرني وهدوئها عمل إيديا دول.

- أه يا خوفي!

انقضت مريم عليه وشرع جنو لتفاديها مثل الأطفال. ولما تخلص منها صاح:

- متوحشة!

اندهش لتصرفهما على سجيتهما هكذا في وجود والدته، وهما ليس حتى مخطوبين.

اقتاده جنو إلى غرفته المرتبة. اعتلت صورة "لجيمي هندريكس" الحائط بشعره الهائج وثيابه الملونة. كتب أسفلها: تستطيع أن تتعلم كل "التكنيك" في العالم ولا ينتابك الإحساس.

ناوله "تيشيرت" نظيفاً. وأخذ منه فانلته المبللة.

- هنغسلها ونرجعها لغاية عندك يا باشا!

لاحظ عند خروجه تمثال صغير لقديس بجانب سيارات "ماتش بوكس" مصطفين فوق رف السرير. كان وجهه الخشبي محفوراً بدقة ويشع هدوءاً سمائياً.

- ده. سانت جوزيف!

قال جنو ثم أضاف مبتسماً:

– بيخلي باله مني!

اتخذوا مجلس أمام التليفزيون، وراح جنو يغير القنوات في ضجر حتى استقروا على مباراة كرة قدم بين فريقين من جنوب أمريكا. تحاكت مريم ووالدة جنو دون أن يتابعا المباراة، فرمقهما جنو بضيق لعلو صوتهما.

أردفت مريم:

– معلش.. إحنا آسفين يا باشا.. عملنلك إزعاج أنا عارفة.

ضغطت بسبابتها وإبهامها على أنفه. فحدق فيها جنو في نفور، ثم حجب شفتيها بيده وهي تكركر بينما الأم الضاحكة تأمره بأن يتركها.

– الرز باللبن زمانه سقع.

اختفت مريم داخل المطبخ ورجعت بصينية مصطفة فوقها أربعة كئوس.

– شكلك هتكسفينا أدام الضيوف.

تذوقه وهي منتظرة رد فعله بترقب. كان طعمه دلع وينقصه السكر.

قال مجاملاً:

– حلو أوي!

تحمس وجهها بالسرور وقالت:

– شفت؟ أهه عجبه.

– أكيد بيجاملك!

انقضت على جنو ولكنه ثَّبتها تلك المرة ونهض سريعاً. بدا له أنهما ينتهزان أي فرصة للتلامس.

..

– شكللك مش في "المود"!

دخلت أمه غرفتها بينما كانت مريم تتحدث في "الموبايل" بالشرفة.

أخبره جنو مرة أنه لديه تركيز قصير المدى، وتساءل إذ كان له صلة بنبأ مقتل والده. لم يسافر لأمريكا للمشاركة في مراسم الدفن.

– متحمس للسفر؟

تجهم وجهه وقال:

– مصر حلوة برضو!

– أمال ليه هتسيبها؟

– أنا راجع تاني!

– كلكم بتقولوا كده!

نادت عليه مريم، فنهض وبقى هو بمفرده يتابع لاعبين غالباً برازيلين يجاهدون وراء كرة.. يركلون ويعرقلون بعضهم.. صفر الحكم وأظهر للاعب كارتاً أحمر.. خرج اللاعب بعد اعتراض.. وارتكزت الكاميرا فوق وجهه النافر.

كل هذا الركض.. كل هذا الصياح..

يا له من جنون..

4

بدأت الشوارع تعبأ بالمارة كإدراك عقل يتوسع بالذاكرة.

شعت أنوار لمحلات كواحات تسترسل السكون في روح العابر بوجودها.. تسلل بائعون من محلاتهم ليرتكزوا أمامها، متأملين بصبر ادخروه طوال عمرهم ما يجول بخاطرهم انعكاساً للشارع. ولما كانوا يصلون بعقولهم إلى نقطة الصفر، كانوا ينهضون ويتناوبون على زيارة بعضهم البعض ليتبادلوا الأحاديث وليتجادلوا لغرض الجدال ولإثبات جدارة أرائهم، فيشتكون ويثيرون ويضحكون ويرجعون لحالهم فيستغفرون ربهم..

خرجت الناس من جحورها لتلقى ما وهبته لهم الحياة، ترددوا بسلام على مطاعم وكافيهات، استوقف فتى صديقته الجميلة بجذبة خفيفة بيده المتشابكة في يدها، وحملقا في أعينهما بنظرات عاشقين..

غمره شعور مرير بأنه ينعم لأخر مرة بحريته، وبدا له العالم متكاملاً في هذه اللحظة.. وهو يشاهد بائع فاكهة يحشو كيساً من التفاح لأجنبي في راحة بال وتجانس، وبجواره وكأنه أعطى المخرج الإشارة.. خرج رجل وامرأة من صيدلية فخمة يحملان حقيبة شفافة ولا يظهر على أي منهما علامات مرض، بينما جلس رجل صعيدي أمام دكانه في خلفيته هرم من اللب لا يكترث من سيشتريه. وفي مطعم "سوشي" على الصف نفسه تصدرت مجموعة من البنات "كورال" من الضوضاء والضحك، واعتلت وجوههن البهجة التي تسبق التطلع للطعام.. على بعد مائة متر نفخ شاب في مقهى ما تبقى من دخان ممزوج بأنفاسه ليختلط بأنفاس الليل.. أما عند "هيئة التبادل العلمي الألماني" أظهرت يافتة شباب من مختلف الأجناس يبتسمون ويعكسون عالماً وديعاً، غير العالم هذا..

عند تقاطع شارع "شجرة الدر" تجمعت كتلة صامتة من البشر تنتظر بوجوه مجهدة مواصلة عسيرة، ينتظرون كما تنتظر فتاة وديعة زوجاً صالحاً، وكما ينتظر مؤمن بلاء لا مفر منه والفرج عقبه، وكما ينتظر شائك إشارة حكمة..

استكنت علامات الصبر على وجه فتاة محجبة تحتضن دوسيهاً بحنان، وكأن الانتظار اختبار في حد ذاته.. بجانبها عجوز يكسوها جلباب أسود من الريف استكنت عند قدميها آفة مغطاة بإحكام، كانت عيناها سوداوين محفورتين في جحورهما، وفوق ذقنها المتحجر وشم أخضر منذر.

تساءل لما هو قادم على إلقاء نفسه إلى الهلاك غداً؟ ولما لا يبقى العالم كما هو عليه الأن؟

دعى الادراكات تمرقه إلى اللاوعي كأنها ستطفو في حياة آخرى.. ثم انقض عليه الخوف فجأة كالصقر، واجتاحته أفكار هزيلة عما يمكن أن يتفشى له غداً. سار أسرع حتى وصل الساقية. كانت مكتظة بسودانيات يافعات يرتدين جلاليب ملونة، يتحركن بخفة ويتصايحن بلهجتهن. يعرضن اكسسوارات يدوية وسط جموح من الشباب..

جلس على دكة بجانب رجل كبير يرتدي بدلة شاحبة ويتفقد المشهد بعينين عسليتين، غائرتين نابع منهما تعبير الفقدان. كان ذقنه غير حليقاً، وجهه منكمشاً بتجاعيد لم تتحمل الحياة. ترامت إليه نغمات خافتة لشاب يعزف على الجيتار وصوت صديقه الذي يغني عن الحب ولا أحد يستمع..

أمام شباك التذاكر وقف شاب يرتدي "تيشيرت" أبيض ضيق نبذ منه كرشه المنتفخ يحدث فتاتين، محجبتين مفرطتي الزينة، إحدهما ترتدي كعباً عالياً منفتحاً عند الأصابع. راح الشاب يشرح لهما نظريته باقتناع، وهما يستمعان إليه في صمت مطيع..

اكتظ الدرج السفلي الذي يؤدي إلى قاعة "الحكمة" بشباب ينتظرون الدخول، وكذلك امتد طابور فوق الجسر المؤدي إلى قاعة النهر. كانت هناك حفلتان متوازيتان. أدار عيناه وسط الجموع لعله يتعرف على أحد..

ثم فرغت الحديقة أحشاءها و لم تتبق إلا قلة مندثرة لم تأت لحضور أي حفلات. فرد ساقيه وطوق ذراعيه فوق صدره. أحس بتعب اليوم وبشد عضلي يتسلل إلى ساقيه.. تفكر في جلب قهوة من الكانتين ولكنه ظل

هامداً.. إنها ليست فقط المظاهرة ما تشغله، بداخله مستنقع لا يجرؤ على التوغل فيه..

سأله عاطف لما سيخاطر.

ترى أهو "عماد الكبير" ووجهه المعذب الصارخ فوق بلاط قسم الشرطة العاري، أم التحرش الجماعي بالصحفيات المحتجات على التعديلات الدستورية الزائفة، وكانت سامية إحداهن؟ أم العمال الذين بطش بهم المخبرون أمام عينيه لمجرد طلبهم في إثبات شخصية لما أمروهم بإبراز بطاقاتهم؟ ولاّ التزوير لانتخابات البرلمان والمبيدات السرطانية.. إلخ.. إلخ..

تعرف على موريس في "الجاز كلاب". كان يتردد مع نشطاء أخرين، يستمعون إلى موسيقاهم، ويتحاكون عن أحوال البلد.. روى له موريس عن نشاطه بـ"6 أبريل" وحركة "كفاية"، حدثه عن حقوق المواطن المصري المنهوبة، وسيادة القانون المنتهكة. ثم دعاه لحضور اجتماع لناشطين حقوق الإنسان و"تويتر"، لم يبد غير عاطف وربما جنو اهتماماً مثله. حضر الاجتماع واختلفت بعدها نظرته للعالم. أحس أنه يشارك في شيء يفوق الحياة، شيء ذات معنى حقيقي، وغمرته تلك النشوة التي تغمره فوق المسرح، حتى مشيته في الشارع اختلفت. تعرف على سامية وهؤلاء المجانين الذين يخاطرون بكل شيء من أجل مباديء وإيمان، ليسوا مضطرين أن يؤمنوا به. حياتهم لا تعترف بالوسطية، وفي رأيه هم المعنيون الحقيقيون بأمور البلد على نقيض المذيعين والفنانين الكاذبين الذين يظهرون عقب مباراة كرة القدم ليرددوا شعارات فارغة.

ولكنهم مجرد حزمة قش في وجه رياح عاصفة.. ماذا بوسعهم أن يغيروه؟

تمتم الرجل جانبه بشيء لم يفهمه. فالتفت له مستعجباً وقال:

- أقندم؟

- رأيت كل الأعمال التي عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح.(*)

رمقه مدهوشاً وكأن قدرته على الكلام فاجأته.

همهم العجوز:

- لم أؤمن بهذا القول حقاً.. كان لي صديق اعتدت النقاش معه في شتى الأمور.. كنا نجلس ونتحادث لساعات ونتطرق لكل ما يتعلق بالرب والكون.. تواعدنا لأنفسنا بالكثير.. ولكن الحياة كانت قد أعددت لنا خططاً آخرى..

حادثه كأنه يعرفه. تمعنه بدقة لعله التقي به من قبل. ثم تابع السودانيات يتحركن وكأنهن لسن لاجئات في بلد يتم فيه مضايقتهن واضطهادهن، وانبثق الأمل من عيونهن.

- كان بقدرته أن يحقق كل ما كان يصبو إليه.. وكان يتقن الحديث مع النساء..

ابتسم الرجل ملياً.

(*) الكتاب المقدس/ سفر الجامعة/ اصحاح 1/ 14.

- النساء هن موضوع أخر بالطبع.. كانت لديه القدرة أن يقنعك بإعطائه مائة جنيه لو أراد.. وكنت ستعطيه إياه، ولو اضطررت أن تستدين.. لكن لم يستغل أحداً أبداً. هم من استغلوه.. وراح كل شيء قبض الريح كما تقول الآية.. كيف يكون العالم قبض الريح؟

إنه حتماً أحد المخبولين الذين خفقوا في حياتهم ويلقون بلاهم على كل من يقبل الاستماع إليهم. ليس مضطر للاستماع إليه. ولكنه سمع نفسه يسأله:

- ماذا حدث له؟

- ألقي القبض عليه.. سياسة.

خفق قلبه وأحس ببرودة تجتاح ظهره.

- السبعينيات كانت حقبة.. أقل ما يمكن وصفها أنها ملعبكة. لقد مرت وشاهدت البلاد أثناءها انقلابات عدة.. مرت البلد بحقب كثيرة.. إنها تنهب وتغتصب منذ ما يقرب من سبعة آلاف سنة.

زمت شفتيه ثم تفحصه العجوز بعزيمة لم يتوقعها منه.

- ولم يرجع كما كان.

حدق فيه باستغراب، أيجوز أن يكون قد أرسله والده؟ ولكن كيف يتسنى لوالده أن يعرف؟

- من أنت؟

- لا يهم من أنا. إني عجوز كما ترى.

فرد الرجل يديه أمامه كدليل لتقدم عمره.

- إذا أصررت أن تعرف.. إني رجل نادم على أشياء كثيرة فعلتها.. لكني لست رجلاً سيئاً..على الأقل هذا ما أظنه.. فالصورة التي تحتفظ بها لنفسك أهم شيء. عليها أن تتطابق فقط مع الواقع.. ماذا عنك أنت؟

- إني أدعو توفيق.

- لم أسألك عن اسمك.

ماذا يدفعه للبقاء مع هذا المخبول؟

- معظمنا ليس لديه إجابة على هذا السؤال على أي حال.. نحن ننسب للهوية أهمية مفرطة.. ولكن كيف نحدد من نحن، ونحن نجاهد بقوة أن نفهم عالماً لا ندركه كاملاً.. هناك انطباعات كثيرة لا نستوعبها، لا عن أنفسنا ولا عن غيرنا.. وطالما حاولت أن أجد نفسي.. ولعلي نسيتها على متن أتوبيس حملني منذ سنوات.

حدق العجوز في الفراغ بعينيه العسليتين، كأنه يستوعب ما بدر منه. عبرت عيناه محطات داخلية وتمتم:

- يقال إن أحلامك هي التي تحدد شخصيتك.. فماذا تحلم به؟

- أحلم بمصر حرة.

انبثق منه القول دون تفكير، فاندهش العجوز ورمقه محذراً:

- انتبه لما تحلم به يا ولدي.. فربما تتحقق أحلامك.. مصر حرة.. دائماً كانت.. مصر في غنا عمّن يتحدث نيابة عنها. لو ألقينا حتفنا الليلة، فستكمل مصر مسيرتها وكأننا لم نكن.. أصعب شيء على المرء أن يتقبله

أنه عاش وكان العالم في غنا عنه.

قال مستطرداً يدافع عن شيء يتخطى فهمه واستدعى دفاعه:

– كل من سار على الدنيا ترك عليها أثره.

– أتؤمن بذلك حقاً؟ ممّ أنت خائف هكذا؟

تمتم بكبرياء:

– ربما أكون خائفاً الليلة، ولكن غداً سأواجه مخاوفي.

– أتؤمن بالقدر؟

– أؤمن بما قدر الله لنا!

– ربما الخوف رادع عنك المصائب والمتاهات.

– لقد سئمت الخوف!

تبدلت ملامح العجوز وتجلت بهيبة وعزيمة، فبدا انساناً آخر.

إنه ليس مخبولاً، يبدو فقط أراد أن يخرج عن دوره المألوف، ولو لبضع دقائق.

– من أنت حقاً؟

سأله. ترددت عيناه الراتبة، وما لبثت أن استقرتا على شيء ما، ثم رفع رأسه وأجاب:

– اللواء إبراهيم عبد المالك، نائب مديرية أمن القاهرة.

5

إنها مؤامرة دنيئة جلبت له غريمه وجهاً لوجه الليلة.

هكذا يبدو الخوف في هيبة رجل إذاً. ولو واجهه غداً في المظاهرة، لاحتجزه وبطش به بطشاً..

عيناه الغائرتان مدربتان على بث الرعب في النفوس، ولديه من يقوم بذلك نيابة عنه.

نقب في عينيه عن علامات السلطة، أي تعجرف شامخ يدل عن جبروت رجل الشرطة المصري الذي تربى مؤمناً بعلوه فوق الكائنات..

لكنه لم يلق أي من ذاك، مجرد عينين يشككان في سلطتهما.

أراد تخيله ببدلته البيضاء ووجهه الغير المبال يشرف على عمليات

تعذيب في حجرة مفروشة ببلاط تفوح منه رائحة "الفنيك" لاستخدامه في مسح آثار الدم لمواطنين يصرخون من الألم.

لكنه لم يقدر إلا أن يشعر تجاهه بالشفقة.

ما الذي جاء به إلى هنا؟ أبعث له كمنذر؟ إنه مستعد أن يؤمن بالقدر لو أعطاه دليلاً.

فجأة تفكر لو رآه موريس أو سامية معه. سيظناه حتماً جاسوساً مندساً وسطهم.

يستحسن أن يغادر فوراً.

– لقد رأيت أثناء خدمتي شباب مثلك.. شباب مثل الورد.

استكنت الكلمات في الحديقة بعد ما باتت شبه مهجورة. اختفت السودانيات، وأخذن أغراضهن معهن. عكس نور النيون أصارير الأرجيلة التي التمعت منتصبة كأن لم تدسها قدم من قبل. ترامت إليهما نغمات موسيقى متلاشية.. خيل إليه كيف تكون الحديقة خالية لما يعزفون.. هكذا يكون العالم، خالياً منه.. مجرد نغمات غائرة في فضاء أجوف..

– لقد قضيت واحداً وثلاثين عاماً بالخدمة، ولما تعثرت.. استرجعت مبادىء رجل الشرطة، العهد الذي أقسمته على نفسي. رجل الشرطة يواجه من الشر والفوضى ما لا يمكن أن تتخيله.. أحياناً يستوقفه عقله ويتجلى في مخلوقات الله سبحانه.. ويتساءل كيف يتسنى للمرء أن يفعل هذا بأخيه؟ أشياء لا يتخيلها بشر، ولا تجد إجابة مقنعة.. تقنع بها نفسك على الأقل. تتعجب من القسوة التي نستخدمها، ولكنها قسوة لا تقارن

بما نلقاه في تعاملات البشر بعضهم البعض..

الشر مزروع بداخلنا، لو لم تكن ظروفنا يسيرة، لرتكبنا غالباً الجرائم نفسها. هذا ما توصلت إليه بعد هذا العمر.. فالخير والشر كلاهما نسبي.. لو لقينا ما لاقته تلك الكائنات التعسة، لأصبحنا مثلهم.. هذا عذري الوحيد لهم.. ولجرائمهم البشعة التي يستعصى على المرء فهمها.. ولكن بعد فترة لم أستطع اختلاق الأعذار.. فتفكرت وتوصلت لهذه النتيجة: الشر بحاجة لشر مثله لقهره.. شر حميد إذا شئت. دونه سيهوى ويتلاشى النظام الذي نعهده.. وهذا النظام رغم عيوبه إلا أنه ينبغي أن يظل قائماً وقوياً ليضمن الأمان.. أزرت عشوائية من قبل ورأيت كيف يعيش الناس هناك؟ فالمجتمع مثل حلة تغلي ولا تتخيل ما يقع بقاعها.. إذا زال هذا الغطاء.. لو قررت أن تبصر وترى.. لانفجرت الحلة في وجهك، إننا نحجب أشياء كثيرة أنت في غناء عن معرفتها. إنها غابة بالخارج، غابة لا تعترف إلا بالقوة. لذلك نبطش عند الضرورة، لأنها اللغة الوحيدة التي يتكلمونها.. وغيرها ستعم الفوضى.

أنهى خطبته وبرقت عيناه بلباقة وكيل النيابة بعد ترافعه أمام القاضي..

أينتظر منه تصديقه فعلاً؟ لقد اعتادت تلك الأعين تعظيم السلام وتنفيذ أوامر دون أدنى نقاش.. داهية تتقرب منه بخفوت حتى تستحوذ منه على معلومات، لتسحقه بعد التملك منه.

رد بحنق مكتوم:

- النظام لا يحمي إلا نفسه في المقام الأول.

أحس أنه ينجرف في دوامة، وواصل مهزوزاً بداية ثم تعجب من جرأته وصلابة مواجهته.

- هكذا تبررون القمع. الاستثناء يصبح القاعدة والتعذيب يصبح ضرورة.. ولا تخضع قوتكم المفرطة والغير مبررة إلى أي رقابة.. هكذا تدار الأمور ولا يجد معهم غير ذلك! إنها حجة البليد!

لم يثر الرجل عليه، ولم يخرج الأمن المركزي من خلف الأشجار لاعتقاله.

ظهر على وجهه خيبة أمل فحسب، كأنه توقع منه أفضل من ذلك.

أغواه منظره الجريح، فتوق ليسدد إليه قبضة هاوية.

- شعوب غيرنا تنعم بالحرية والكرامة ولا يسيئون استخدامها. أما أنتم فتواجهون الإرهاب بالرهبة.. ولا تبغون إلا إبقاء الوضع كما هو عليه، لتحكموا هيمنتكم على السلطة.

- أنت لم تعش فوضى السبعينيات كما عايشتها يا ولدي.

لم يناده أحد "ولدي" منذ زمن.

التفت العجوز إليه وقال بصدق:

- صدقني.. لست غريمك.

- بل غداً ستكون!

إنه حقه أن يتواجد أمام البرلمان!

- سأشارك بمظاهرة غداً.

اختل تركيزه وزغلل بصره. حاول استرجاع السبب الرئيسي لمشاركته.

- غداً سأواجه البطش الأمني لمن ينادي بالحرية.

- ألست حراً الأن؟ ماذا ينقصك؟

- لست حراً!

- إنك تسير أينما شئت وتفعل ما يحلو لك.

- ليست الحرية أن تسير أينما شئت.. وإنما أن تطالب بحقوقك.

- أي حقوق تريدها؟

- انتخابات نزيهة، فرص متكافئة، حد أدنى للأجور، شفافية، القضاء على الفساد، فرص متكافئة، وقف التعذيب.

- لقد دأبنا في طريق الإصلاحات.

- أي إصلاحات هذه؟ أنتم لم توفوا بأي وعود من قبل، ولن تستجيبوا إلا تحت الضغط.

- إني مجرد صامولة في نظام كبير!

- إنه نظام فاسد، وأنت لا تحمي إلا الفساد!

زفر العجوز:

- هكذا الشباب، دائماً ثائرون، ولا تتضح لكم الأمور كافة، من سيستفيد لما تتفاقم الأوضاع؟ هناك من يعبث بأمن الوطن.. ومصر لديها أعداء كثيرون..

قاطعه بتأفف:

– أرجوك، كفى هذه الأسطوانة المشروخة. اعفيني من نظريات المؤامرة.

– أنتم عشرات فقط! نيابة عمّن تتحدث؟ دعني أقول لك هذا.. النظام أقوى من أن تضغط عليه بمظاهرة لمائة أو ألف.

– هناك الملايين مستعدون للنزول ولكنهم يخشون بطشكم.

هز العجوز رأسه.

– ماذا تفعل هنا يا ولدي؟

– ماذا تقصد؟

– اليوم الجمعة وأنت شاب. لماذا تجلس بمفردك؟ لماذا لست مع أصدقائك، وتستمتع بالحياة؟

ترامى إليه تصفيق الجماهير.

– إني عازف!

– عازف؟

ابتسم العجوز دون سخرية.

– يجب أن يتوفر المجال للإنسان ليستمع إلى الموسيقى كل حين.. كم أعشق الاستماع إلى "باخ" و"الفوج 4" لـ"موتسارت".

حملق فيه غير مصدق. أضاف العجوز بلذة:

– يا لعبقريتها.. أعتقد أن الموسيقى أقرب ما لدينا من المعجزات.

أتستمع لها بعد أو أثناء التعذيب يا سيادة الضابط؟

رمقه العجوز برفق أبوي.

- روّح بيتك يا ولدي! روّح ونام! وغداً سيغدو لك يوماً جديداً. وسترى أن الدنيا ليست سيئة كما تبدو لك الليلة.

ثم ابتسم إليه بحبور:

- إني لست غريمك الليلة!

- ماذا أتوقع غداً؟

تهدج صوته وأفضحه توتره.

تمعنه نائب مديرية أمن القاهرة ملياً ثم قال بحزم:

- كن على حذر، ولن يصيبك إلا ما كتبه الله لك.

تلاشت بعد ذلك ذاكرته بما عقب حديثهما تلك الليلة.

بقت فقط صورة الحديقة بنورها النيون.

وأتى يوم المظاهرة..

6

ارتعشت ساقيه. التفت حوله ليتبين إذا كان لاحظ أحد.

طوقتهم دائرة من قوات الآمن، رجال ذو وجوه غليظة يرتدون ملابس مدنية. ظلت مسافة بينهم. مخرج آمن يفضي إلى الشارع. تفقدوهم رجال الأمن بنظرات ثاقبة وهم يتنفسون بتثاقل كما تتنفس الثيران قبل المعركة.

راحوا يحملقون في بعضهم البعض، كجيشين متحاربين يستعدان لإطلاق صرخة المعركة الأولى، قبل أن ينقضوا على بعضهم البعض، مع فارق القوة بالطبع.

بدأ المتظاهرون.

هتفوا بالشعارات، وربما اعتلى صوتهم من الخوف.

حمل بعضهم اللافتات ليبثوا رسالتهم إلى العالم. وارتسم القلق وعلامات التحدي على وجوههم. وقفت سامية على بعد خطوات منه تهتف. لم يدر ما هو المطلوب منه تحديداً. أيشاركهم الهتافات ويصيح معهم أم يحدق فحسب أمامه؟

راودته رغبة ملحة في الفرار، و لم تسعفه المباديء الأن ولا جرأته التي تفشت أمام اللواء العجوز.

مازال هناك ممر ضيق يفصل بينه وبين قوات الأمن. لم يغلقوا بعد بوابتهم الحديدية، ليغووه غالباً. بإمكانه الفرار الأن!

ثم صدر الأمر! أغلقت النافذة، وأحاطهم جنود الأمن المركزي بالعصا.

اقترب منهم الرجال المدنيون. كانوا يرتدون جاكيتات "جينز" وكست وجوههم الشوارب والندابات. ليسوا من هذا العالم. وكانوا ناوين على شر!

أغلقت الأجواف وهلة، كأن دس أحدهم على زر "البوز"، ثم اشتد صياحهم من جديد.

اختلس نظرة إلى موريس، وقف شامخاً وقد ضاقت عيناه بما يسترجعه، بلا شك لحظة اعتقاله. استرقت سامية النظرات إلى موريس أيضاً، وكأنما تكتسب منه شجاعة.

وقفت بجانبه صحفية أجنبية تدون بسرعة في كتيب صغير، وعيناها تجول في قلق تجاه الأمن.

عبء الهواء بالهتافات ضد مبارك ونظامه. كان الصخب قبل العاصفة. ولم ينتبه من بدأ تحديداً. حين أدار عينيه، وجد الرجال المدنيين مشتبكين مع متظاهر شاب أمسكوه من فانلته، والشاب رافع ذراعيه لأعلى ليحمي وجهه. ثم جذب خارج الطوق..

لم يبق بد من الاندفاع نحو الهلاك!

رمقه عاطف الذي كان يتفادى النظر إليه من قبل.

ثم تفككت صفوف المتظاهرين وانهال عليهم الأمن. صرخ المتظاهرون وتشبثت أيادي بمن نالته أيادي المخبرين في محاولة بائسة لانتشاله من قبضتهم.

لم يكن هدف الأمن احتجازهم، بل إرهابهم وتلقينهم درساً.

رأى المدنيين يسحبون شاباً بعيداً. وجرت على بعد أمتار منه معركة بين رجل شرطة ومصور صحفي انتهت بتحطيم كاميرته واحتجازه من قبل المخبرين.

راقب عاطف. كانت شفتاه تتلو الأدعية. وموريس يترقب الأحداث بثبات وكأنه تنبأ بهذه الفوضى.

تراجع الصف أمامه إلى الخلف. داست الأحذية فوق قدميه. كاد أن يفقد توازنه. رمق سامية والمخبورون يجذبون شاباً بجانبها وهي وصديقة أخرى مشبثتان بذراعه ويصرخان في هيستيريا.

اقترب منه رجل ضخم، برزت بطنه تحت الفانلة. لاحظ حزامه الأسود ومعلقة عريضة تفصح باسم ماركة ما، ثم شعر بلكمة هوت على

[illegible]، لم يرها. أحس أنه يسقط قبل أن ترتطم القبضة بذقنه. تراءت له ساق عاطف ثم تعثرت الأقدام فوقه وارتطمت به أجساد هاوية مثل بيت من "الكوتشينة"، وفقد وعيه.

7

ارتج رأسه وارتطم بخاصر شخص كان يحمله ويهرول.

اهتزت الصورة وتدافع الألم في رأسه. هتف الشخص بكلمات لم يفهمها. اتضح أنه عاطف. كان يركض به نحو الميدان، وكل حين يلتفت خلفه في فزع. ثم اخترقت كلماته حاجز الصوت.

- توفيق.. أنت كويس؟ كلمني.. توفيق!

ظل يهتف اسمه حتى انسربت منه حركة إرادية. فتوقف بغتة وأنزله على قدميه، صاح:

- اجري!

وضع ساعده حول عنقه وسانده في اجتياز أخر خطوات ميدان طلعت

حرب، وهو لا يكف عن الالتفات حوله. توقفا أمام مدخل عمارة ليلتقطا أنفاسهما. ظهر حارس عجوز من عتمة المدخل، همس لهما:

- ادخلوا!

قادهما إلى حجرة صغيرة تحتوي كنبة وتلفازاً قديماً.

بزغ الألم أعلى رأسه، ولامس الدم المتجمد. لابد أنه جرح أثر سقوطه.

جلب البواب زجاجة "ميكروكروم" وشاشاً أبيض. شعّ قلق أبوي في وجهه وهو يسعفه، بينما تابعه عاطف بدقة كأنه يجري عملية جراحية. ذكره بوالده.. لو رآه هكذا..

فتح البواب الزجاجة وقلبها على الشاش، ثم وضعها على الجرح هاتفاً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. معقولة نعمل كده في بعضينا.. ده إحنا شعب واحد يا ناس.

ألقى نظرة على التلفاز، كان يبث تمثيلية قديمة لـ"محمود ياسين" وممثلة لا يتذكر اسمها.

ارتاح لمشاهدتهما واجتاحته دوخة خفيفة، فظن أنه سيقع من فوق الكنبة.

- أوعوا تتحركوا من مكانكم!

أغلق البواب باب الحجرة بحرص، وعاونه عاطف كي يمدد ساقيه.

8

- توفيق!

كاد الألم أن يفلق رأسه.

- خالد على التليفون.. عاوز يعرف لو هتعرف تعزف النهارده.

أراد أن ينهض لكن قوة خارقة منعته.

- هتكلمك تاني يا خالد.. سلام.

مد إليه ذراعه فجذبه عاطف. تحسس رأسه وشعر بكدمة.

- هو إيه اللي حصل؟

- وقعت والناس داست عليك.. لما شفتك بتقع جريت عليك.. كان في مخبر عاوز يضربني، لكن فجأة ظهر ظابط كبير ومنعه.. بصلك كأنه

يعرفك.. وبعدين قالي أخدك بعيد وخلا العساكر يمرروننا.

– كان شكله إيه الظابط ده؟

– ما عرفش.. كبير وعينيه عسلي.

ابتسم، فسأله عاطف بدهشة:

– أنت بتضحك؟

– عاوزني أعيط يعني؟

طل أمامه على المائدة. اصطف فوقها صحن يحتوي جبنة بيضاء وعيش بلدي.

– عم خليل متوصي بينا.. قبل منسى.. هتعرف تعزف؟ خالد..

– قول له جاي.

– هو انت عارف تتحرك؟

نهض بصعوبة ثم تناول رغيف العيش وقطعة من الجبنة، وبعد أن دسها في فمه، شعر بتحسن.

9

تبدأ المقطوعة بنغمة "بيس" تتألف من مفاتيح بسيطة، تكّون البنية الأساسية للمقطوعة، وتتعود عليها الآذن بعد فترة.

أصابه تكرار النغمة بالراحة، وحاول ألا يهز رأسه كي لا ينتابه الألم.

رمقه الجمهور في فضول أول ما رأوه بالشاش.

لم يعلق خالد. رمقه فقط في أسى، بينما ربت جنو على كتفه وكأنه بطل نجى من معركة.

تابعته الأعين فوق المسرح، فانهمك أكثر في عزفه واجتاحته رغبة في إسراع الإيقاع..

لمح رجل يحتسي شرابه أخر البار. كان متحفظاً في نظراته، ولا يرفع

نظره من كآسه إلا ليواجه العالم كأنه لا يعنيه في شيء.. اشتبكت نظرتهما معاً، فصرف الرجل عينيه وحدق أمامه إلى لا شيء، لكن ما لبث أن رمقه مجدداً، وبانت على وجهه علامات الدهشة، كأنه اكتشف إصابته للتو. تبادلا نظرة متفهمة، رفع الرجل كوبه، وأومأ له توفيق برأسه..

ثم أغلق عينيه.. واختفى البار عن مرماه.. وخفت الأنوار..

ولم تتبقى إلا النغمة..

10

– هي ده البلد اللي احنا بنتظاهر علشانها؟

انضم إليهم النادلون ولبنى وماركوس، إحدى شركاء البار. أرادوا كلهم سماع القصة بعد ما رأوه مصاباً.

بدا خالد متأثراً وعاطفياً:

– ليه كده يا توفيق؟

حاول أن يتصنع ابتسامة ذابلة. قال محمد النادل:

– دي مش بلدنا، دي بلدهم!

من يقصد؟ الأمن المركزي؟

اندثر الخوف أخيراً، ولكن بأي ثمن. لقد واجهه، نعم، لكن أسيواجهه مجدداً؟

انقسم الحوار سريعاً بينهم إلى صفين، صف جادل بأن الأزمات في البلد تتفاقم والأحوال على وشك الانفجار وأنه "مفيش فايدة"، وصف آخر متمسك بالأمل رافض تهويل الأخر، مشيراً إلى قدرة المصريين في استيعاب محنتهم واجتياز البر الأخر بنظرية "أهي ماشية وبتعدي". ولما جادل جنو، وقد اتخذ الصف الأخر، بأن الأمور ليست سيئة لهذه الدرجة، بادله خالد بسخرية لم سيرحل إذاً.

امتد الحوار إلى ما لا نهاية، واستمع دون أن يتدخل. أحس في أعماقه أنهم ليسوا جديرون بالتحدث عن البلد، فهم لم يخاطروا مثله..

تاقت نفسه للهروب، وترك كل ذلك وراءه. أراد أن يخلد إلى النوم ويستيقظ ويكون كل شيء مضى.

- أنت مسموح لك تتكلم أه.. طالما عارف حدودك.. بس إياك تخطي الحدود دي وشوف اللي هيحصلك.

علق شادي الذي نادراً ما ينخرط في السياسة.

- بصراحة.. أنا شايف أن السياسة دي مش لعبتنا.

فهم عاطف معترضاً:

- في فنانين كتير بيتظاهروا!!

- الفنان لي دوره في المجتمع.

- هرجع أقول.. هتستفيدوا إيه؟

ترك عاطف يخوض المعركة وحده.

- هنكشف النظام على حقيقته!

- يا سلام.. وانت كنت لازم تضرب علشان تبين أن النظام زبالة.. ماحنا عارفين أنه زفت.

- واحنا مالنا أصلاً.. ما هي الأمور ماشية..

- واللي انقبض عليهم دول ما لهمش أهل؟

لم يشارك فاروق الحوار مثله. كان يستمع ويسحب الدخان من سيجارة تلو آخرى.

عقب محمد النادل:

- يا بهوات المواطن المصري كل همه يربي عياله ويكسب لقمة هنية.. ويعمل لمؤاخذة واحد بالليل مع المدام.. مع احترامي يا أستاذ توفيق.. فكك من الفيلم الحامض ده واشتري مني.. مفيش فايدة في دي بلد.. أنا عن نفسي لو جاتلي فرصة هسيبها وههج.

سأله ماركوس باشمئزاز:

- وهتسيب أمك وأبوك؟

- علي النعمة أعمل لي قرشين أفيد وأبعتهم لهم بدل البهدلة دي.. اعذرني يا أستاذ ماركوس، أنت أصلك عايش زي البهوات ومش داري.. عمرك لمؤاخذة واجهت مشاكل مع البوليس؟ ولو واجهت أيتها حاجة،

هتكلم واحد من البشوات أصحابك، مش كده؟

- الله يخرب بيتك.. كثبت أمي!

استأنف خالد محذراً:

- المرة دي ربنا ستر.. أفرض حد كان كسرلك إيدك.. كنت هتعمل إيه؟

جادلت لبنى بعقلانية:

- اللي أنت بتعمله ده هيكون ليه بس فائدة لو كل الناس نزلت الشارع.. وده عمره ما هيحصل.

قال شادي مازحاً:

- يا توفيق يا برنسيس.. هتجرسنا!

ضحك وآلمه فكه. أحس بالامتنان لاختلاقهم الأعذار خوفاً عليه. ورمقه فاروق بابتسامة مطمئنة.

لماذا يشغل نفسه بهذه الأمور؟ ستعد له الحياة صعوبات وتحديات بما فيها الكفاية. سيعزف وستلحظه يوماً فتاة ما. سينشغل هو بأمور الحياة بينما سامية وموريس سيكملان المسيرة.. لن يفرطا في القضية أبداً.

أسند رأسه على مسند الكرسي وأغلق عينيه.

لا يدري ما هو مقدم عليه..

تذكر أغنية "أنت لا تسير أبداً بمفردك".

وارتاح لظنه عينيّ فاروق مازالتا قابعتين عليه.

عازف البوق... واللحن

..... (موسيقى صاخبة لكولترين)

بلو ترين.. جون كولترين

1

تمزق الهواء بصرخاته المتعرجة.

كسا الدخان المسرح الصغير كمشهد من عالم الخرفاء، والتمع بوقه تحت كشاف النور.

إنه طويل القامة.. عريض المنكبين.. جسده الثقيل يتمايل مع الموسيقى.. وشفتاه الغليظتان يطبعان قبلة قوية فوق مبسم البوق الصغير. وجنتاه ممتلئتان لما ينفخ بكل عزيمة، وكأن حياته متوقفة عليها.

إنه يجمع في عزفه بين حقبات زمنية مختلفة، ألواناً متداخلة فقدت درجتها الأصلية.

أصدر عويلاً متقطعاً مثل إنذار، أنين وحشاً متهدجاً ينتفض من الألم.. تحول وبات كائناً آخر.

أطلق صراخاً أطول تلك المرة. الجميع ينتظر إفصاحه عن شيء ما..

التوى جسده وانكمشت عيناه متمسكة بعتمتها..

فلتخمد كل الأحاسيس العبثية!

تشبث بالنوتة التي ينقش وينبش صورتها في خياله. لقد نقب عنها طويلاً.

حبس أنفاسه لأقصى مدة ممكنة.. ثم قطع النوتة بغتة.. ولحقها بنفخات قصيرة متتالية.

تبعته الأنظار برهبة، وحدق فيه فاروق وجنو كأنه الحقيقة. ثم أغلق عينيه في استسلام، ونفخ كأنه وضع وتيراً مشتعلاً في فمه.

نغماته ليست سالمة، تشرع في اختراق تكوينات لم يتطرق له أحد من قبله. هو المجال والنغمة معاً. "أناركية" جارفة..

لن يتورع. إنه في قمة عزفه، وهو يدرك ذلك..

ثم انتفض الساكسوفون بغتة كأن أصابته رعشة حمى، وارتعد المستمعون قبل أن ينهالوا بالتصفيق، فخطا خطوة إلى الأمام ورقص بخفة..

2

– ميزو تيكيلا.. ها.. تيكيلا!

جاهد أن يخترق حاجز الصوت وهو يشير بإبهامه وسبابته في شكل كآس للنادل.

وضَع أمامه كوباً صغيراً يحتوي سائلاً أبيض لزج ابتلعه على مرة واحدة وصعد مباشراً إلى رأسه. تناول فص برتقال ليحلي طعم فمه، تجشأ وهو يضع الكوب على البار تاركاً علامة على شكل دائرة.. أخذ نفساً من السيجارة المشتعلة بين أنامله، وتناول زجاجتين بيرة.. راح يتلقى ويلقي السلام بابتسامته العريضة.

– يا غالي.. حبيب قلبي.. إيه يا هوءّة!

عبر ساحة الرقص الضيقة وربت على كتف فتى إنجليزي يرقص، هاتفاً له بالإنجليزية:

- "جاك" لا تتعب نفسك! أنت ليس لديك إيقاع!

لعنه جاك بينما تابع هو ضاحكاً.

كانت في انتظاره جالسة على المقعد العالي للبار واضعة ساقها الممتلىء فوق الآخر، متكأة بمرفقها على البار وتدخن السيجارة..

ناولها البيرة وضربا زجاجتهما أحدهما بالأخر.

- في صحة القمر!

تناول رشفة كبيرة فيما التفتت حولها لتتبين إذا كان أحد منتبهاً إليهما. ثم رمقته بعتاب وتمتمت:

- مجنون!

تناول رشفة ثانية راض بتقييمها، وتطلع إلى المسرح. سيستأنفون عزفهم بعد قليل. عادة يكون خالد وتوفيق أول من صعدا.

- إزي توفيق؟

- زي القرد!

تناول رشفة أخرى فنفذت الزجاجة. حملق فيها بحسرة ثم ركنها على البار. لاحظ أنها تتأمله.

ظنها مفتونة بخالد، ولعلها كانت. بعد ما انصرف عنها تلك الليلة في فيلتها، كانت محتنقة. تناولت لبنى ليلتها سيجارة بين شفتيها، فأسرع

بإشعالها وراقبها وهو يطبل على ساقيه مدندناً:

– يا غزال يا غزال!

نظرت إليه بتجهم، ثم ما لبثت أن انفرجت شفتاها عن ابتسامة ركيكة.

– أيوه كدا!

ابتسم لها بدلال وحرك رأسه إلى اليسار بغتة كأنه يغويها.

– مش عايزة؟

– قلتلك مش هشرب الهباب دا تاني! ويا ريت تبطله أنت كمان!

– ما لكيش في الطيب نصيب، بتقطّعي على الناس ليه طيب؟

– الحق على أمي!

حدق فيها كأنه يراجع أمره ثم قال:

– طب وغلاوتك لبطله بكره علشان خاطرك يا جميل.

تمعنته بجدية، ثم هزت رأسها مستنكرة..

تقاربا كمنبوذين. تشبهه في أشياء كثيرة. هي متحررة من القيود وتقابل بالرفض مثله. تحادثا ليلتها لساعات، وحكت له عن شعورها بالاستغلال من أصدقائها، تعرت له ووجدها غلبانة أكثر مما تصور. بعدها صارا يتقابلان بانتظام وبدأ محيطهما يتساءل..

ارتطم كوباً بالأرض فتحول لشظايا..

واندفع نادل مهموم لتنظيفه بينما استأنفت الضوضاء لتوها.

الذي انكسر لا يتصلح.

تشابكت عيناه لوهلة في شبكة عنكبوت من الوجوه المألوفة. انتبه لفتاة تجلس على مائدة مجاورة بساقين طويلتين، ترتدي "جينزاً" ضيقاً وبلوزة "كات" أظهرت اكتمال نهديها. مط شفتيه وهو يحدق فيها، فامتقع وجه لبنى وأشعلت سيجارة بتعكر.

لم يتطرقا لمسألة الارتباط بينهما، يعلم أنه لا يستطيع أن يتسكع معها إلى الأبد، لاح له أنها ربما تسعى لإلهاء نفسها عن خالد. استرق النظر مجدداً لساقي الفتاة، فنهرته بحدة:

– ارحم نفسك بئا!

نظر إليها مدهوشاً، ثم ابتسم ابتسامته العريضة.

– حد يقعد مع القمر برضو ويبص لكواكب عابرة؟

– لا يا شيخ، عالم فلكي حضرتك!

قهقه ورفع زجاجة البيرة لأعلى لترتطم بزجاجتها.. أعطاه توفيق إشارة فوق المسرح.

– هتعملي إيه بعدين؟

هزت كتفيها.

– ما تمشيش!

نهض والتفت إليها:

– وغلاوتك لاجي!

3

– أنت إيه حكايتك بئا؟

كانت الثالثة صباحاً. اختلا ببعضهما في ركن من البار المهجور. راح النادلون ينظفون ويراجعون الحسابات.

ضمت ساقيها فوق الأريكة وباتت ملتفتة له كاملاً. كان ثملاً!

– بصي يا ستي.. أنا فنان.. والفنان ده بئا.. كائن حساس.. بس أنا ما بحسش إلا باللي عاوز أحس بي.. أنت حاسة باللي عاوز أقوله؟

ضحكت في دلال:

– انت لازم تتعالج والنعمة.. وبالكهربة كمان.

– مقبولة منك يا ستي! على العموم الشتيمة بتلف تلف لغاية لما ترول

وتتبرم! على كل حال.. أنا كنت بقول إيه.. أه ليس بين الجنون والعبقرية سوى خيط رفيع، كما قال البحبحاني.

– ده مصيبة أحسن تكون كمان شايف نفسك عبقري.

اتسم وجهه بالجدية وغمغم:

– الناس بيستغربوني أنا عارف، ويتكلموا من ورا ضهري.. بس لما بعزف بيفهموا.

يصفونه بالعفوية وغرابة الأطوار. حياته ليست منظمة، ويتبع غريزته في معظم الأوقات. لا يعاشر الناس وهم يتفادونه، طبعه متقلب مثل "مايلز". لم يعر "مايلز" أي شيء اهتماماً حقيقياً غير فنه، تابعاً نداء ملحاً برغبة في التطوير، حتى وصل به الأمر أنه راح حتى يطهو ويلحن في الوقت نفسه، بل يقال إنه تعلم البيانو خصيصاً ليحسن من أدائه على "الترامبيت".

ولكنه انخرط في المخدرات مثل "كولترين" و"باركر". ولا يقدر وزن أي منهم بالذهب، بيد ما قدموه لـ"البي بوب" والموسيقى كافة. كانت المخدرات مصدر إلهامهم ودمارهم، ولكنهم عبروا أظلم قاعات الروح ليرجعوا منها بأنقى وأخلص "سيمفونيات" لنور العالم. لا فن بدون آلام.

– والله ما أنا فاهماك، زي "الجاز" المعقد بتاعك!

"الجاز"، لا يقدره إلا قليلون. إنه الفوضى المنظمة، لذلك يتناسب مع إيقاع القاهرة، تلك المدينة الصاخبة التي بغضها منذ أن خطى بأقدامه فوق شوارعها العريضة، الثمن الذي توجب عليه دفعه.

يدعونه عازفون كثيرون شادي "كيوس"، أي "فوضى"، لأن عزفه

يتسم بالصخب. هذا ما قالوه عن "باركر" لما قدم "البي بوب"، واتهموه أنه يعزف خطئاً، مع أن مقطوعاته لا تقل عبقرية عن مقطوعات "موتزارت" و"بيتهوفن"، وستدوم مثلهم إلى الأبد.

الموسيقى أسمى ما في الوجود، لو استمع البشر فقط إليها لصاروا أفضل. فهى منبع الإدراك والتعاطف.. لما يستمع إلى الموسيقى يتغير العالم، ويصبح له معنى..

لما يعتلي المسرح يصير كل شيء أخر هباء. في حياته العادية هو نكرة، لا يلحظه أحد، لكن لما يضع شفتيه فوق مبسم بوقه الذهبي.. يتحول لكائن أخر.. والبوق مصدر قوته، كأحد الأبطال الغامضين.

مطت لبنى ساقيها مثل قطة، وأسندت وجنتها اليسرى على كف يدها، بينما وضعت الآخرى بين فخذيها. أخذ الدخان يجتمع حول ضوء الكشاف الصغير فوق البار.

لا تنقصه الموهبة. عليه فقط الغوص في أعماقه، ليستخرج اللحن الذي يكمن بداخل كل عازف ولم يكتشفه بعد.. ولولا توفيق الذي يبدي اعتراضه على كل ما يخرج عن المألوف، لكان أعطى للفرقة شكلاً تجريبياً أكثر.. ولكنهما يصطدمان ببعضهما باستمرار، وحتى الأن يتوسط خالد وفاروق بينهما. لم تواته الشجاعة بعد، ولا الرغبة أن يفارقهم. رغم عدائه مع توفيق إلا أنهما يستفزان ويتحدان بعضهما، وهذا في صالح الموسيقى. قال "مايلز" إنه لا يستطيع التعامل مع العازف المرتاح، فهو ليس لديه دافع. ولكن هيهات أن يساوم، إذا اشتد بينهما الصراع سيغادر، وربما

يكون ذلك هو الأفضل على كل حال. حين ذاك سيقدم مقطوعاته بكامل إرادته دون تدخل أحد.

يراوده حلم كل عازف أنه سيتم اكتشافه يوماً ما، فيجول العالم ويعزف في "الكرنيجي هول" أمام نخبة الفن التب ستستمع إليه كاتمة الأنفاس وتقدم له "ستانديج أوفاتين"..

يدّعي النقاد أن كل نوتات الجاز تم عزفها من قبل، لكنه سيثبت أنهم مخطئين!

إنه يحلم بإجادة لحن خالد، لحناً يرفعه في مرتبة العظماء مثل "مايلز" و"كولترين". لكن من هو ليقارن نفسه بهما؟

لا يصيب الجمهور إلا نفحة، مما يوحيه لهم سمعهم على كل حال. مقطوعاته معقدة ويلتبس على الهاوي فهمها، فلا يدرك منها إلا شظايا ولا يستوعبها كلياً.

تساوره أحياناً الوسوسة، فيخيل إليه أن عليه تبسيط مقطوعاته كي يتفهمها الجمهور..

– يا عالم الفضاء! يا سعادة المستشار الفلكي! ممكن تنزل الأرض معانا شوية؟

ابتسم لها وأدرك أنه شرد.

– ما أنا معاك أه.. أنت بس تقشر وأنا آكل على طول.

– يخرب بيتك! أيه اللي أنت بتقوله ده؟ قولي في مكان فوق كوكبك لحاجة تانية غير الموسيقى؟

نفث دخان السيجارة بعيداً، فقالت:

– ياه.. للدرجة دي.

– أنا صعب! ولكني عمري ما وعدت حد بحاجة ما قدرتش أوفيها!

– علشان كده بتاخدها من قصيرها وبتطفش الناس من الأول.

اقترب منهما النادل وهمس لشادي بأدب:

– أبو شادي، عاوزين نقفل الدكانة.

نظر في ساعته وصاح:

– يا نهار أسود، الساعة أربعة الفجر.

رمقته بهدوء. ليست عندها أي مشكلة أن تقضي الليل كله خارج منزلها.

بدا غير متأكد ما يتوجب عليه فعله، فقالت بنفاد الصبر:

– قوم يا حبيبي! والله أنا بضيع وقتي معاك.

أوصلها لسيارتها وتمتم مواسياً:

– ما تخديش كلامي جد! أنت عرفاني!

ردت وهي تشغل موتور السيارة:

– ما هي دي المشكلة.. نفسي أخدك جد ولو مرة!

4

استيقظ اليوم التالي، أو بالأحرى بعد بضع ساعات، شاعراً بصداع رهيب.

تناول "أسبرين"، وتوجه إلى المرحاض، والصداع على وشك شطر رأسه إلى نصفين.

قضى حاجته وغلبه النعاس، فلم يدرك كم من الوقت مر عليه وهو ماكث هكذا.. وعندما طل إلى الساعة، كانت قد تجاوزت التاسعة، أي التوقيت الذي يتوجب عليه أن يكون جالساً خلف مكتبه.

نهض فزعاً، وسب بصوت عال. استبدل ملابسه على عجل. فتح باب الثلاجة وتناول رشفة كبيرة من الحليب، ثم وثب أدراج المنزل شاعراً مع كل وثبة أن رأسه تصطدم بحائط..

وكأن لا ينقصه التأخير وجد الشوارع مزدحمة، راح يلعن ويسب السائقين حوله، حتى وصل إلى مقر عمله. توجه مترقباً إلى مكتبه. لحظه زميله فهمس له:

- شادي.. يخرب بيتك.. المدير هيفشخك!

دس زر الكمبيوتر ليشغله وجلس يسترجع أنفاسه. اجتاحته رغبة جامحة في النوم والكمبيوتر ينهض ببطء. تثاءب ملياً.

- شادي!

طلت رأس مديره من باب مكتبه أخر الطرقة. أشار إليه بسبابته.

- يادي النيلة!

رمق زميله متوقعاً المتاعب. ثم نهض والصداع لا يفارقه، مازال الكحول يسير في دمه، قرّب ظهر يده من فمه ليتبين إذا كانت رائحة الخمر تفوح منه.

قبع مديره خلف مكتبه وحدق فيه بعينين ناويتين على شر. أشار إليه بالجلوس. استدار ليغلق الباب، منتهزاً الفرصة ليصطنع الجدية على وجهه إذ انتابته فجأة رغبة ملحة في الضحك.

- دي المرة التانية اللي تتأخر فيها الأسبوع ده يا أستاذ! إحنا هنا في شركة محترمة، مش خمارة، وبعدين..

رمقه مديره مشمئزاً.

- منظرك يا أفندي!

لاحظ أن قميصه مكرمشاً، ورباط عنقه ليس سوياً ولا ممشوقاً.

– ده آخر تحذير! أرجو نكون فاهمين بعض كويس.. اتفضل على مكتبك!

ترنح إلى مكتبه، سأله زميله بتلهف:

– عملت إيه؟

– ابن الصرمة!

قهقه زميله. فقام واتجه إلى الخارج.

– رايح فين يا بني؟

– هشرب لي سيجارة.

توجه إلى المطبخ، كان في حاجة إلى كوب من الشاي وسيجارة الصباح.

– عم علي.. كباية شاي من إيديك الحلوين المقشفين دول.. بس انجز وحياة أبوك!

نهض عم علي الفراش وهو يتمتم متعكراً بلهجته الصعيدية التي لا يفهمها غيره. رمق زميلتين من قسم التسويق يتبادلان الحديث في المطبخ.

– أموت في "الماركيتينج"!

لم يستجيبا، فأردف:

– إيه؟ مفيش "جود مورنينج" حتى؟ ده السلام محبة.

ابتسم لهما ابتسامته العريضة فصاحت إحداهما:

- عم "علي".. هات لنا الشاي على المكتب!

حدقت فيه وتبعتها زميلتها إلى الخارج. رجع بكوب الشاي متمتماً:

- يأخي بيتّنكوا على إيه بتوع التسويق دول؟

- هببت إيه تاني؟

- بنات الهرمة.. بصّبح عليهم بكل أدب واحترام، وما بيردوش السلام، مش ده حرام بالذمة؟

- طب هدي نفسك! والنبي اعمل إنك بتشتغل علشان المدير شكله نويلك انهارده.

- أبو أمه!

راح يتلقى مكالمات العاملين، يسألونه أسئلة مستفزة لعدم قدرتهم تشغيل الخدمة بغبائهم الفطري، فينفر ويستنفر منهم، يود لو كان يقدر على سبهم جهراً وإغلاق السماعة في وجوههم.

إثر مكالمة نفذ صبره ورزع السماعة، فانتفض زميله مفزوعاً.

- إيه يابني؟

- ولاد جزمة!

- أنت هتفضل تسب وتلعن كده طول اليوم؟

- ناس بنت...

حملق فيه زميل آخر متجهماً، فهمس له زميله:

- لم الدور أحسن يشتكيك!

رن تليفونه مجدداً، فضغط على زر وأسكته.

- بتعمل إيه يا مجنون؟

ملعون أبو الشغل!

أدار موقع "جوجل" وتصفح نغمات لمقطوعات "جاز" كلاسيكية، حاول أن يحفظ بدايتها. يستطيع أن يدمجها في عزفه ويقتبس منها نغمات.

- شادي.. أبوس إيدك رد على التليفون.

لمح المدير في الردهة، فضغط على الزر ليرجع رنة التليفون.

- مركز خدمة.. شادي.. مع حضرتك..

5

أفرغوا للتو من التسجيل. وراحوا يلملمون أغراضهم.

رمقه توفيق في فضول وهو يلف سلك "الميكسر" حول مرفقه، ثم سأله بابتسامة ماكرة:

– هو أنت ولبنى إيه النظام؟

رد متأففاً:

– صباح الخير يا جاري، خليك في حالك وأنا في حالي.

-- يا بني هو السؤال حرم؟ على العموم براحتك!

– إحنا أصحاب يا عم، ارتحت؟

– على العموم هي بنت كويسة!

- هو أنا قلتلك إنها بنت كلب؟

- وبتمر بمرحلة صعبة..

حتى الأن علاقتهما لا تتعدى الصداقة، بقدرته الإفلات منها متى شاء.

اقترحت عليه البارحة أن يسافرا معاً الجمعة المقبلة إلى الأسكندرية لحضور حفل للعازف التونسي "ظافر يوسف"، وبعد ما وافق، ترقب سفرهما مهموماً، وكأنه حمل حل عليه.

انشغل توفيق بجمع أغرضه، فالتفت إليه سائلاً:

- مش عاوز تطلع الأسكندرية؟

6

تطايرت خصلة على وجنتيها، واربتها برفق خلف أذنها.

تطلعت إلى الطريق بعينين حالمتين..

أدار اسطوانة "كايند أوف بلو"، ألبومه المفضل لـ"مايلز". عادة لا يستمع إليه إلا لما يكون في مزاج "ميلانكولي". ولا يدري لماذا أداره الأن. رنت نغمات مقطوعة "بلو إن جرين" برقة ناعمة. كم هي النغمات صافية وحزينة! كم توحي بتغيير الأشياء والتحامها دون دراية، كأن الأزرق لا يدرك ما ينتابه وهو يتحول لا محالة. نغمة تعبر عن خريف زائل وتحول الأزرق القابع في الأخضر، قبل أن يمتزج لأصفر متطلعاً إلى الخروج كلحن كامن بداخل عازف.

يهوى التطلع للعنوان الذي أطلقه العازف على مقطوعته، ليتخيل ما كان يتأمله أثناء تلحينه. اللحن قصة مرهونة بخيال المستمع، ولا حدود لخياله وخيال العازف.

كان يجلس في شقته في يوم خريفي باهت، لما جاءته صورة لمجموعة بط سابحة في بحيرة راكدة، متحامية ببعضها البعض، الكبار يقودون المسيرة، ويتبعهم الصغار.. ابتكر المقطوعة وفي خياله تلك الصورة، فأطلق عليها "دموع البط"، لما تخيل بطة صغيرة تبكي وتذرف دموعاً وهي تلحق بالمجموعة..

كم يبغض الفكرة أن يلهيه شيء عن الموسيقى. الناس تهمل مرادها بمطاردة ملهيات فارغة..

ولكن ها هي جالسة بجانبه، لا تطلب منه شيئاً، ولا تفرض عليه قيوداً، حتى الأن.

تملى وجهها صافي الملامح.. راح موضوعهما يأخذ طابع الجد..

لم يرتبط من قبل، له نزوات عابرة..

– مش عوايدك؟ ساكت ليه؟

– دنيا!

ابتسمت، فبدت جميلة، وتحرك شيء داخله.

– والنبي إيه. العيال تعبينك؟

رفع لها حاجبيه في عبث:

– طالعين لأمهم، مغّلبني.

ضحكت وشعر بأنه ينخرط معها أعمق.. بقدره الانسحاب أي وقت إذا أراد.

– والله ما أنا فهماك!

– قلتلك، أنا عبارة غامضة، ما تتعبيش نفسك!

– عبارة إيه؟ كيميا؟

– وهو في أحلى من الكيمي كمي كا!

– ما هي اللي لحست دماغك!

– أحبك يا سلساموني!

شعر بالارتباك. يجيد إخفاء مشاعره، حتى أنه أحياناً يستغرب كيف تواتيه القدرة. بقدره أن يصطنع ابتسامة بلهاء على وجهه أي وقت شاء، حتى ولو شعر أنه "كلب بلدي"، كل ما يحتاجه هو البوق.

برد الطقس وهم على مشارف الأسكندرية. كانت الشوارع خالية وساكنة بغرابة، ولسبب ما تقوقعت الناس في بيوتها.

– هي الدنيا فاضية كده ليه؟

– يا ابني انهارده ماتش الأهلي والزمالك.

رمقته بابتسامة متسامحة، كمن ألف أخطاء الأطفال. هكذا يغرم المرء، تفكر. لما يكتشف ضعف الأخر.

وصلا قبل الحفل بساعة. اشتريا سندوتشات وتوجها إلى بقعة هادئة

على البحر. أدار موسيقى فرقة "إسكندريلا" وشاهدا أمواج البحر تمتطي أحصنة مائية من الزبد تعلو وتغرق على نغمات "سيد درويش" الذي أوحى له خياله يوماً أن البحر يضحك. ارتسمت ابتسامة حبور على وجهها بينما تجهم هو، سامحاً لنفسه بنزع قناعه وهلة، دون أن تلحظ. لا يكون صادقاً مع نفسه إلا وهو يعزف، لذلك يدخر تلك اللحظات بتقشف.

اجتاحته رغبة قوية في تدخين "جوينت"، أعده ووضعه صباحاً في درج العربية. خطر بباله أن يستأذنها، لكنه سيعكر مزاجها. إنها تبغض الدخان الأزرق.. سيدخنه قبل الحفل.

طلت بعينيها خارج النافذة وداعبت خصلة بسبابتها. ترى ماذا يجول بخاطرها؟

راودته غبطة وراحة بال أقلقاه، إحساس قادر على توليد نفسه بنفسه. زفر كما تزفر الأمواج.

يحن الإسكندراني دائماً إلى البحر.

أدار السيارة وتحركت الساحة وبقت الأفكار. بيوت الأسكندرية مسطحة ومنظمة على نقيض مكعبات القاهرة المهدجة.

رنا إلى لبنى بنظرة فاحصة. تبين إذا ما زالت جميلة. منذ أن قاما بالرحلة وهي متغيرة، منغلقة على نفسها وشاردة هي الأخرى.

أيحكي لها عن منشأه في العزازية؟ أو عن والديه وأخته الذين مازالوا يعيشون هناك؟

لا يستطيع اصطحابها، ولا طاقة له لإشباع فضول أمه والإجابة باستفاضة على أسئلتها الامنتهية عن أحواله في القاهرة. ولا يطيق نظرات التأنيب لوالده أثناء الدقائق المعدودة التي يقضيها بجواره.. باتت صحته تتدهور باستمرار، ويتوقع لما تظهر شاشة الهاتف اسم أخيه أنه يتكلم ليسقيه النبأ المعتم، فيتصور رد فعله حين ذاك.

أندم سيزيحه بالتيكيلا؟

كل عازف يضطر مغادرة دياره للانطلاق إلى الدنيا الواسعة ليحقق طموحه وأحلامه.

تذكر رجوعه مرة البيت مخموراً وملاحظة والده لعدم اتزانه. ولما تأكد أنه مخمور اندلع صياحه وبات على مسمع آخر الشارع، أيقظ البيت كله، ولما جاءت أمه للنجدة صاح فيها:

- إبنك يا هانم سكران.. استغفر الله العظيم.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. مش قلتلك إنه مش نافع.. أنا عملت إيه في دنيتي بس يا ربي!

كان مشهداً وكأنه متخذ من فيلم عربي أبيض واسود، حيث يطرد الأب الابن لينخرط أكثر في عالم الصياعة والرذيلة. شرعت الأم الغلبانة في تهدءته وراحت تربت على كتفه.

- معلش يا خويا.. ما تعملش في نفسك كده.. أنت عندك الضغط.. هو مش هيعمل كده تاني.. روح اتوضى يا شادي!

- هو ده ينفعله وضوء؟

- اهدى بس لحسن يحصلك حاجة.

– ربنا يا خدني علشان ترتاحوا مني!

لم يرجع بعدها البيت مخموراً أبداً. إذ اقتضى به الأمر، كان يقضي الليلة عند أصدقائه أو يرجع البيت بعد ما يزول أثر الكحول.

راحا إلى "سيلانترو" بجانب المكتبة. اجتاحه صخب المكان وتطلع باستغراب إلى رواده الصغار. كانوا جيلاً غير جيله، بنات وولاد يحتسون المشروبات المثلجة والساخنة، منتهزين الفرصة ليعوضوا كبتهم الجنسي، فيبرزون فكاهاتهم ويضحكون ويتغازلون، قبل أن يرجعوا لعزلتهم الاجتماعية.. اجتنت قهوة ثم اصطفا مع مجموعة صغيرة أمام المدخل. أحس بثغرة تكمن بينه وبينها، إنهما على وشك اجتياز منطقة غائرة نشأت منذ قيامهما بالرحلة.

لم يتعد حضور الزائرين العشرات لتزامن الحفل مع المباراة.

– فضيحة! "ظافر يوسف" في مصر والصالة فاضية.

– اسبقيني انتي.. أنا جاي على طول.

رمقته بتأفف، فأضاف بضيق:

– هروح الحمام!

انطلق إلى المرحاض في الدور الثالث. كان الطابق خالياً. أخرج "الجوينت" المنتظر وأشعله بلهفة. تناول أنفاساً على عجل. كان في حاجة ماسة له، لكنه لم يبد أي مفعول. لم تتغيب ظلال الواقع الثقيلة. تخلص من "الجوينت" في التواليت بضيق، ووهو خارج اصطدم بعاطف.

– شادي. أنت هنا؟ بتعمل إيه؟ جاي برضو علشان "ظافر يوسف"؟

- لأ. جي علشان الحمام.

لا يجيد الانسجام معه. إنه من النوع الصامت الذي يختزن ما بداخله ولا يستخرجه إلا نادراً.

تفكر أن يدعوه للانضمام إليهما، ولكنه سيضطر لملازمته طوال الوقت.

- أشوفك!

في القاعة شغلت نصف مقاعد الطابق الأرضي. كانت المقاعد ضيقة للغاية.

- بالذمة دي صالة يعملوا فيها حفلة.. آخرها مسرحيات وندوات شعر.

تشممته وبدت نافرة. لما تتصرف هكذا؟ ليس ملزماً بتبرير أفعاله لها!

انحشرت ساقيه الطويلة بين الكراسي، فازداد غيظه.

انطفأت الأنوار. وظهر أربعة رجال على المسرح. لم يتعرف عليه على الفور. كان يرتدي قبعة..

وبعد ما انقضى التصفيق، عزف نغمات ناعمة على العود.. لم يتسم عزفه بالسرعة ولا بمماطلة الأوتار مثل "نصير شمة"، كان يتعامل مع العود كأنه جيتار، يرّكز على نغمة ويعيد تكرارها ليبرز إيقاعها.

شاركه عازف "البيس" و"البركيشين" و"البيانو"، حتي صار للحن شكلاً ملموساً. رن عزفهم بسيطاً، وأغلق المغني عينيه، متمايلاً بجسده مع

الموسيقى، مطلقاً نداءات متقطعة، فتفعمت الحياة على المسرح واندلعوا في عزف مشترك وغاص كل منهم في تكوينه.

أومأ الرجل ذو القبعة برأسه بعنف، كأنه يؤكد على ثبات شيء.. ثم رفع ذراعه الأيمن إلى أعلى وفرد سبابته. أطلق من حنجرته أنيناً "سوبرانو" ملموساً، كأن روحه تتمزق.. تابعه رفاقه بنغمات تبدو عفوية، وهي ليست كذلك..

تلا عزفهم تصفيقاً متواضعاً نظراً لعدد المستمعين..

أول حفل له كان في مدرسة "الجيزويت". لم يتجاوز عدد الحاضرين العشرات أيضاً، و لم يأت أحدً من عائلته، ولا إخواته..

رمقته لبنى برقة كأنها سامحته.

دوى صوته مجلجلاً:

– فاقتلوني...

تلاه ابتهال غامض ونغمات قصيرة المدى.

– وأحرقوني.. بعظامي الفاااانيات..

قيل إن "الحلاج" كان يرقص في طريقه إلى المحرقة..

خفت النور وبدا المشهد غامضاً، مجموعة تمارس طقوساً دينية ممنوعة..

استغرق كل منهم في عزفه، كل عازف في عالمه، انحنوا بوجوه متحجرة فوق آلاتهم الساحرة، كل منهم لن يعود إلى العالم كما كان من قبل..

حملت الموسيقى سكينة المبتهل الصوفي.. نغمات تتلاشى كشلالات مياه متهدجة، تنعطف ببطء من مصدرها الأساسي، متجمعة كقطرات من الماء ملتحمة ببعضها وسارية في دروب غامضة.

تفجر صوته..

- فاقتلوني.. وأحرقوني... بعظامي الفاااانيات. أهههههههه!

دوى صريخه عويلاً منسجماً لشخص يحترق.

ودق "بركيشين" يشهد بهول تحوله. تجسم الصوت وتراخت الموسيقى، ثم راح يختم وكأنها سورة.

- ثم مروا برفاتي في القبور الدارسات..

انطفأ صوته كشعلة، وهوى متقطعاً في الفضاء.

- صوته فظيع!

..

كانوا متوترين وهم يعزفون نغمات غير واثقين منها. ابتل عرقاً، فهو لم يعزف أمام جمهور حقيقي في حياته. وضع المنفخ على فمه وأصدر صوتاً استعصى عليه فهمه..

..

تحدث "ظافر يوسف" بالعربية في الميكروفون:

- المقطوعة القادمة اسمها خمسة.. وهي مهداة لشاعر عربي مجنون.. "أبو نواس". ربتت على ذراعه.

- أنت كويس؟

..

رمقه غير مصدق في الصف الأول.. حام الذهول وعدم التفهم على وجه والده، كغريب لا ينتمي إلى هذا المكان. تجمد فوق المسرح ولامس آلته بغرابة غير معهودة وتعثر. ظنه طوال الوقت لا يأبه.

أطلع الساكسوفون على شفتيه، كانت باردة، وعزف طويلاً له. وبكى دون أن يذرف دموعاً. تفادى النظر ناحيته طوال الحفل، و لم يلتفت إلى مقعده إلا عندما تأكد من رحيله.

لم يتطرقا للحادث أبداً، كأن لم يحدث، وتشكك فيما بعد في وقوعه، قائلاً لنفسه إنه ربما كان أحد يشبهه..

..

دأب لحناً جديداً..

انطلق عازف البيانو من اللحن نفسه، منفرداً به مكملاً، وأعطاه العود الثبات، فتطور عزفهما لحوار. العود يبسط الطريق كي ينطلق البيانو الذي يدور ويطوف حوله. ثم يرجع البيانو لعزفه الأصلي ويختصر اللحن في ثلاثة نغمات، فيما يستفيض العود بإيحاؤه.

توهجت وهدأت النغمة، فتنهد عازف العود وهمهم كلمات بلا معنى.. اشتد نحيبه، وصعد وهبط سلم الموسيقى بصوته.

زلزل القاعة بصرخات رفيعة لإمرأة تونسية تولول..

ارتفعت طبقات صوته حتى صارت لا تحتمل.. كان متحكماً في صوته لأقصى درجة كآلة يعليها ويخفضها كما يشاء. وتفجرت مفاتيح البيانو بجنون، مرتطمة بعنف مع الأوتار.

التفت لها.. كانت مستغرقة في الاستماع..

7

التحم العجل بالأسفلت، وتواربت السيارة يميناً ويساراً حتى تملك من اعتدالها.

دس بنزين.

إذا لم يتخذ القرار الآن، سيجد نفسه خارج البوابة.

مرقته سيارة سبقته. بقدرته الرجوع.

..

يستطيع أن يرجع الأسبوع القادم، لا يوجد أمامه خيار غير ذلك.

كانت الشوارع هادئة بطريقة مخيفة، الناس تتابع المباراة في بيوتها، والصيحات تعلو من حين لأخر في المقاهي.

أغلقت لبنى عينيها وارتعش جسدها من البرد. أخذ نفساً أخيراً من السيجارة وأغلق النافذة. علا فجأة صياح خفي من داخل مبنى مظلم..

– شادي..

انهالت الصفعة على وجنته دون أن يراها. حدق فيه أبوه بذهول، كأنه استعجب مما فعله للتو... ثم ابتعد.

بعدها حزّم أمتعه وانتقل إلى القاهرة..

..

ظهر على بعد مائة متر أمامه كلب بلدي يعبر الشارع بتمهل. لم يدس فرامل. ظنه سيكون مر لما يقترب. لكن الكلب تسمّر منتصف الطريق، وحدق تجاهه مثل ذئب يرصد ذئباً أخر..

سيستأنف سيره حتماً.. اقتربت السيارة.. ولبنى مستلقية في سلام.

تمتم: إوعى!

حدق فيه الكلب بعينين لامعتين.. تراءت له صورة ارتطامه في الهواء ونسفه.

كانت عيناي الكلب صفراوين وملتهبتين. تهدج نذير في رأسه..

أصدرت الفرامل عويلاً شديداً، كأن أحداً يغرز أظافره في الأسفلت..

انتفضت لبنى فزعة وصرخت.. دارت السيارة نصف دائرة..

تحرك الكلب أخيراً، غير مدرك بالخطر الذي أحاطه، توقف على جانب الطريق ولسانه متدلى وعيناه تشعان بالخجل.

حدق فيه بقلب واجف ثم صرخ حانقاً:

– يا ابن الكلب!

– شادي.. إيه اللي أنت بتعمله ده؟

أدار الكلب ظهره، وفكّر أن يخرج ليأدبه. رمقته لبنى غير مصدقة، أشار تجاه الكلب مستاءً:

– مش شايفة عمل إيه؟

داس البنزين وارتطم جسدها بالمسند. تسارع نبضه وأصدر العجل صريراً. رمق الملف على يساره، بينما تمدد الطريق طليقاً أمامه.

إذا أراد الالتفاء عليه الالتفاء الأن!

تقطعت أفكاره كمقطوعة "جاز" غير مكتملة، غير مجهزة للاستيعاب. تراءت له صورة أبيه وهو يسعل في فراشه، إنها الصورة التي تطارده منذ أن دأب الطريق.

وأصدر العجل عويلاً حاداً..

8

أخذ يدها ليرتقيا السلمتين المكسورتين..

وجدها مطيعة. أحس فجأة بالامتنان لوجودها. قبل أن يطرق الباب التفت إليها ليتبين إذ كانت مستعدة.. لم يكن هو.

طرق الباب ثلاث مرات متتالية. تعرفه أمه دائماً من طرقته. أتاه صوتها المفزوع.

– مين؟

دائماً تتوقع مصيبة.. دائماً تقلق. لا بد إنها ترمي الطرحة الأن فوق رأسها في عجل.

– شادي يا ماما!

سمع شهقة، ورددت اسمه في لهف. فتحت الباب واحتضنته كأنه الفرج. انبعث منها رائحة أمومة حنونة.. ظلت تحملق فيه وتحمل وجهه بين يديها، تتأكد أنه هو بالفعل. ثم ما لبثت أن لحظت لبنى وبدا على وجهها الحيرة. رجعت له بعينيها.

- دي لبنى يا ماما.. زميلتي.

- أهلاً يا بنتي..اتفضلوا.

قالتها بنبرة حزينة لم تفوته. ستظنها إحدى الفتيات اللاتي يتسكع معهن.

بدت الشقة أصغر مما تذكر، كقطعة ثياب لم تعد تتناسب مع نموه.

جلسوا في الصالون فوق الكنبة التي كان يتسلقها في صغره.

سأل أمه متأهباً:

- أمال فين الحاج؟

تبددت الفرحة في عينيها وردت:

- راقد جوه يا عيني!

نطقت "يا عيني" بشفقة. دائماً كانت تطلب منه أن "يحن" عليه، وثمة قوة ما تمنعه.

- هيفرح أوي لما يشوفك.. ربنا يهديك ويصلح حالك!

دائماً تدعو له أن يصلح الله حاله.

نهض متردداً. أسيسّر حقاً لرؤيته؟

اقتادته أمه من يده. همست بفضول في الطرقة:

– مين دي؟

– بعدين!

دفعت الباب الموارب وأشعلت النور.

– شوف يا حاج مين هنا!

التفت إليهما كهل شاحب، حرك رأسه بجهد، وقاوم بداية النور كساكن كهف. لم يبد أي حركة عندما تلاقت عيناهما، لا اندهاش ولا سرور. ساءت حالته بشكل ملحوظ. انتظر رد فعله واعترته رغبة في الاندفاع نحوه وتقبيله... لم يتحرك إلا لما مد له والده ذراعه أخيراً، فاندفع نحوه بلهفة.

قال وهو يغالب الدموع:

– إيه يا حاج؟.. إيه الدلع اللي أنت فيه ده؟ هي ماما اللي مدلعاك.. أنت ما شفتش "المتش" ولا إيه؟

ظهرت أخته عند الباب. أدرك أنها تبكي دون أن ينظر إليها.

أومأ والده برأسه في تثاقل. التمس رأسه وربت على وجنتيه.. لم ينطق.

– مالك يا بابا؟

نظر إلى أمه في ارتباك.

– في إيه؟ بابا.. أنت كويس؟

خرجت الكلمات متحشرجة.

- الحمد الله.

زفرت عيناه بالدموع دون أن يعبأ الآن.

لماذا لم يبلغوه؟ أفقدوا الأمل فيه لهذه الدرجة؟ أليس جديراً بالعلم؟

رمق أمه وأخته بغضب. ظل يحمل يد والده، ليبث العافية في روحه.

لم تسعفه المزيد من الكلمات. كانت يد أبيه ناشفة. ظل حاملها حتى تذكر لبنى.

نهض وتشمم رائحة الأدوية التي ملأت الغرفة، رمق أخته في استنكار وأمرها بفتح النافذة.

اتجه إلى الصالة ليبلغ لبنى أنه لن يرافقها إلى القاهرة. أراد إعطاءها مفاتيح سيارته، ولكنها قالت حائرة.

- أنا معرفش الطريق.

- خلاص. هوصلك المحطة.

- محطة إيه يا شادي؟ القطر زمانه مشي من زمان.

تبعته أخته من الغرفة.

نظر إلى ساعته. كانت تخطت الحادية عشرة.

بدت لبنى مذعورة، فباغتت أخته لتطمئنها.

- هفرشلك في غرفة شادي.. ما تقلقيش.. وسيادتك هتنام هنا في الصالة.

خاطبته بنبرة من يخاطب أخاً صغيراً، ليداري عن عملة ارتكبها.

أتتقبل أمه هذا الوضع؟ ووالده؟

نظر إلى لبنى. كانت مستاءة، وتخيلها ستقطع علاقتها معه لما توصل القاهرة.

خاطبته بعتاب لما اختلت معه بالصالة.

– ما قلتليش ليه إن باباك عيان؟ أنا ما كنتش أعرف إنك من الأسكندرية أصلاً.

هرش رأسه كما يفعل، لما لا يدري كيف يواجه العالم من غير بوقه.

لم تمنحهما أخته دقيقتين من الانفراد، اقتادتها إلى غرفته.

تأمل المكان بأثاثه المألوف. كانت لوحة زيتية معلقة منذ صغره على الحائط، تظهر طفلاً بملامح أجنبية يبكي ويذرف دمعة كبيرة.

جلس على الأريكة وكفر وجهه بيديه.

ثم رجعت أخته وهمست له:

– شادي.. مين دي؟

9

أفادته أمه بأن النور صار يجهد عينيّ والده، فمكث بجواره في العتمة.

ولما أطبق أذان الفجر، صحت أمه وقالت:

– قوم صلي لك ركعتين يا حبيبي وناملك شوية!

حملق في أبيه كأنه لم يفعل ما فيه الكفاية. اللعنة على الخلافات!

أخذ حماماً دافئاً، وصلى فوق سجادة صلاة مستلقاة منذ أن كان طفلاً في غرفة المعيشة، ثم دعا بإيمان من لم يقدم على الصلاة منذ أجل.

بعث رسالة إلى زميله في القاهرة، يفيده بأنه سيتغيب عن العمل، ثم بلغ توفيق بأنه لن يتمكن من حضور التسجيل غداً.

فكر في أخيه الذي يسكن في الأسكندرية وفي أصدقاء الطفولة. لم يكن لديه أصدقاء كثيرون، وكلهم لا بد أنهم منشغلون بحياتهم وأسرهم الأن.

تفكر في لبنى، ترى أنامت أم ما زالت مستيقظة في سريره؟ لو رأها الجيران في الصباح.. لو كان والده في عافيته ما كان سمح بهذه المهزلة أبداً!

دخن سيجارة واستلقى على الأريكة. استرجع ذكرياته المنوطة بالمكان. تذكر لما كان أصغر، ويلعب مع أخيه. أحس بحمل ثقيل يقبع فوق صدره، لم يكن مرتاحاً في استلقائه، ولم يرتح لذكرياته. ظل يقظاً يغلق أبواباً في وجه ذكريات عنيدة، ولا يكاد يصد في وجهها الوصول حتى تنفتح أبواباً أخرى كرياح هبت في بيت كبير ولا يلاحق التواجد أمام كل نافذة لإغلاقها. ثم حل عليه النوم أخيراً دون أن يدركه.

10

استيقظ على طقطقة صحون وصوت قرآن خافت.

كانت والدته تعد الإفطار في المطبخ.. كم اشتاق لفولها المدمس الذي تعده في القدرة ليلاً. ليته مازال صبياً واستيقظ للتو في بيته. ظل راقداً ولحت عليه الاختيارات المعقدة. لابد أن لبنى استيقظت هي الأخرى ولا تجرؤ على النهوض.. كيف بررت غيابها لوالديها؟

تناولوا الفطار على مائدة السفرة الضيقة، بدا على لبنى الإحراج وهي تغمس بأناملها في الفول المزيت.. حتماً ليست معتادة هذا الفطار البلدي.

أدت دوراً ليست واثقة منه. حثها بنظرة كي تلم حاجتها، قبلت أمه وأخته وداعاً وتوجها إلى المحطة.. سألته في السيارة عن حالة والده.

تفحصها ليتبين إن كانت حقاً معتنية.

– مش كويس!

– هتنقلوه المستشفى؟

– مش عارفين لسا!

شعر بقلبه ينقبض.

– سريرك كان مريح أوي على فكرة!

ابتسمت له ابتسامة متسامحة، فبادلها بامتنان.

– كان نفسي أتعرف أكثر على أمك وأختك.. شكلهم طيبين أوي! أمال أنت طالع لمين؟

..

زحف القطار نافثاً دخاناً متهدجاً، ككهل يلهث ويرتجف بعد مشقة الطريق.

– ربنا معاكم!

ربتت على كتفه ووثبت لداخل القطار..

رجح أنه لا جدوى من أن ينتظرها تلوح له بيدها خلف الزجاج.

اتجه إلى الخارج وواسى نفسه بأنها ستكون في انتظاره لدى رجوعه، ولكن تلاشى الشعور بمجرد عبوره الشارع.

قاد بتمهل والبحر يسوق أمامه الأمواج. حلقت حمامة وحيدة في السماء تشقه في شكل "زيج زاج". تسافر الطيور دائماً بدون حقائب..

أدار مقطوعة "فلامنكو سكيتشيز" لـ"مايلز".. وبدت له حياته بأجمعها عبارة عن مقطوعة "جاز" حزينة.

11

خلدت الحجرة في العتمة كوجه عتيق، يحفظ ملامحه بالتلامس.

في صغره اعتاد التسلل إلى غرفة والديه بكرته البلاستيك، ليدفعها ضد الحائط ويرتمي فوق السرير المجاور ليصيبها برأسه. وذات مرة ارتمى بعنف فتحّطم لوح الخشب أسفله.

عثر في علبة السمنة الخالية التي يحتفظ فيها والده بالأدوات المنزلية في المطبخ على قطعة حبل لفها حول اللوح المحطم، ظن أنه سيفلت بجريمته. لكن استدعاه والده اليوم المقبل وأزاح بمرارة المرتبة الثقيلة ليريه فعلته. لم يضربه و لم يزعق، فقد أراده أن يعرف خيبة أمله.

لم تكن تلك المرة الوحيدة الذي خيب ظنه فيها، هناك مرات كثيرة لا لها أول ولا آخر، مثل لما أمسكه مدرس الحساب متلبساً مع رفاقه في

مرحاض المدرسة يدخنون "البانجو"، أو لما تعارك مع ابن الجيران وسبه بالأب فجاءتهم جارتهم واشتكته لوالده، أولما سقط في الثانوية العامة ولما قرر أن يصبح عازفاً..

وارب باب الغرفة، وجده نائماً.

اقترب منه وتمعن وجهه الحجري. كان الجلد ممشوطاً وانحفرت التجاعيد كدلالات الألم.

هو الأب الأن ووالده الطفل.. ترى لو تكلم، ماذا قال؟

رقدت قبضته المعضمة على الملاءة وبرزت عروقها وعظامها. مسها بأطرافه وفرد أناملها. كيف تسنى لها يوماً أن تنهال عليه؟

في العصر زارهم أخوه، تناولوا الغداء معاً في السفرة كأسرة مكتملة. عاتبهم لأنهم أخفوا الأمر عنه. لم يعلقوا. لم يبادروا بأنه تخلى عنهم منذ زمن، بعدما قلت زيارته وتباعدت مرة بعد مرة. لم يتطرق أحدهم بأنه هو المسئول عن شيخوخة والده لتحسره عليه. أشفقوا عليه وتناولوا غداءهم في صمت، محتفظين بخواطرهم لأنفسهم.

عاهد نفسه في سره بأنه سيعوضهم، لكنه تساءل إن كان فعلاً بوسعه أن يرعاه الأيام التالية. لديه ارتباطات وحفلات وتسجيل، ثم إنه حضر هنا دون "الساكسوفون".. بإمكانه التدبر والرجوع نهاية الأسبوع.

ليت باستطاعته تدخين "جوينت" ليغشى الدخان عليه أسارير هذا الواقع اليابس. "زمبوءة" مازال ساكناً وراءهم بالتأكيد. من الممكن أن يجتني منه.

تنهد.. في الظلمة تستيقظ حواس أخرى!

تردد على ذهنه لحن "أشيائي المفضلة" لـ"جون كولترين". ظل "كولترين" يعزف طوال حياته اللحن نفسه، بطريقة مختلفة كل مرة. معظم النقاد ينسبون نجاح "كايند أوف بلو" لـ"مايلز" وعازف البيانو العبقري "بيل إيفانس" الذي أضاف تأثيراته الأوروبية، لكن عبقرية "مايلز" كانت في حاجة لـ"كولترين"، رغم أنه طرده لإدمانه من قبل، فلولاه لما اكتملت أسطورة أعظم اسطوانة "جاز" في التاريخ.

تعافى "كولترين" تدريجاً واجتمعا مرة آخرى، ومع أن "كولترين" كان العازف الثاني، إلا أن نغمات الساكسوفون أكملت ما افتقرته أنغام "مايلز" و"إيفانز" المبهمة.. لم يسمع صوتاً خالصاً مثل نغماته النابعة من بقعة مازالت محتفظة بطهارتها في أعماق البشر..

اللحن دائماً يسرد قصة يود المرء تخيلها، قصة تطابق كل ما يتوق سماعه، وكل نغمة تضيف لمسة، كرسام يطبع بريشته تفاصيل دقيقة تعكس أرقى خياله ليصبح واقعاً.

السمع هو الحس الأسمى، ولو ترك المرء اللحن يتملكه لصار كل ما هو ليس عليه..

ما خلق الله الموسيقى إلا ليخاطبنا بها، لتتفتح بداخلنا مجار سامية، لم نكن ندرك أننا نمتلكها.

اللحن يتوق المرء للخلاص، وبداخل كل عازف لحن لم يعزفه بعد.

إنهم يظنونه متعجرفاً، والله يعلم أنه ليس كذلك..

يتهمونه بالامبالاة، ولو شاهدوه يذرف دموعاً لما يعزف لأدركوا..

لقد وصفوا "بيتهوفن" و"شومان" بالعجرفة وجنون العظمة، لكن لا أحد يدر غير العازف كم يتطلبه العناء كي يأت بنغمة حقيقية.. يبدو "كولترين" شديد الاكتئاب وهو يعزف، لما مرت روحه بانزلاقات حادة.

النغمة تغدو لتصبح لحناً. ليت البشر يستطيعون الاستماع للموسيقى كل يوم..

تأوه والده، فربت على يديه برفق.

– أنا جانبك يا بابا!

ثابره بعينيه ليحثه بالطمأنينة.

أين وضع سجائره؟ سيدخن في البلكونة، ويسمع موسيقى على "الأي فون".

..

استيقظت كائنات الليل لتظهر للمرء حقيقة هواجسه.

– شادي!

وارب الباب وطلت أخته بالداخل. مكثت مكانها فلم يميز ملامح وجهها في الظلمة.

– أنت كويس؟

– أيوة!

خاطب نفسه أنها أخر فرصة قبل أن يغلق الباب. ترامت إليه حركة

خفية، وألتفت نحوها. تمعن العتمة بحرص، كان هناك كائن يتحرك في خفوت.. في عا لم داخل عالمهم.

هدّأ حواسه واستغفر الله حتى عادت اللاحركة إلى الغرفة.. تجلى في تجلياته ليمر الوقت. جاء على باله ألبوم "أينجلز اند ديمونز" أي "ملائكة وشياطين" للعازف "سن رع".

أتقاضى الشيطان حقاً روحه مقابل اللحن؟

أه. أنه رهينة الظلام. الشيطان معه وهناك ملاك أيضاً في ركن ما بالغرفة، وكلاهما هامدان بلا حركة.

طالما الشيطان أقوى من الملاك. على مدار التاريخ، قوته هدامة ومحررة، شره ليس بالضرورة بغض يستحسن تجنبه. بقدر المرء أن ينتفع منه لو أتقن توجيهه.. ليس بوسعه ردعه على كل حال.. الشر ضرورة، وهذا واقع..

وصف "الجاز" أيامها بعمل الشيطان. لا يجيد فهمه إلا من تقبل غموضه. نغماته إما واضحة وبسيطة وتتوائم في انسجام وإما تتسم بالفوضى وينساب العزف في شتى الاتجاهات، فيتخيل المستمع أنه سينفجر لألف شظية. عناصره متداخلة كمحتويات حلة تغلي بكل ما يتملك الإنسان من فرحة وحزن ووحدة وخير وشر.. وإذا فتح الغطاء.. اندثرت الحياة..

نهض متعباً واتجه إلى الحوض في منتصف الطرقة، فتح الصنبور وتوضأ بالماء البارد، ثم رجع إلى الغرفة وصلى العشاء. أحس بارتياح وهو يركع على السجاد، وبعدها ظل جالساً يهم بالأدعية التي يتذكرها وحسب

نسيانها، حتى غلبه النعاس..

ملائكة وشياطين..

حاول أن يسترجع لحن المقطوعة الغريبة.. تسارعت أنفاسه بينما تنفست الغرفة ظلمتها. تنادت أصوات في رأسه وكأن الغرفة وعقله مسكونان بكائنات شبيهة. تناثرت الأرواح حوله مثل سوق تباع فيه الظلمة بالمكيال.. جلست كل روح أمام قفص من الأرواح، ولا تنادي على بضائعها..

– هيه إنت! هيه! معاك الصنف؟

تحقق مندهشاً من محدثه.

همس في ذعر:

– مين اللي بيتكلم؟

سمع زفرة طويلة. وظهر وجه أسمر ممتليء الوجنتين. هتف مذهولاً:

– "كولترين"؟

هرش "كولترين" مرفقه بشدة.

– أنا محتاج الحلاوة.

– إيه اللي جابك هنا؟

– جيت علشان نعزف.

تحمس كلياً، لكنه تذكر والده. أشار إليه في أسى.

– ما أقدرش أسيبه!

نظر "كولترين" إلى والده بنظرته المتجمدة، فأضاف معللاً:

– والدي بيموت!

– "شيت مان". اسمع، أنا محتاج الدخان البنفسجي!

– إيه ده؟

وضع "كولترين" يده أمام فمه، ورفعها بغتة.

– بو!

حدق في وجهه، فتمتمت شفتاه الغليظة ببطء:

– "هيفين".

– الجنة؟

– إنت هتتخستع؟

– لأ، صدقني. لكن لازم أقعد مع أبويه. أصل أنا كنت بعيد.

– فاكرني شيطان؟

ألقى "كولترين" كلمة "شيطان" بالأمريكية، ثم أضاف مبتسماً بالعربية:

– ما غريب إلا الشيطان!

ظهر على "كولترين" الارتباك، وراح يهرش رأسه. ثم وكأنما تذكر:

– اللحن.. يلا!

رمق والده بترقب.

– ولكن..

حدق "كولترين" فيه بغضب.

– " اللحن هو "الشيت" "مان"، فاهمني؟ "الشيت".

– أنا آسف.

– أنت فنان أنت؟ أنت بوصلة.

– بوصلة؟

– أيوه بوصلة.

راح "كولترين" يصفق بيديه ويغني بوصلة – بوصلة – بوصلة على توازن أغنية شرقية.

خشى أن يستيقظ والده، ولكنه لم يجرؤ على مقاطعته. أراد دخول المرحاض وتفضية حوضه.

صمت "كولترين" وحدق فيه وهلة، غمغم:

– أنا راسي زحمة زي كوبري أكتوبر.

– وأنت تعرف كوبري أكتوبر منين؟

– بروحه كل يوم، لـ"سمارت فيليج".

نطق "سمارت فيليج" بطريقة بيئة، وضحك في جنون.

– أنا محتاج "التم تم". تعالى نعزف "بلو ترين"!

هز رأسه.

– مش دلوقتي!

انتفض "كولترين" من مكانه، وتوقع أن يصفعه، لكنه تحول إلى لهب واختفى.

فتح عينيه بصعوبة وأدار رأسه ليتأكد إذا كان والده مازال راقداً بجانبه.

كان الليل يزحف ببطء.. يجب أن ينعم بالنوم ولو قليلاً.

- "يو مان"!

ظنه "كولترين" قد رجع. لكن وجده "مايلز" بسحنته الغاضبة جالساً مع والده على السرير يلعبان "كوتشينة". حملق فيهما بتعب، لكن لم يعرياه أي انتباه.

سأل بفضول:

- بتلعبوا إيه؟

لم يردا. أدرك أن والده لن ينطق، اهتمامه كان مكرساً للـ"كوتشينة".

- "بلاك جاك!"

نطقها "مايلز" بغموض بصوته المتحشرج كأنه يختنق.

- ممكن ألعب معاكم؟

- استنى دورك!

حلق صوت "مايلز" الثقيل في الغرفة المجسمة.

ظل يتابعهما لوهلة. أحس بالشياطين والملائكة تحوم حولهما. ميز ألوان الملائكة الفاتحة وحركاتهم الشبحية، غلفهم الشعاع الأبيض

كممرضات مستوصف، بينما ألتمعت الشياطين بشرارتها النارية.

وضع والده بيده المنمشة ورقة على الملاءة المتعرجة.. سينتظر حتى يسمح له باللعب.

رمق اليد بحنين التي كانت تبتلع يده وهو يخطو به الشارع.

– هي الأيد التي ضربتك؟

التفت حوله.

– مين؟ مين اللي قال كده؟

وضعت الملائكة ظهر يدها على شفتيها وراحت تضحك في شماتة، بينما برقت أعين الشياطين بشيطنة، فخاف منهم.

امتلأت الغرفة فجأة بأشخاص غريبة أثاروا الصخب.

اتكأ والده على جانبه وقذف الزهر على السرير، كأنه لا يبال بكل هؤلاء الأشخاص في غرفة نومه. تجمع حول "مايلز" الشياطين، فأراد إبعادهم، كانت الملائكة لا تفعل شيئاً سوى الفرجة..

هتف كأنما يخاطب نفسه:

– بابا لازم يستريح!

لم يبالوا. انتظر والده أن يقول شيئاً، دفاعاً عن نفسه، ولكنه لم يرفع عينيه عن الزهر.

تحول الحاضرون تدريجاً إلى عازفين، أحسوا بالضجر في الغرفة ولكنهم لم يغادروا، ظلوا يدخنون ويصدرون نشازاً بآلاتهم، ثم اختفوا تدريجاً، إلا "مايلز".

أراد أن يستمع إليه يعزف، لن تأتي الفرصة مجدداً.

أيناديه "مايلز" أم "ديفيز"؟ ربما يناديه أصدقاؤه "مايلز"، والناقدون "ديفيز".

– "ديفيز".

لم يرد.

– "مايلز".

راحت الملائكة والشياطين يطاردون بعضهم كأطفال تعبث في غياب الكبار.

هذا الحلم مزعج! أراد مغادرته كي ينام. خيل إليه أنه استيقظ بالفعل، رفع رأسه ووجد الغرفة خالية. ثم ظهر "مايلز" جالساً على السرير بمفرده.

أين أبيه؟ حدق "مايلز" في شيء أمامه. لا يفارق الغضب وجهه، كأنه يتخيل مقطوعة جديدة.

– بابا فين؟

رد "مايلز" دون أن يلتفت إليه.

– ما تخافش، الأراجوز برضو خايف!

لم يستوعب. ظل جالساً ينتظره كي يتحدث. أراد أن يسأله عن "كايند أوف بلو".

رمق "مايلز" متسائلاً، فحثه الأخرعلى الصمت. أراد جذب انتباهه، دندن:

- "ماي فاني فالنتين".

التفت إليه "مايلز" غاضباً، فسكت وهلة ولكن ما لبث أن استأنف.

- "سويت كوميك فالنتين".

فتحت أمه الباب، لتطمئن عليهما، ثم أغلقته.

أراد أن ينهض ليتبعها ويسألها عن والده. وجده راقداً على السرير، يديه خلف رأسه يحدق في السقف، وجهه غاضب مثل "مايلز"، ثم تكشفت له الصورة.. والده هو "مايلز".

شعر بالخجل لأنه لم يتقن ذلك التحول من البداية، ثم أحس بالفخر. ربتت يد عليه. سأل:

- "مايلز"؟

- إصحَ يا شادي! إصحَ يا حبيبي!

12

حام القلق على وجوههم وهم يستشيرون بعضهم.

بات لا مفر من اتخاذ القرار بعد ما أبلغهم الطبيب بضرورة نقله إلى المستشفى.

- هيبهدلوه يا عيني!

- مفيش أدمنا حل غير كده.. أنتم مش شايفين هو عامل ازاي؟

تركت الأم المجال للأبناء واستسلمت لقرارهم.

حتى إلى البار ونوره الباهت الذي لا يظهر للأعين ما لا تود أن تراه.

- شادي!

رمقه أخوه مستنجداً به. كان ريقه ناشفاً وابتلعه بصعوبة. حاول أن يرتجل..

- المستشفى.

انتحبت أخته وفرت إلى غرفتها.

وصل رجلان في معطف أبيض. اقتحما غرفة والده. شاركوا في رفعه على نقالة. مكث بجانبه في عربة الإسعاف، بينما استقل أخوه سيارة أجرة مع والدته وأخته.

شقوا طريقهم وسط سيارات دعتهم يمرون بشفقة. أصدر المكبر عويل إنذار كبوق لمقطوعة تتساقط نغماتها كبيت من "الكوتشينة".

لما وصلوا المستشفى، وثب نحو الاستقبال وملأ استمارة، ثم انتظروا نصف ساعة حتى تم إعداد سرير له في العناية المركزة. كان بها ثمان حالات آخرى.

بكت أخته بحرقة، فرمقها بنفور كي تكف. ظهر شاب نحيف في معطف أبيض، اتضح أنه الدكتور النبطشي. استعلموا عن حالته بلهفة. اقتادهم الشاب إلى العناية، كانوا قد كسوا جسده برداء أخضر عرا صدره وأظهر شعره الأشعث. كشف الطبيب عليه بروتينية وطمأنهم بكلمات مقتضبة.. فاحت رائحة أدوية كريهة في الحجرة، وتحدثتا ممرضتان بدينتان كانتا تعدان حقناً للمرضى. اختلس النظر لسرير مقابل والده، رقد داخله رجل نحيف، وجهه مشدود من فرط الألم، والأسلاك متخللة منخاره. لم يحتمل، وخرج.

جلس في الردهة على كرسي بلاستيك. تعودت عينيه تدريجياً على حركة الردهة وارتكز اللون الأصفر الفاقع على الحائط، فارضاً نفسه على الأعين. راقب من فتحة الزجاج شفتي أخيه تتحركان وهو يحادث الممرضة المتابعة، كأن بمقدروها التواصل دون صوت. جمدت الحركة وتباطأ وعيه.. لم يخترقه إلا صريخ حاد، وعى أنه نابع من حنجرة أخته، قبل أن يترامى له تأوه والده. اندفع إلى الغرفة..

- بابا! أنت كويس؟

انتفض والده يميناً ويساراً.

- بابا!

تناولت أخته يده وأخذت تشرع في لفت انتباهه. أسرعت الممرضة تجاهه وقامت بجس جبهته، ثم اجتاح وجهها علامات الأسف.. ابتعدت للتشاور مع زميلتها واستقرا على إعطائه مسكّناً.

خمدت الألام، وراح يقلب رأسه من حين لآخر في حالة من اللاوعي. ثم جاء الدكتور وكشف عليه مجدداً، وأعينهم الغاضبة تحمله اللوم.. تابع الممرضتين اللتين اعتادتا الموت وهما يهمان بإعداد محلول.

مكثوا بجانبه حتى استقرت حالته، ثم دعتهم الممرضة بأدب كي ينصرفوا. فهبت بداخلهم عزيمة فورية، وكأنهم خشوا أن يشهدوا نوبة أخرى تجتاحه في وجودهم..

استقبلتهم في الشارع لفحة هواء ساقعة أنعشت حواسهم المخدرة. توسط أخوه والدته وأخته وربت بحنان عليهما، فيما عجز هو عن أي حركة مماثلة.

13

أطلق نفخة صاخبة كفيل يعطس.

راقبه الجمهور بترقب، وخشي زملاؤه أن النوتة ستنفلت منه.

تغير، لم تصر الابتسامة التي يقابل بها الناس أن تفرض نفسها. تم استبدالها بشيء آخر.

اغتربت الجماهير من عزفه الصاخب، وبينما انهال عليه البعض بالتصفيق والتشجيع، تابعه أخرون بتحفظ واشمئزاز، وهناك أيضاً من رثوا حالته..

تغير مظهره وامتلأت حركته بالرهبة. طالت ذقنه وقست ملامح وجهه. بدا أنه صار أكثر عرضاً، وازداد وزنه، كأن قوة ما هبت فيه جعلته عملاقاً.

راح يرتدي قبعة مثل الأزهريين، غير إنها سوداء، كتلك التي كان يرتديها "مونك"عازف البيانو الأسطورة، يتاويها في درج مكتبه أثناء عمله، ولما يغادر يثبتها فوق شعره الهائج الغزير، الذي تركه ينمو، ليتحول لشخص آخر.

تعثر مديره في التعامل معه، فلقد صار أكثر ملتزماً ومنضبطاً، و لم يتلق أي شكوى مؤخراً بسببه. لكن مظهره وصمته ونظراته المريبة أثناء الاجتماعات أثارت العاملين والعملاء، خاصة ذقنه الطويلة، وهناك من نسبوها لتدينه بعد وفاة والده.

في البار صار يطلق عليه اسم "مونك" مما يعني "راهباً"، وبالفعل تشابه مع الراهبين في التزامه، فلم يعد تهيمن عليه رغبة آخرى غير إيجاد اللحن وانحصر كل تفكيره ومجهوداته في هذا المجال، ليل نهار.

منذ الحادث وعزفه يعمه الفوضى. موسيقاه لا يفهمها أحد و لم يعد لها نظام. انفرد بعزفه مثل "كولترين"، وتابع صوراً شاغرة لحقول خضراء في عقله.

ولما كان يفتقر الروحانية، تردد على الأذكار الصوفية في "الحسين" و"الشاذلية" و"السيدة زينب"، وانغمس في الذكر، يردد شعارات المريدين.

– زيدني، زيدني، زيدني. زيدني يا رب زيدني..

انضم لناشدي الشيخ "أحمد التوني" والشيخ "ياسين التهامي"، راح يروي ويطمس الظمأ الأبدي..

كان يرجع من تلك الأناشيد ليهم بالعزف في عجل، وكأنه يحتفظ في قلبه بأطلال من الروحانية يريد أن يفرغها قبل أن تزول.

اعتكف في شقته واعتكفت النغمات في قطعة بذهنه. أقلع عن الشراب وأسرف في الحشيش. ولما تعنت الإلهام وحجب عنه، كان ينطلق بسيارته إلى أعلى نقطة فوق المقطم، بعيداً عن العاشقين وكل من جذبهم المظهر الساحر، ليدع حواسه تنفطر ولا يوقف عزفه إلا ليلف "سيجارة" لترتخي وتشتعل حواسه من جديد.

مزج الصور في ذهنه بنغمات تطابقها.. وتصدى لغرائزه بفيضانها.

وبات ما يفصل بينه وبين النغمة نوتة بسيطة. وصار وشيكاً ومقتنعاً أنه تقرب منها.

14

– ما الذي أتى بك؟

داعب الشيخ لحيته المتهدلة فوق جلبابه الأبيض، بينما همت اليد الأخرى بتلمس عناقيد سبحته واصطفافها في نظامها الكوني واحدة تلو الأخرى.

ارتسمت ظلال خافتة ومخيفة أكبر من حجمها على الحائط.

جلس مقرفصاً وسط مئات المريدين يرتدون الجلاليب والطقيات البيضاء، منسجمين في مظهرهم، منحين ومومئين بأجسادهم، معتصمين بالورع والطاعة. ارتدى جلباباً أبيض مثلهم ولكن ميزته وفرقته قبعته السوداء عن باق الرعية.

قام شيوخ كل حين يرددون أناشيد الحبيب، رافعين أذرعهم لأعلى يلوحون وكأنهم يقودون "أوركسترا" صوفي لنغمات إلاهية.

تكدست الأدعية وتعالى نحيب التوبة. حامت سحابات من البخور أضافت الغموض على همهمة المريدين.

- إني باحث عن الطريقة!

أشار الشيخ بسبابته وأطلق بغتة من حنجرته:

- هو الله!

ردد المريدون في خشوع وتقوى "كورس" لمئات "الله".

أغمض الشيخ عينيه وترامت لأنفه رائحة أقدام نتنة. جلس بجانبه شاب ضخم رمقه كأنه لا ينتمي إليهم.

همهم الشيخ كأن يخاطب نفسه:

- كل حال إلى زوال!

ترددت النغمات في وهن، مصطفة كعناقيد سبحة. سعل الشيخ بقوة، ثم تمتم أدعية شافية. اتضحت الأصوات لما تمخضت. عاود الشيخ:

- لماذا تبحث عنها وسطنا؟

علق السؤال كنفحة بخور طافحة، خفّض دعاء المريدين وأجاب مراوغاً:

- إني في حاجة إليها!

جاء الرد سؤالاً.

– وما دفعك للاعتقاد أنك ستجدها هنا؟

تردد كأنه يعزف نغمة غائمة ليس واثقاً منها.

– التطهر والنقاء!

تلت همهمة جماعية تعرب عن سخطها. جاء صوت الشيخ ثابتاً وصبوراً.

– التطهر يبدأ من النفس!

أجاب بيأس من يتوقع الرفض.

– إني أضع نفسي بين يديك! ساعدني يا مولاي!

– لا تساعد نفس إلا نفسها، فلتخبرني عمّا تبحث عنه حقاً!

تفحصه الشيخ بحزم، وجال الشاب المريد عيناه في وجهه بغضب.

– أبحث عن النغمة الخالصة.

خفض الشيخ بصره.

– ألهذا تدعي أنك واحد منا؟

تعالت حوله همهمات معترضة، تلعثم وبلع ريقه بصعوبة.

– أريد جلب السعادة لغيري.

– بل لا تفكر إلا في نفسك!

– لافرق بين النفس والغير.

– المريد لا يفكر إلا أن يمحي نفسه كي يسكن الله قلبه. والعالم لا يعكس سوى ما بداخله.

- النغمة خالصة ولا تتوق إلا لطهارة الروح.

- لا خلاص كاملاً في هذا العالم، وإنما نسعى لملاقاة وجه الله بأقل خسائر ممكنة..

- انجدني يا مولاي! إن حياتي فوضوية.

- ألست مسئولاً عن تلك الفوضى؟

- إني بحاجة إلى الخلاص!

- سعيك داء وليس دواء.

- الموسيقى هي داءي.

- تخلى وسوف تثري. هذا هو مفتاحك.

- لا أدري كيف!

هز الشيخ رأسه. تجمعت الأفواه ونطقت بحرمان اسم من أسماء الله الحسنة.

- روحك لا تبغي إلا الفراغ ولا تستطيع أن تقيدها ولو بالموسيقى! تفكر فيما تفتقده حقاً!

لا يفكر إلا فيه!

- قد تكون عازفاً بارعاً، لكن لا تجد وسيلة لتنقل نغماتك لمستمعيك، فما جدوى عزفك؟

- دلني!

- موسيقاك غريبة عنا!

- ما غريب إلا الشيطان!

تعالت همهمات مهددة. خشي أن ينبس بكلمة أخرى خاطئة، تجرأ وخاطر:

- أريد احتواء البشر.

أحس أنه أصاب وتراً صحيحاً.

- إذا أردت احتواء البشر، فعليك إحتواؤهم بكل ما هو زائف، فالعالم بذرة خصبة تنبت وفي كنفها تحمل العطنة.

- العازف دوره أن يعلو بحاسة البشر.

- ألهذا يأتي الناس للاستماع لك؟

- إنهم يأتون لأنهم عاجزون في حياتهم، ولأني قادر أن أسترسل إليهم ما لا يفهمونه.

- الموسيقى لا تحيا بمفردها، وإنما بمستمعيها. انظر كيف تتخاطب بتعال. كيف سيذعنون لك؟

تنهد المريدون خلفه، واشتد زفرهم في نفس واحد، كاف ليطفيء حقولاً من الشمع المتزعزع.

- ألم يخاطب الله المرء بما أعجز عن فهمه؟ ألا تكمن معجزة القرآن في مخاطبتها قلب الإنسان؟

أومأ الشيخ في تعب واستطرد:

- كان الله عز وجل قادراً على أمر البشر مباشرة ليمتنعوا عن المنكر

وينشرحوا للفضيلة، ولكنه آثر طريق القلب والجمال.

ثم تنهد وصمت وهلة، لكن ما لبث أن قال بحتمية:

– لقد اختار الله الجمال لكي يخاطب به البشر، فرسالته مليئة بالرحمة والعظة. أما عزفك فيكدسه الغموض والإدراكات المشوشة، أنت لا تعزف إلا لنفسك يا ولدي.

هوت عليه الكلمة كأنين بوق حاد. راح الشيخ يتتبع بأنامله النحيفة كويرات السبحة.

شعر بعداء المريدين يتفاقم. إنه يلعب في الوقت الضائع. لن يستسلم هكذا!

– ماذا عن مريديك؟

– ماذا عنهم؟

– أوجدوا الوسيلة؟

هز الشيخ رأسه نافياً.

– الخلاص في روحك، وأنت تسعى للتملك! لن تجد ما تبحث عنه هنا.

ملأت رائحة البخور رئتيه حتى تنفس بصعوبة. همهم الشيخ أدعية لم يفقه معناها.

أغلق عينيه وشعر بحواسه تتخدر، فاستسلم لهذا الشعور.

تبدل المكان حوله، كأنه على متن قطار يسلك دروباً وسط أشجار

لا تفارق مكانها. هكذا تبدأ مقطوعته. سيكملها حتى لو وهب روحه للشيطان.

كان الشيخ مازال يردد الأدعية، وروحه تتسلق الأبعاد وتحوم في مكان آخر، مثل عازف لما يعزف.

أراد أن يستأنف المجادلة، ولكن الشيخ كان قد أدار له ظهره. واستمع إلى التراتيل الغامضة، كمقطوعة لا يفهمها.

15

- ميزو، تيكيلا! ها.. تيكيلا!

ابتلع السائل اللزج كمن يطفىء حريقاً في صدره. ثم أطلق شهقة عالية.

أحس بعينيها تثقبه. حدثها دون أن يلتفت إليها:

- مين اللي مزعلك يا ست الكل؟

ردت بمرارة:

- خسارة!

قال مستهزءاً:

– اللي يشرب من مية النيل، ما يفرقش معاه الهباب ده. ميزو.. طحينة!

ابتلع كوباً ثانياً، واجتاحت صدره سخونة هائجة، اندفع الخمر مباشراً إلى رأسه. كانت فرقة "نغم مصري" تعزف "أيدوم النهر".

وجدها مازالت تحدق فيه، وضع الكوب الصغير على البار بقوة.

– أنت هتفضلي تبحلقي فيّ كده كتير؟ إيه؟ كله عتاب عتاب، مفيش كلام؟

قالت لبنى:

– ربما رجعت لعادتها القديمة!

– ديل الكلب عمره ما يتعدل!

– اتغيّرت يا شادي!

– قصدك رجعت لطبيعتي.

– كنت اتغيرت!

– ودلوقت رجعت تاني. أنت هتفوئيني ليه على الصبح؟

وجه الكلام للنادل كشاهد يحكمه:

– واحد اتغير وما عجبوش التغيير، فرجع زي ما كان، يبئى إزاي اتغير؟

أفلتت الأفكار منه متباعدة مثل نوتة مجهولة يسعى لملاحقتها.

اشتد عزف "أوزو" على الجيتار مما ضاعف الفوضى في رأسه.

شهل النادلون حركاتهم خلف البار ليلبوا مطالب الزبائن اللامنتهية. أحس بيد تربت على كتفه وتمضي دون أن يتعرف على وجهه.

تناول كوب "تيكيلا" ثالث دفعة واحدة، واختلفت رؤية العالم بعدها. امتص فص برتقال ليحد من مرارته.

رنا صوت "شربيني":

– دقات الساعة والمجهول تتباعد عني حين أراك .وأقول لزهر الصيف.. أقول لو ينمو الورد بلا أشواك.

كانت لبنى ما تزال واقفة جانبه. ارتطم جسد به، فارتجت الزجاجة وانسكب السائل على الأرض. سب وابتلعت الموسيقى سبابه، شعر أن موجة تدفعه بعيداً عن هدفه. تشبث بالبار واشتكى:

– ما هو الشيخ اللي قال لي إنه مفيش فايدة. قال إني بعزف لنفسي.

انفجر الصوت "الدرامز" في القاعة، وأطبق على صوته:

– عارفة ليه "مايلز" بطّل يعزف "البالادس"؟ علشان كان بيحبهم، فاهمة؟ علشان كده هو "مايلز"، وأنا شادي "ساكس".

– أنت أناني جداً يا شادي!

– وليه الغلط بس؟

– أنت مش شايف إلا نفسك وبس.

– والناس الحلوة اللي حوالينا دول؟

– بالنسبة لهم أنت شادي "ساكس" وبس.

- رضا!

قبل يده شاكراً.

- خسارة!

- تاني هتخسريني؟ هو ماتش من طرف واحد ولا إيه؟

لما التفت كانت قد رحلت. أخذ وهلة ليجمع أفكاره، ثم تمتم لنفسه:

- أنا "مونك".

وفرد ذراعه حوله:

- والناس دي بتقدسني..

ثم ضرب بقبضته خشب البار ونادى بقوة:

- ميزو.. تئيلة!!!

احتسى الشراب، ليطفيء النار الكاوية في صدره.

وحاول هباءً أن يتذكر مدخل اللحن.

16

حمل توفيق جيتاره وغادر مع خالد وعاطف. انضم جنو إلى مجموعة يحتفلون بعيد ميلاد شاب أشعث الشعر. وطوق فاروق سلك "الميكسر" حول معصمه وهو يراقبه بهدوء.

كانت الثانية صباحاً. لن ينعموا بالنوم إلا بضع الساعات. إنها حياة مجنونة، وأحياناً يتعجب من احتمال جسده للمشقة هذه.

تثاءب وخيل إليه أنه يستطيع أن ينام يوماً كاملاً. قرر أن يشرب كوباً واحداً قبل أن يتوجه إلى بيته. أفرغ فاروق من حزم أمتعته ولكنه لم يغادر. انضم إليه عند البار وطلب عصير برتقال.

– اديلو بيرة يا عم!

ابتسم فاروق وقال:

– البرتقان في فيتامين سي.

– هو في أحلى من فيتامين "أس"، "ستيلا" يعني؟

أوحت له عيناه بأنه ينوي إلقاء موعظة. يتهامسون وراء ظهره، وقد حاول توفيق وخالد التحدث معه، ولكنه صدهما بفظاظة. لن يفلحوا.

فرد فاروق أنامله متوجعاً وقال:

– أتكيت انهاردة جامد شوية!

لما يماطل بدلاً من أن يدخل في لب الموضوع مباشرة؟

احتسى رشفة بيرة، كان قد سئم طعمها. سيفرغها ويغادر، لكنه لم يكن قد اقترب من نصف القاع بعد.

ابتسم فاروق وهو يتابع نشاط ميزو المجهد خلف البار.

– أنا رايح بكرة مع سوسو جنينة الحيوانات، نفسها تشوف "الشمبانزي"!

تمعن البيرة المتبقية في الزجاجة وعلق بسخرية:

– عاوزة تشوف الشمبانزي؟ ما تجيبها هنا أحسن! عندك ميزو أهه، ميزو كلمه بلغتكم!

ابتسم ميزو وهو ينشف الكؤوس. زفر فاروق، فظنه سئم وسينصرف.

– عارف، أنا أول لما سوسو اتولدت، أنا كنت هعمل على روحي من الخوف! أنا يدوبك ماشي بخبط في الدنيا، والدنيا بتخبط فيّ. وفجأة لقيت

نفسي مسؤول عن بني أدمة جانبي، عيال جابت عيال زي ما بيقولوا.

لما يلقي عليه هذا الكلام في مثل هذه الساعة؟

– أول لما روحنا وحطيناها في سريرها، فضلت قاعد جنبها، ودعيت ربنا أني أكون أد المسؤلية. وبعد شوية اكتشفت حاجة مهمة أوي.

– إيه الحاجة دي بئا؟

ابتسم فاروق.

– مش هعرف أشرحهالك!

– أمال داوشنا ليه يا عم من الصبح، مدام مش عارف تشرح.

بدا فاروق مكسور الخاطر، لكنه لم يكترث، أراده أن يتركه فحسب في حاله.

لفظ فاروق متعثراً:

– اللي عاوز أقوله، إني كنت خايف.. خايف خايف أطلع أب فاشل.. زي ما كنت زوج فاشل.. خايف أخيب ظن سوسو في.. ولكني عمري ما خفت أعزف نوتة غلط.. عارف ليه؟

خاطب شادي النادل:

– هو أنت حتطله إيه يا عم؟ يعني أنا اللي بشرب وهو اللي يتسطل؟

ألتفت إلى فاروق، وضاقت نفسه:

– بص يا عم فاروق! أنا ما بئاليش غير الساكس اللي انت شايفه ده.

أشار إلى البوق اللامع وحيداً تحت أضواء الكشافات.

– ومفيش أي حاجة تانية فارقة لي.. أنا عارف أنكم قلقانين علي.. يا أخي سعيكم مشكوراً وعلى دماغي من فوق.. بس الكلام ده بصراحة مش هياكل معايا. فوفره أحسن!

– أنا فاهم!

– مش باين!

– الجيتار بالنسبة لي زي مايكون دراعي التالت.

ضحك شادي وخاطب ميزو:

– دراعه التالت، فاهم يلا؟

– الجيتار بيطلع النغمة اللي أنا عاوزها من غير مجهود.. مش زي الكلام متعب.. عارف يا شادي، أخر حاجة هاقولها لك وأحل عنك انهارده..

– يا رب!

– وانت بتعزف انهارده، أنا قلت لنفسي، الواد ده عبقري. والله انت أجمد واحد فينا.

أصابته هذه الإشادة الغير متوقعة بالخجل، فأردف بتواضع:

– وانت ماحدش قدك في الجيتار يا فوُش!

– سيبك مني.. أنت أحرف مني ميت مرة.. بس وأنا بقول لنفسي إنك جامد، خفت عليك.. عارف ليه؟

وضع الكوب على البار، وأدرك أنه سيترك علامة.

– علشان العباقرة بيخدشوا روحهم في مقابل فنهم.. علشان بيدوا

كل حاجة وبيضحوا بكل حاجة.. عندك خالد.. عبقري برضو على المسرح.. لكن في حياته إنسان عادي.. لو قابلته وما سمعتوش بيغني قبل كده.. مش هتصدق إنه ده خالد اللي بيطلع على المسرح.

شعر بالدوار. أراد أن يذهب إلى بيته فحسب.. المقطم بعيد.

– أنت أصلاً "سوليست" يا شادي، وده مش عيب. بس حاسس إنك عاوز تكون سوليست بس. كده هتتعب أوي.

جاءت الموعظة أخيراً. أشار فاروق إلى جيتاره المغلف في الحقيبة السوداء.

– الجيتار بالنسبة لي كل حاجة ولا حاجة. أما بنتي بالنسبة لي كل حاجة. عاوز أكون أحسن أب، وأحياناً مش عاوز أكون أب، فاهمني؟ بس أنا ما ينفعش أكون ده من غير ما كون ده.

– أنا عاوز أنام!

رمق ميزو يبتعد وأحس أن جسده هو الذي يتأرجح.

فكر مهموماً في مطلع المقطم. نهض فاروق ووضع يداً على كتفه. أردف قبل أن يغادر.

– خدلك "بريك" يا شادي.. البوق مش هيروح في حتة.

17

قاد السيارة بحذر مطلع المقطم.

لسبب ما توقع أنه سيتسبب في حادث يقضيه بقية عمره عاجزاً، تمهل وظلت السيارات خلفه تستعمل ألة التنبيه بفظاظة، ثم يسبقونه ويحدقون فيه بغضب، معتقدين يقيناً أن المواطن المصري أصبح أكثر برودة وغير مبال بالمرة..

ارتبك وكاد أن يتسبب في خطأ فادح جعله يقترب بخطورة من سيارة آتية من الخلف، ولولا براعة السائق الأخر المتدرب في تفادي أخطاء الأخرين لوقع حادث مخيف.

وصل المنزل مبتلاً عرقاً. أحس بالدوار وهو يخرج من السيارة. داهمه عزوف خطر لن يأتي، ولكن عليه توقعه. ولما اجتاز عتبة البيت،

تمتم شاكراً:

- الحمد الله!

أدار نور الشقة ووضع مفتاحه وساعته وولاعته على المائدة. غيّر ملابسه وقضى حاجته ثم انزوى هارباً تحت غطائه. خيل إليه أن العالم سينتهي ويصير أفضل في الصباح. نام قلقاً وصحا في منتصف الليل.

نظر إلى الساعة، أدرك أنه لم ينعم بالنوم إلا ساعتين، كان مجهداً وحاول أن يخلد إلى النوم مجدداً، ولكن كل محاولاته توجت بالفشل و لم يحظ براحة التخدير الطبيعي. ظل يتقلب يميناً ويساراً حتى دفع الملاءة بزهق وتوجه إلى الصالة. وجد البوق كما تركه. حدق فيه بتحد واجتاحته رغبة قوية في تحطيمه. أغلق عينيه وحاول هباءً أن يتذكر بداية اللحن الذي لم يستقر عليه بعد. تجلت سحنة "مايلز" الغاضبة له وهو ينفخ بكل عزيمة بوجنتيه المملوءتين..

تناول البوق وراح يجرب نغمات بسيطة قبل أن يشتد عزفه وينطلق في الشقة. لكن الجيران سرعان ما احتجت وراحت تخبط على الحائط.

توقف وحملق أمامه. ثم نهض بغتة وقد تملكته قوة متمردة، فارتدى ملابسه على عجل وغادر الشقة.

18

اجتاز مزلقان أرض اللواء.

عبر القضبان وخيل إليه أن الأنوار تلوح بعيداً لأن أحداً نسي أن يطفئها.

كان البرد قارساً والهواء يختلج عظامه كأنها قابلة للكسر.

طرق على مسمعه نذير قطار يرج الأرض رجاً، ماراً بجسده الهائل، لاهث سحابة رمادية. امتزج نذيره بأصوات مفزعة اختزنها في لا وعيه. المرء لا ينعم أبداً بالهدوء في القاهرة.

لفحه الهواء في إصرار وخيل إليه أن سيضطر أن ينازعه ببوقه.

تفقد كلب الأرض حوله، ثم توقف على بعد أمتار منه، ورمقه بفضول

قبل أن يصرف عينيه عنه مستشعراً الوحدة مثله.

صاح له:

- أنت الليلة جمهوري!

وضع البوق على شفتيه وخرق الظلام بتقلصات آلته المتعرجة، تاركاً صدى من الأسى بعد ما مضى القطار. عزف لحناً مرتاعاً، وانخرط في متاهات حسية، فهربت منه النغمة، وتوقف ليلتقط أنفاسه.

أخذ نفساً عميقاً وأعاد العزف. لكنه لم يتمكن من التمسك بالنغمات المنفردة. فأنزل بغتة "الساكس" وصرخ في السماء:

- مدد يا الله. مدد!

تابع العزف عازماً على اقتحام أغوار الليل. كان يقف بجانب القضبان، منهمكاً كلياً في عزفه، ولم يع باهتزاز الأرض حوله، ولا بلهث القطار المتحشرج مثل الوبور المقترب منه بعزيمة ساحقة.

أوشك على ملاقاة اللحن.. لكن تداخلت نغمات أخرى.

لم يستشعره إلا وهو على مقربة أمتار منه.

آخيراً صاح القطار، مطلقاً بوقه بذعر جامح.

اشتد نفخه وكأنه يريد أن يتصدى لبوق القطار، والقطار يغشي برنينه أي صوت آخر.. أدركه الذعر وفرز جسده الأدرينالين بغزارة، كسا حواسه وبات على المحكة والقطار يطوي بأقصى سرعة.

فقد توازنه وارتطم بالأرض، ولم يشعر بنفسه إلا بعد مرور القطار بصخب هائل.

ظل راقداً بلا حركة. ولما جرى في ذهنه السيناريو الأسوأ، تجرأ ورفع ذراعه لأعلى. تحسس بدنه. كان كاملاً، و لم يشطر لنصفين. تنهد وتملكته فرحة النجاة من الموت، ثم استند على مرفقيه وحاول النهوض. التمع شيء جانبه في التراب. دقق في شكله وتبين أنه البوق قد انكسر لقطعتين غير متساويتين.

حمله مدهوشاً بين يديه، ثم جلس يتأمله فوق القضبان.

كان غشاء الليل قد انزاح واختلط بندى الصباح المتغلغل.

اقترب منه الكلب وتشمم البوق المكسور، ثم وقف جانبه يطل غير بال في الاتجاه الذي جاء منه القطار.

وبعد قليل سأله:

– عجبتك؟

19

قاوم جفناه المثقلان النور المشعشع وتفتحا بصعوبة.

هبطت عليه الذاكرة كـ"بومارانغ"، فتذكر البوق المحطم. لم يجتاحه الأسى الذي توقعه، بل راوده بدلاً منه شعور غريب بالارتياح.

خطا إلى البلكونة، وفتح الشيش ليدع الصباح الباكر يتسلل إلى الداخل. خيل إليه أن الصباح خال من أي هموم، ولم يستشعر الإلحاح الكابس بأن عليه إيجاد اللحن. أغلق عينيه وترامت إليه أصوات نافذة من الشقق المجاورة، بعضها منظمة وبعضها الأخر فوضوي، ميز تغاريد عصافير وخشخشة أوراق، نداء عمال زاهدين تلتها طقطقة صحون من شقق مجاورة. فقدت نداءات مقصدها، وتكررت أخرى في إيقاع منسجم، لمن أراد أن يستمع. اعتلا صوت مذيعة في برنامج تلفزيوني،

ثم تغيرت المحطة ورنت موسيقى "بوب" مصرية. رن صوت قرآن مواز، تلاه موتور سيارة توقفت وجلبت معها موسيقى أغنية شعبية، ثم رزع باب السيارة وسمعها تبتعد.

خيل إليه أنه يستطيع قضاء اليوم بأجمعه في تفرقة ونسب الأصوات بعضها البعض، فكلما أطال الاستماع فقدت نسيجها وتفتت إلى نشاذ هائل، ما لبث أن تكون ليحمل شظية لبدايات نغمة غير مكتملة.

أدار محرك السيارة، كان الناس في طريقهم إلى العمل.

تابع بائع فول يجهز طبقاً لزبون بهمة، يضيف عليه الزيت والسلطة، لرجل نحيف تمعنه بشغف، وبجواره رجال أخرون ينتظرون دورهم.

استمع لـ"زاك" و"لينا" على محطة "نايل ف م" يتمازحان ويتشاجران حول دور المرأة في المجتمع.

كان الطقس معتدلاً، ولما توقف الطريق لاشتداد الزحام، لم يلزم بفعل أي شيء سوى الانتظار.

ظن أن بإمكانه التخلي عن العالم هذا، أملاً في إيجاد عالم أخر.

تردد عليه اللحن، فتركه يرنو دون أن يشغل باله باختزانه.

بداخل كل عازف لحن عظيم لم يعزفه بعد، تفكر.

ثم انفرج الزحام ومر بسيارته..

عازف الجيتار... والعج (و) ز

قل للمليحة في.. الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبد..
قد كان شمر للصلاة ذراعه.. حتى وقفت له بباب المسجد..
ردي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه..
ردي..
ردي..
بحق دين.. محمد

شعر عربي قديم - وسط البلد

1

أنهى خالد مقطوعته بصرخة استغاثية ذابت في السماء.

هوى عليهم التصفيق في القاعة المكدسة.. تلألأت أنوار بعيدة وأخرى خافتة فوق سطح النيل، ميزها من فوق المسرح.

تم الاتفاق على ترتيب الأغاني مسبقاً، يجرون تعديلات بسيطة فقط، لما يتشوق الجمهور لسماع أغنية معينة ويطلقون "كورس" من النداءات، فيلبوا طلبهم، وتشتعل القاعة لما يعزفوا النغمات المألوفة، فيردد المئات بدايتها ويجاريهم بالعزف.. وما أروع هذا الإحساس!

المقطوعة التالية سيفتتحها بجيتاره. اختلس النظرات إلى الوجوه المألوفة في الصفوف الأمامية، جمهورهم الوفي المتابع لهم منذ البداية..

جال بعينيه في وجوه تشع فرحة.. ينتظرون وقوع النغمات الأولى ليندلعوا في الغناء.

بإمكانه سماع النغمات قبل وقوعها، تحوم مثل سمك صغير يتشوق للعب، يدرك أنه على وشك القذف به إلى المياه، فينتفض سعادة.

ألقي نظرة أخيرة على الجماهير. ثبت ذراعيه وداعب الأوتار الممشوقة، تراقصت وتلاعبت النغمات كفراشات تحتفل بالحياة.

إنها نغمات فرحة!

اجتاحت الفرقة نشوة عارمة وهاجت الجماهير..

كانوا يتدربون في الاستوديو، لما دأب توفيق بداية لحن علق على الفور بذهنه. رافقه بنغمات ارتجالية أدمجها في عزفه. فانضم لهما باقة الفرقة وأومأوا لهما بحماس، محثين إياهما أن يكملا وأنهما وجدا شيئاً..

وتبلورت النغمة كلغة تنفك شفرتها..

يوحي اللحن ببشر يتعانقون..

صفقت الأيادي وأومأت الرؤوس وبشرت الوجوه..

ووقف هو يرقبهم في سرور.

2

وخزه ألم عابر سرى في صدره فور استيقاظه، يعلم أن مصدره الفقدان.

أول مرة واتته كانت بعد طلاقه، لدى استيقاظه في سرير خاو، لا يطرأه أثر لليالي سابقة طبعت بعمق في ذاكرة معششة كبيت العنكبوت. ذاكرة عليه نسيانها.

تلقى التعاسة كضربة يتوجب إحتمالها. سارت حواسه مع الوقت مدربة على تحمل الآلام تعرف طريقها إليه دون متاهات، تنتشل منه فطرة بهجته لاستقبال الحياة وتزعزع توليه بعزيمة إنسانية ثابتة ينطلق منها سعي الإنسان. استبدلت البهجة الفطرية بحزن فطري..

لم يقدر على النهوض ليسترجع بآلية ما ظن فقدانه البارحة، قبل أن يتبين

أنها تراكمات، فاتورة جارية لم يدفع حسابها وأرجأها حتى انتشر الفقدان كخلايا سرطان في كل مكان في جسده، وبات في مرحلة متأخرة..

ظل راقداً شاعراً بقواه تخور في الصباح الباكر، وينتابه إحساس باليأس، يتطلب منه كل ما يملك من قوة.

تأمل السقف الباهت الذي لم يحفز بداخله أي فاعل، واصطدمت به عيناه كما تصطدم التطلعات بالأفق.

لقد وعد سوسو بمرافقتها إلى حديقة الحيوان اليوم. استجمع قواه ونهض أخيراً.

ترنح إلى المرحاض، غسل وجهه وحملق طويلاً في المرآة.

وجهك موديل قديم!

كسا ذقنه بمعجون الحلاقة وراح يقتلع شعيرات رمادية خشنة لم يحلقها منذ يومين، لم تنبثق من جذورها بعد لتستقل بنعومتها.

حرك الماكينة من الأسفل للأعلى محرراً دروباً مستقيمة، عكس دروب الحياة التي هي أشبه بدوائر تنعطف بنا أحياناً في مسارات متعرجة لما تنكشف لنا طرق جانبية مفاجئة، فنغامر ونقتحمها ونتوغل في أثرها حتى نكتشفها مسدودة، ثم تقذف بنا مجدداً إلى الطرق الرئيسة، ويتضح لنا فيما بعد أنه كان انعطافاً ضرورياً، كي نتحمل أعباء الدنيا التي حمّلناها أنفسنا، وحملتها الحياة علينا. نغوي عقولنا لأسباب لا يدركها إلا الله، ونحن بطريقة ما، فنتمسك بتلك الدروب الجانبية في حياتنا بشغف طفولي، لنستشعر أننا مازلنا أحياء، ومن أجلها نصير مستعدين لأن نتخلى

عن حياتنا من أجل ما لم يكتب لنا، مدفوعين بهوس جنوني لاحتياجات نفتقدها أو نظن أننا نفتقدها، فنصير غير عابئين بالطرق الرئيسة، بل وننساها أحياناً، وننجرف أبعد في الدروب التي اخترناها، دون أن نتعرض للمسائلة يوماً، إلا من أنفسنا، وحين ذاك نتساءل دون مواجهة، إذا كنا اتخذنا حقاً الاختيار الصحيح..

ولعل منى ليست سوى طريق جانبي انفتح له..

لما أقحمت على نفسك تلك العلاقة الخاسرة على أي حال؟

الغالب أنها تضييع وقت لتلهي نفسك عن أشياء أخرى. فالكل يبحث عما يلهيه.

بعد ما فرغ من الحلاقة بادر وجهه مرة آخرى.

إنه الوجه نفسه الذي شهد احتفال زفافه، والوجه الذي استقبل به مولودته.

كم مر على هذا الوجه من تغيرات، فكيف لم يعد وجهاً مختلفاً..

وصفته زوجته السابقة بأنه عنيد لدرجة تجعله مستعداً ليرتطم برأسه ضد حائط ليرى فقط الخدش الذي بوسعه إلحاقه به. وقد تحطم رأسيهما وراحا يبكيان بعدها من شدة الألم والضرر الذي سبباه..

كانت زيجة فاشلة مثل آلاف الزيجات المصرية الحديثة اللاتي تتلاشى على صخرة شاطيء صاخب دون ترك آثار.. ولمن تكترث القاهرة بأعشائها العرجة.. كم من الزيجات منبسطة على قاعها كمتحف مهدم

يشهد بعزيمة وفناء البشر.

فشلا في حياتهما الزوجية، وكادا أن يفشلا كأبوين، والفشل مازال يلاحقهما ويهددهما ويعملان له ألف حساب.

ستتحمل ابنتهما العواقب بلا شك، وستلطخ علامات الرسب حياتها بأجمعها. فكم يتأثر الأطفال دون علمهم!

لم يحذرهما أحد، وكيف تسنى لهما أن يعلما؟ فما كان بوسعهما سوى مشاهدة أحلامهما تتفاقم وتتحطم على صخور الحياة اليابسة، مدركين في صمت أن الأفق طالما بدت هناك للتطلع فقط، وما كان عليهما سوى الاكتفاء بذلك دون أمل في الوصول..

كان مجرد شاب يعزف الجيتار. وكانت التسعينيات فترة بهيجة وملونة بكليبات الـ "م تي في"، فلم تكن تلوثت بعد بالحروب والإرهاب.. لم يمل للاستعراض بطبعه. يجلب معه جيتاره إلى فناء الجامعة ويعزف أغاني لـ"عايدة الأيوبي" و"ميتاليكا"، وزملاؤه يرددون وراءه ما يحفظونه، وهي ضمنهم.

وذات يوم قررا أن يقتفيا أثار زملائهما ويتزوجان. اتسمت علاقتهما بالخلافات والعراك الدائم كأي علاقة، هذا ما ظنه. طمأن نفسه بأن الأوضاع ستتحسن بعد عقدهما قرانهما، وقد خيل إليها أنه سيتخلى عن الموسيقى بحثاً عن عمل حقيقي، رغم تشجيعها له في البداية.

قدم على العمل في شركة وقبل، غير أن الحياة خلف المكتب لمدة ثمان ساعات يومياً لم تكن قد سخرت له، ووجدها فارغة بلا أدنى ملامح.

حاول أن يشرح لها كم يبغض الوظيفة، وأنها لا تتناسب معه. رجع إلى الموسيقى، وحاول توافق الحياتين مع بعضهما، ولكن دائماً كان إيقاع احدهما يسبق الآخر، فالحياة عفوية ومتخبطة، والموسيقى متجانسة ومتلاحمة. ولما شرع في الخلط بين الايقاعين، كانت النتيجة أنه صار لا يلحق بأي منهما.

صار الضغط في البيت لا يحتمل والتوتر يتربص لهما في كل ركن، المساومة تفرض عليه بدءاً بمشاهدة قناة التليفزيون إلى اختيار الوجبة التي سيأكلها.

ولما ولدت سوسو، لم يخل يومه يوماً من التزامات كابسة تكبح أي طاقة بداخله للإبداع.

كانت المسؤلية على عاتقهما دون أي استعداد ولا تأهيل، وضاع الحلم، وصار رهينة حتى اكتشفا أنهما فقدا حتى قدرتهما أن يحلما..

..

كفاك يأساً في الصباح! لقد طفحت كثير من كأسه، فلتجرب كأساً آخر.

استمتع بيومك مع سوسو! ستلقي عليك أسئلتها البريئة والمضحكة عن الحيوانات التي تعرفها من أفلام الكارتون، وهي في السن الفضولي الذي ينكشف ويتراءى لها العالم. كم تسليه بأسئلتها الطريفة وتتغلب عليه البسمة كلما جرّها في حوار دون أن يعطيها انطباعاً أنه يسخر منها، فالأطفال تستشعر بالأرجح أي استهزاء بتكوينهم الطبيعي، وإما يزعزع

ثقتهم في أنفسهم أو يحظون بالايمان الباسل المغروس منذ الطفولة، ويسيرون أحراراً حتى تكسر الحياة أجنحتهم..

ولا يفتأ فضولها أن ينجيها من الأسئلة المتعلقة بأمها، فتطعنه بأسئلة لا يستطيع الإجابة عليها. لم لا يعيش هو ومامتها تحت سقف واحد؟ ولماذا تبكي ماما أحياناً؟ ولماذا لا يحبها؟

ويتعجب من قدرة خيالها الخارقة وهي لا تملك من العالم إلا خمس سنوات، فتتفهم أجوبته البسيطة، ثم يراجع نفسه ليلاً ويتساءل إذ كانت تتفهم حقاً، أم أنها تحصد إجاباته الغير مقنعة لتواجهه يوماً بها وتتهمه بالكذب..

كفاك أرجوك! أنت لم تتعد الصباح بعد، و لم يعد عقلك يحتمل كل هذا.. لهذا كتب على الإنسان أن يعمل، ليكف عن التفكير..

طهر الماكينة من بقايا الشعيرات وأطاح بالمياه رغاوي الصابون المتبقية، فجرف فيضان الأزقة والجحور المغروسة في وجهه، والتمع بطهارة ناعمة، فبدا أصغر مما كان عليه هذا الصباح.

تريث، إنه يوم جديد..

3

- هيه! هنشوف "الشمبانزي"!

انطلقت سوسو تصفق بيديها في حماس. أبدت حماساً واندهاشاً وهي تقتحم هذا العالم الخيالي الذي تألفه من الكتب وأفلام "الوالت ديزني". راحت تأرجح ذراعيها في الهواء، وهي تطلعه بثقة عن معلوماتها التي اكتسبتها من المدرسة وتخلطها بخيالها.

ترى لما وهب الله الأطفال هذا الخيال الواسع وهم سيتخلون عنه يوماً لما يصطدموا بالواقع، ثم يقضون عمراً كاملاً لاسترجاع جزء منه، الخيال المفقود..

كانت الحديقة مكتظة بعائلات وأطفال مدارس خلفوا وراءهم بقايا طعام وشراب وقشر لب، هرولوا وتهاتفوا وصرخوا واصطدموا بأطفال

أخرى. حاول أن يحميها ويحيطها بذراعه كلما اقترب الشياطين الصغار منهما، وهي ترمقهم بحذر فضولي تريد أن تتعرف عليهم. خيل إليه أنه ربما لم يكن هذا المكان النموذجي للاختلاء بابنته بضعة ساعات!

مضيا لأول محطة، قفص الأفيال.. بدت أقل حجماً مما تخيلهم، منظرهم حزين وجلدهم باهت وشاحب وبان عليهم الهزال، حالهم مثل حال البني أدمين في الشارع. فرد فيل زلومته كعلامة حياة بائسة. وظلت سوسو ترقبهم بشك، وكأنها ليست واثقة أنهم فعلاً فيلة.

أحس بالشفقة نحوها وسألها:

– تكلي أيس كريم يا حبيبتي؟

ارتبكت وتمتمت:

– ماما!

– مالها؟

انحنى ليقترب من فمها لتبوح له بسرها. فقالت بحيوية:

– ماما قالت لأ.

– ليه؟

– أصل امبارح كلت أيس كريم كتير، وهي قالتلي ما أكلش أيس كريم تاني لأخر الأسبوع.

تفكر أن يخالف أمر والدتها، ويجلبه لها عنداً، ولكنه تريث! لا داعي أن تشعل حرباً ستخسرها على كل حال!

- طيب، نروح للشمبانزي؟

التمع الحماس في عينيها من جديد وبرق الأمل. حاول عقلها الصغير بلا شك أن يستوعب ما تراه، وهو يفوق طاقتها ودهشتها.

ليت بقدرتك أن تتعلم شيئاً جديداً مثلها، غير الذي عاهدته.

شكلت الأطفال صخباً هائلاً أمام قفص القرود. راحوا يهتفون عبارات ساخرة ومسيئة للقرود الذين راقبوهم بصبر يحسدون عليه، ثم ولوا ظهرهم للجمهور و لم يعرهم انتباها إلا قرد واحد ظل يتفاعل معهم، غالباً ليسلي نفسه، يثب من مكان لمكان كاشفاً عن أسنانه، وكأنه هو الذي يسخر منهم، فنال معظم الشتائم..

وقف بجانب القفص حارس شاب في زيه الأزرق، غير مبال، يتابع سب القرد، ويبدي إعجابه أو تعليقاته التي تصب في صالح الزوار. لو لم يكن موجوداً، لقذفوه غالباً بالسوداني وربما بأشياء أخرى.

تعاطف مع القرود الذين راقبوا البني أدمين بهدوء "الشتويكر"، وكأنهم فرغوا للتو من قراءة "سينيكا". سرعان ما أصابه الاشمئزاز بالحديقة. حتى الحيوانات في هذه البلد مكبوتة.

ذكره القرد بنفسه وهو واقف فوق المسرح، والناس تتسلق حوله الموائد لترقص، فالذي يمسك بفتاة ويقذفها في مساحة ضيقة بين ذراعيه، ومن يجدف بذراعه في الهواء وفي يديه كأس نبيذ، والذي يجلس مندمجاً مع الموسيقى ويوماً برأسه مع الإيقاع، والذي يفصح لهم عن إعجابه، ووسط كل هذا يعافر النادلون لكي يوصلوا المشاريب للزبائن..

– يا قرد يا أبو طيز حمرة!

رمق بغضب الولد صاحب العبارة المسيئة، ثم تمنى حبس كل تلك البشر في قفص وجعل القرود تنال منهم.

كانت سوسو منهمكة في لفت انتباه القرد هي الآخرى، ولكن القرد الحكيم بلغ سئمه من المتفرجين نهايته وقاطعهم مديراً ظهره لهم.

جذب انتباه سوسو مجموعة صبيان تسخر من القرد ينوون على فعل عمل شيطاني، فتشجعت وهتفت:

-- يا قرد يا عبيط!

– عيب يا سوسو. ما تقوليش الكلام الوحش ده!

نظرت إليه وانتابها الحرج. ثم أدارت عينيها بعيداً، وفكرت إذ كانت ستدافع عن موقفها وتتحداه وتهين القرد مرة آخرى، لكنها التزمت الصمت.

انتقلا بعدها إلى بيت الزرافة، ثم إلى الأسد الذي رقد مولياً ظهره للبشر هو الآخر، مانحهم نظرة حازمة كل حين، ثم ناظراً بعيداً كأن لديه مشاغل أهم.

حتى الببغاء لما جاء دوره بدا وكأنه فقد قدرته على الكلام. بدت الحيوانات كلها ضجرة ومملة، لا تآبه بتحرش الزوار وكأنهم اتفقوا بينهم لمقاطعة البني أدمين السخفاء. كانوا يريدون فقط أن يتركوهم في حالهم.

تبدد الحماس من وجه سوسو كلياً، وتحولت فرحتها إلى خيبة أمل لا تضارعها إلا بقايا من التفاؤل. كانت على موعد مع درس قاس للحياة،

وهو عدم تطابق الخيال مع الحقيقة.

هذا هو أول درس يا ابنتي!

شردت أفكارها الصغيرة، وانكمش تفاعلها مع محيطها، فلم تعد تستوعب ما يثير اندهاشها.

– تحبي نخرج؟

سألها، فأومأت برأسها مطيعة كالأطفال.

اتجها إلى بوابة الخروج، وهو ساخط على أهل بلده الذين يجب عليهم تعلم معاملة الحيوانات أولاً قبل زيارتها.

هربا بعيداً إلى الزمالك واستقلا باخرة "نايل سيتي". أمسك يدها وهما يعبران الجسر المؤدي إلى الباخرة. جلست خلف مائدة كبيرة كادت أن تختفي خلفها، وأرجحت ساقيها الصغيرة في الهواء.

– تاكلي إيه؟

– بيتزا!

ردت بحماس وهبت فيه الحياة من جديد. يتخيل أحياناً كيف سيختلف مظهرها لما تكبر، وتصبح شابة حسناء تجلب له الكثير من المتاعب. التفتت حولها بعينين متفكرتين.

ترى ما الذي يدور في خلدك يا ابنتي؟

– بابا.. أنا مش عاوزة أروح المدرسة تاني!

– ليه يا سوسو؟

- عاوزة أروح مدرسة تانية.. علشان المّدرسة بتضايقني.

- طب أنت عملتي لها إيه؟

روت له كيف تشاجرت مع صديقة لها، وجاءت المدرسة وأنصفت الطفلة الآخرى..

حتى أنت يا سوسو ينتابك الإحساس بالظلم! ماذا ستفعلين لما يتقدم بك العمر؟

- أنت قلتلها إيه؟

ترددت قبل أن تعترف:

- قلتلها يا حمارة. فقالت لي: أهه إنتي. وبعدين الميس جت وعاقبتني.

- وليه شتمتيها أنت الأول؟

- يا بابا دي حمارة أوي، ما بتفهمش حاجة.

لم يدر إذ كان ينظر لها بحزم مجدداً، ويتقمص دور الأب الصارم.

- حمارة وغبية ومعزة.

- سوسو!

أدرك أنها مازالت غاضبة لأنه وبخها في الحديقة. ستلتزم بالصمت حتى يصالحها. لكنه انتظر بدوره. فلا يريد أن يدللها أكثر من اللازم!

لم يرفع يوماً يده عليها. ربما ضربتها أمها.

أحضر النادل البيتزا، فتغاضت سوسو عن خلافهما وهتفت في حماس:

– هيه!

لم يملك إلا أن يبتسم، دائماً تجعله يبتسم. تتكون شخصيتها وتتصرف كالكبار، وهي لم تتجاوز الخامسة بعد. يشتاق مسايرتها في الكلام أثناء غيابها عنه طوال الأسبوع، لما تحكي له عن مفاتن عالمها الصغير المتكون من أصدقائها وأرائها العجيبة.

أمسكت الشوكة في اليد اليمين والسكينة في اليسار.

– بالعكس يا حبيبتي!

بدت مرتبكة وهي تعيد ترتيب يديها. ثم شرعت في تقطيع البيتزا بمشقة.

– استني، لسا سخنة!

لم تسمع الكلام. وضعت قطعة كبيرة في فمها، فصاحت متألمة، وفتحت فمها، وبصقت ما تناولته.

لا يتعلم المرء إلا بالعناء!

تناولت قطعة أصغر بحذر، واستشارته بعينيها قبل أن تمضغها بتأن.

جلس زوجان في منتصف العشرينات على مائدة بجوارهما، كانا يداعبان طفلتيهما في الحمالة ويسران كلما تبتسم لهما أو تفتح فمها الصغير، فيتبادلان نظرة أبوية حنونة.. ثم انشغل الشاب بقراءة قائمة الطعام بوجه جاد. لاحظ السعادة تزول سريعاً من وجهيهما وتتبدل بعلامات الإرهاق، كلما تنشب لحظة لا تستوجب رد فعل بينهما.

سأل الشاب الزوجة إذا كانت أحضرت البيبرونة، فردت بنبرة دفاعية.

– وأنت ليه ما جيبتهاش؟

رمق الزوج الطفل في قلق، وكأنه يخشى اندلاعه في البكاء دون "البيبرون"، فينشب صراع حتمي بينهما. أسرع بتبرئة نفسه، وأدلى أنه قام بترتيب الشنطة، ولكنه ظنها هي ستتذكر "البيبرونة". ستفتح "البيبرونة" مجالاً للوم أخر..

التهمت سوسو البيتزا في شغف، وامتلأت معدتها الصغيرة بعد مضغ شريحتين. فراحت تمضغ باق الطعام في ضجر، وامتثلت على وجهها علامات التفكير.

– بابا.

بدا عليها التردد. لو بوسعه أن يعلم المخاوف التي تجول في ذهنها.

– هي الموسيقى حرام؟

توقع هذا السؤال منذ أجل..

– أصل أنا قلت لشهد إنك بتعزف موسيقى، وهي قالت لي باباك هيروح النار.

ابتسم رغم غيظه. الأطفال غالباً ما تعيد ما يزرعه الوالدان الحمقاوان في عقولهم الصغيرة.

– لأ يا حبيبتي، الموسيقى مش حرام، الموسيقى أحلى حاجة في الوجود، لو كانت الناس بتسمع الموسيقى أكثر، كانوا هيبئوا أحسن.

نظرت إليه بعينين واسعتين لم يفهما قصده، فأردف:

- الموسيقى حلوة.

تفكرت وهمهمت:

- أنا عاوزة أسمعك بتعزف.

هل سترضى أن تزورك يوماً في البار؟ تستطيع أن تأتي إلى الساقية، لكن ليس البار.

تساءل إذا كان سيزاول العزف حتى تصبح شابة.

ربما تنضم لفرقة آخرى أو تعزف في فندق، فهذه هي الحياة التي اخترتها.

اندلع الطفل جوارهما في البكاء. تجهم وجه الأم وحملته في محاولة بائسة لإسكاته، بينما اكفهر وجه الزوج واختبأ وراء القائمة.

راحت سوسو تنخر بالشوكة في طعامها.

- لو شبعتي يا سوسو، هقول للرجل يلفلك البيتزا وتكليها بعدين في البيت.

رمقته بشك. تخشى أن تفقد البيتزا لو تخلت عنها.

نهضت الأم وأخذت معها رضيعها، بينما مكث الشاب كاظماً غيظه الذي سيفرغه حتماً أثناء إحدى الليالي المشحونة.

نخر بشوكته هو الأخر في أكله.. لم يكن يتوقع أحد انفصالهما..

كفاك تفكير! انظر إلى ابنتك وكيف ترتسم علامات التفكير على

وجهها الصغير هي الآخرى، فقد ورثت القلق عنك.

أشغلي أفكارك بأمور مبهجة يا بنتي!

– عاوزة حاجة حلوة؟

تخيل أن الحلوة ستسعدها، فتسعده هو الأخر.

ولكنه تذكر تعليمات أمها، وكان قد فات الأوان.

أومأت برأسها غير واثقة إذا كان يحق لها ما تم عرضه عليها.

سألها في قلق:

– بطنك مش هتوجعك؟

هزت رأسها نافية. لم يبد على وجهها الحماس الحقيقي، لكن ليس بمقدوره التراجع الأن.

أحضر لها النادل كأساً مليئاً بالأيس كريم و"سوس" الشيكولاتة.

لو آلمتها معدتها، ستنتهز أمها الفرصة لتصفي حسابات قديمة.

رغب في إشعال سيجارة. راقب سوسو متعكراً وهي تفرغ الأيس كريم، ثم طلب الحساب.

الوقت يسرقهما، رمقها وانتابه الأسى أنه لم يسعدها كفاية.

– نروح نسّلم على عمو توفيق قبل ما تروحي؟

أشرق وجهها من جديد وأومأت بطيبة. من اليسر أن تسعد الأطفال!

رجعت الأم الشابة، كان الطفل قد كف عن البكاء، واستكن وجهها بعد تخطيهما المرحلة العسيرة. لمحت زوجها بنظرة حنونة، فقرر دفن

خلافته هو الآخر، على الأقل الأن، وضع القائمة جانباً وتفرغ لها ولطفلته.

أخذ سوسو من يديها، وانتظرها وهي تنزل السلالم الكبيرة بساقيها الصغيرتين. سارا معا إلى السيارة، كأب وابنته.

الليلة أول عرض لفرقة توفيق الجديدة. وعده أنه سيتمم معه على الصوت، مع أنه تفكر أنه كان بالأولى في حاجة لمساندة معنوية.

لعب شباب كرة القدم بين الجامع ومدخل الساقية. أخذ سوسو على جانبه الأيمن، ليحميها من ركلة طائشة. لاحظ الحماس يضفو على وجهها وهي تسير جانبه فوق الجسر الصغير الذي يفضي إلى قاعة النهر. اصطحبها مرات أثناء "البروفات"، فتلهو في الحديقة وتلعب مع العاملين الذين ألفوها واعتادوا مشاكستها.

لوحت لتوفيق الذي كان واقفاً مع مهندس الصوت خلف "الميكسير".

– سوسو يا بنت الإيه!

أمسكها من يدها بإحكام، كي لا تندفع وتهوى فوق الدرج بتسرعها، لم يتركها إلا لما ثبتت قدميها على الأرض. اندفعت راكضة إلى ذراعي توفيق الذي أمسكها ورماها لأعلى وهي تقهقه وتغلق عينيها من الخوف، ولما أنزلها إلى الأرض صاحت:

– تاني!

– بس يا سوسو! عمو توفيق خلاص عجّز ومش قادر يشيلك.

رمقه توفيق في تحدي:

- فشر، طب تعالي بنا.

راح توفيق يركض بها في القاعة، وهي تصرخ من الفرحة.

حيّا مهندس الصوت وفريق العاملين. ألقى نظرة على محموله، لم تبعث بأي رسالة.

- سوسو، سيبي عمو توفيق يشتغل دلوقتي!

راحت سوسو تداعب عاملي الكافيتيريا وتجيب على أسئلتهم ببراءتها الطفولية.

تفكر إذا كان سيحضر خالد، لقد عارض فكرة تكوين توفيق فرقة أخرى بشدة..

راقب سوسو كل حين لتخوفه أن تقترب من حافة النيل، ثم لم يطق الانتظار. اتصل بها مدركاً أنه يرتكب خطئاً.

- أنا مع سوسو، هوصلها، وأرجع الساقية، تقابليني هناك؟

لم يلتقيا منذ أسبوعين. آثرت الابتعاد، وهو وافقها، تعّود أن يتقبل الأوضاع كما تطرح نفسها.

لم يتمالك نفسه من التورط في علاقة مؤقتة يسكن بها الآلام.

جلست سوسو في السيارة تطل من الشباك في صمت لم يرق له.

- ما عندكيش واجب تعمليه انهارده؟

- خلصته امبارح مع ماما.

أراد أن يقول شيئاً لكسر حاجز الترقب بينه وبين ابنته البالغة من العمر خمس سنوات.

– بابا. هو أنت وماما ليه ما بتحبوش بعض؟

تندفع منها الأسئلة بتلقائية، وهو يعلم أنها ليست كذلك.

– احنا بنحترم بعض يا حبيبتي!

معني "نحترم" يفوق غالباً قدرة استيعاب طفلة تبلغ من العمر خمس سنوات، لن تستوعب حمل تلك الكلمة. لكنها اكتفت برده، وحملقت أمامها متفكرة.. يود لو كان بإمكانه أن يقدم لها أي اعتذار.

– بابا.

استعد لتلقي صفعة جديدة.

– هم المسيحيين كويسين؟

بدأ صبره ينفد. أتمازحه؟

نظر لها متعجباً. ولكنها كانت مصرة على نيل جواب.

– أيوه كويسين!

ارتسمت خطوط تفكير على جبينها.

– أصل أنا عندي صاحبة اسمها كريستين في المدرسة، وهبة قالتلي إنها هتروح النار.

– هبة دي متخلفة!

رمقته باندهاش، ووضعت يدها على فمها الصغير، غير مصدقة ما قاله للتو، كأنه هو الطفل.

أدرك أنه أخطأ، فابتسمت وكأنها شريكته في الجريمة وستتستر عليه. عاودت:

– طب هم ليه بيعبدوا رب تاني؟

– ما بيعبدوش رب تاني ولا حاجة، هما بيعبدوا ربنا بس بطريقتهم.

لم يشأ الاستمرار في هذا الحديث.

– أنا بس عاوزة أقولك، أنا معايا واحد في الفصل، اسمه عماد، هو مسيحي، وأنا هتجوزه.

رمقته بحذر لتتبين رد فعله.

لم يرد عليها. أراد أن يوصلها في أسرع وقت دون الاستماع لمزيد من مناكفتها.

– أنت متضايق مني؟

– لأ!

– طب، موافق أني أتجوزه؟

سألته بنبرة متحايلة، كأنها تريد تناول "الأيس كريم".

تريد أن تناكفه مثل باقي الخلق، زفر.

– ما ينفعش تتجوزي قبطي!

– ليه؟

تغيرت نبرتها، وكأنه يشكك في إمكانيتها.

– علشان المسلمين بيتجوزوا مسلمين والأقباط بيتجوزوا أقباط بس.

– ليه؟

يا رب ارحمني!

..

تنهد بارتياح وهي تخطو مدخل العمارة. أحس بجهد أبوي لم يعتده، وتشكك في نفسه، كعادته.

ثم اتصل بأمها يبلغها أنها في طريقها لأعلى. تسلل بصره للشرفة في الدور الثاني، وتخيلها بشورتيها الأصفر، وتيشرتها البيتي المخطط، تجتاز الغرفة بشبشبها، منكبة على تنظيف الغرف وإعداد الطعام. بعدها ستجلس على الكمبيوتر لتتواصل مع الحياة التي كان بمقدورها الحصول عليها.

رن هاتفه. بعثت له منى أنها في طريقها إلى الساقية. غمره الشعور بأنه على وشك استلام امتحان، يدرك مسبقاً أنه رسب فيه.

أدار موسيقى عازفه المفضل، "جانجو راينهارت"، رنت نغمات الجيتار المعقدة للغجري البلجيكي الذي عزف أسطورته بثلاث أنامل فقط، لأنه وهو صغير نشب حريق في عربته أسفر عنه حروق بالغة أصابته بشلل في إصبعي البنصر والخنصر، وبالثلاث أنامل وضع الأسس لعزف جاز الجيتار.

رخت أعصابه لدى سماعه النوتات الملائكية، أوتار الجيتار تخاطب

كامنجا. تدعو المقطوعة: سأنتظرك! وهي عبارة عن حوار بين عاشقين يتمثلان في جيتار "جانجو" وكامنجا "ستيفان جرابيلي"، صديق عمره، الذي بدأ بالعزف في شوارع باريس مقابل التبرعات.

حنت الكامنجا بنغماتها الأنثوية واعدة حبيبها بانتظارها الأبدي، بينما رن الجيتار حراً طليقاً ومتهوراً أحياناً، لكن معلن لها ولاءه التام، فترجع الكامنجا تحتفل بحبهما وتدنو قريبة وبعيدة المنال بينما يثب الجيتار في فرحة..

4

اجتنى كوب من الشاي، وجلس فوق المدرجات في حديقة النهر يحتسي طعمه ببطء.

تابع السيارات السارحة على الضفة الأخرى من النيل، بيوت العجوزة الغير متجانسة في الخلفية. وطاردته أسئلة سوسو وأجوبته البائسة.. بابا عاوزة اتجوز..

شعر بالجاذبية تضاعف وتفرض عليه تثاقل يكاد يكبحه أرضاً. قضم كوب البلاستيك وترامت إلى منخاره رائحة نتنة نافذة من النيل. تبين من الساعة.. ستأتي. قال لنفسه.

كان الليل ينقشع من جوف النهار، فيما يبدو ولادة طبيعية. اختلط

لون الشمس الباهت بالسماء فأضاف عليها لوناً قرمزياً، وبدت رقيقة في هزلها..

رست مركب حاملة على متنها شباب قاموا بالتو بجولة نهرية "ثقافية". تشاكسا في الساحة قطان راحا يهاجمان بعضهما، فينتفضان ويتأهبان للهجوم من جديد، تمدد أحدهما وفرد مخالبه على استعداد لبطش الآخر الذي تسمر أمامه في حرص. اقتربت منهما فتاة مسرورة بالمشهد وسجلتهما بمحمولها.

اختلس نظرة للساعة، لم تفت إلا خمس دقائق..

اقترب منه توفيق بعد ما فرغ من استعدادات الحفل. جلس بجانبه وتابع الضفة الآخرى للنهر بدوره، لتظهر له ما تتراءى له نفسه. كان مترقباً وعلل ترقبه هذا بالعرض.

- في مظاهرة بكرة عند قسم لاظوغلي.

رمقه غير مصدق، ثم صاح فيه:

- تاني يا توفيق؟ أنت ما حرمتش؟

ابتسم توفيق وتواربت شفتيه كما تتوارب أثناء عزفه.

أراد أن ينهره ثم يجادله ويقنعه بعدم الذهاب، ولكن في هذه اللحظة وصلت. في وقت غير مناسب كعادة أي شيء في الحياة..

ارتدت "جيبة" بيضاء وبلوزة زرقاء، وتدلت عرضها شنطة كبيرة، دائماً تساءل ما تحتويه. انسدل شعرها الكستاني على جانب صدرها، لم يرفرف، وكأنها وضعته بإحكام.

قابلته بإشراقة خلت من أي ترقب، صرفها كخدعة.

- اتأخرت عليكم؟

عليكم؟

قام توفيق منتفضاً:

- منى، إيه المفاجأة دي؟ طيب، لما أروح أجهز نفسي للحفلة، هشوفك!

- احنا لسا ما خلصناش كلامنا!

قال له وخيل إليه أن نبرته بدت حازمة أكثر من اللازم.

سيحكم رأيه ويشترك في المظاهرة إذ لم يسايره..

وقفت مترقبة وكأنها تنتظر موافقته للجلوس، فباغتها مندهشاً:

- اقعدي!

تمهلت ودرست خطوتها بعناية، ثم ما لبثت أن مسحت "جيبتها" بيديها، مغربلة في الجو عطراً نسائياً قبل أن تسترخى فوق الوسادة العريضة.

ارتاح لوجودها في آن، زالت التوجسات وتمنى أن يتناول يدها كما كان يفعل أو يلامس ظهرها برفق كي يؤكد هذا الشعور. ابتسمت كما ابتسم هو لسوسو طوال اليوم.

أيحكي لها عن مواقف سوسو المضحكة واقتحامها عالمهم ببطء؟ أم يروي لها عن توفيق وقلقه عليه كصديق؟ أي شيء سيجدي ليتفادى الكلام عنهما.

بمقدورهما أن يجلسا فقط ويتأملا الضفة الآخرى للنيل.

كم كان يرتاح لتأمل الظلال المرتاعة فوق سقف غرفة نومه بعد معاشرة زوجته، مستلقيان عاريين فوق السرير في سكينة تامة دون الاحتياج للنبس بكلمة أخرى.

– عاملة إيه؟

سمع نفسه يصرف هذا الخاطر.

بادلته بشك. تتغير النظرات كأنها ليست الأعين نفسها، كما لا تتغير الأنف ولا الشفتين، وإنما الوجه..

أنزلت الشال من فوق رقبتها، وطبقته في إحكام قبل أن تدسه في شنطتها. ابتسمت بتكلفة، مكتفية بذلك كإجابة.

تمهل وأعطاها المجال. تأقلمت بسرعة مع إيقاعه وسألته:

– عملتوا إيه في "الزو"؟

لم يكن "زو"، بل معسكر تعذيب للحيوانات.

– الحيوانات كانت ظريفة والناس سخيفة.

أتى دورها في الكلام. بادلته منتظرة. أدرك أنها لم تحسب رده كافياً. لكنه أصر على صمته، فسكتت هي الأخرى.

لم تكن بداية موفقة..

ثم في وهلة ما قالت شيئاً لم يتفهمه إلا في منتصف الجملة.

– ماما عاوزاني أقابل عريس.. تعرفت عليه في الكنيسة.

تقبل كلامها كأنه المخرج الطبيعي لموقفهما!

حملقت أمامها مثلما فعل توفيق قبلها، وهو قبله. ثم أدرك أن الشعور الطاغي الذي استشعره منذ استيقاظه ويستشعره كل صباح، ليس هو سوى العجز، وقد جاء الأن ليعلن عن نفسه بقوة.

– فاروق!

ألتفت إليها، فرمقته بتأفف.

– أنت مش هتقول حاجة؟

مر شابان يرتديان "تيشيرتات" واسعة، وقبعتا "بيسبول" ووشاحاً ملوناً يعلن عن انتمائهما لعصابة ما "بالويستكوست"، تحركا بخطوات عاجلة وثابتة نحو المخرج، ليصّفان عصابة عدائية بالغالب.

رفعت ساقاً فوق الآخرى، وأرجحتها بعصبية خفيفة، كانت ترتدي حذاء سطحياً يكاد يكسو الأنامل ويظهر طرفها. لذلك لم يسمعها تقترب.

أدرك أن عليه التفوه بشيء. أغلق عينيه وفتحهما، و لم يحصل شيء.

تابع "الرابرز" أخر القاعة يغادرونها والخطورة تلفهما..

جسدها ووجهها ملتفتان له، وهو مناصر النيل كأن ما يجري على ضفتيه يتطلب كل اهتمامه.

تسمرت ساقاها وانتقلت العصبية لنبرتها:

– فاروق!

لا تستطيع إجباره على التحدث. لا تستطيع تغيير دينه أو دينها. جالت ببصرها إلى أين ينظر، وتخيل أن عينيها تذرف دمعة.

حملقت فيه مجدداً، ربما بعزم تلك المرة، محاولة يائسة، ثم صرفت نظرها عنه.

داعبت شفتيها بأناملها. بدتا كبوابتين منغلقتين أبديتين للصمت.

لن يتبق إلا بعض ثوان وتغادر، ربما دقائق..

فلتت من حنجرتها ضحكة ساخرة ما لبثت أن تحولت لشيء حزين.

فردت بأناملها "جيبتها" واعتدلت في مجلسها، فباتت ملتفتة للنيل. أسندت وجهها على يديها المتكأة على ساقها، وراحت تعض شفتيها، كلها محاولات بائسة لإعادة الحياة لعلاقة ميتة.

رجعت تحملق فيه باستغاثة، وهو يصمد لكل تلك المحاولات، باذلاً أقصى جهده في التجمد.

غضت بصرها آخيراً وراجعت موقفها، ثم اتخذت القرار.

لا يعرف كم من الدقائق مكثت هكذا، في وقت ما نهضت وواربت حاملة الشنطة المعلقة على كتفها في حركة قاسية، قبل أن تنصرف واضعة خاتمة لعلاقة منتهية التاريخ.

لم يميز أخر نظراتها. و لم يصدر حذاؤها أي صدى.

التفت ناحية المخرج، ليلقي نظرة أخيرة عليها وهي تصعد الدرج. أطلق أحد تعليقاً مضحكاً، لحقته قهقهة. شرع في تتبع الصوت، ولما ضاع بصره في الزحام كانت قد اختفت.

باستطاعته أن يصل إليها على المحمول، تفكر. مازالت هناك مهلة لإصلاح الأمور. بقدرته استرجاعها.

أقبل المغرب و لم يبقى على بداية الحفل إلا لحظات. لابد أن توفيق منشغل الأن باستعداداته.

ستعزف الموسيقى وسيستمع إليها.

5

اقتحمت امرأة في الخمسينيات الحديقة.. خطت بتأن إلى مائدة شاغرة، وجلست معطية ظهرها للنيل.

كانت أنيقة المظهر، حسنة الملامح، ملابسها سوداء، وترتدي جاكيت "شامواه" فاخر.

لم يع بها إلا وهي جالسة عن كثب منه، فاندهش أنه لم يرها تدخل.

استكنت على وجهها قناعة حزينة، بينما شعت عيناها عزة وكرامة، فطلى حزنها طبقة من الوقار. أغلقت عيناها لتستقبل نفحة هواء منعشة هزت شعرها الرمادي المموج.

لاحظ أخرون يختلسون النظرات إليها. لابد أنها كانت جميلة في

شبابها، ثمة شيء فيها يجذب الأعين، ثمة شيء في مظهرها ذكره بهوانم "جاردن سيتي".

تعدت بلا شك الخمسينيات. تشابكت نظراتهما وهلة، فطل بعيداً، لكن لم يسعه إلا أن يعاود ملاحقتها. اعتدلت في مجلسها ورمقت النيل وفي عينيها نفحة من الوجل.

تلاقت أعينهما مرة أخرى. مطّ شفتيه في شكل ابتسامة لم تردها، و لم تفتر بها أيضاً. خفضت بصرها وتأملت يديها الراقدتين في حجرها.

تجلى بجسارة منبعها الخسارة، فنهض وبمجرد أن دنا منها تفتت عزيمته وتردد..

التف شال رمادي حول رقبتها بإحكام، وبدت باق ملابسها متناسبة وتكسو جسدها بدقة. التمع وجهها بزينة خفيفة ورمقته بعينين حزينتين دون ترحيب.

- مساء الخير؟

وقف أمامها تائهاً.

بادلته في استنكار. وأحس بركبتيه ترتجفان. تمتم مترجياً، شبه متوسلاً:

- ممكن أقعد؟

لقد أخطأ! لن يحتمل رفضاً آخر الليلة.

تخيل أن شفتيها ستفرجان عن سخط يصيبه مثل سوط لاذع، لكنها لم تعره انتباهاً.

بات موقفه محرجاً. اتخذ قراراً أن يتراجع قبل أن يجعل من نفسه أضحوكة، ومعظم رواد الحديقة يعرفونه. سخط من نفسه لقيامه بتلك الحماقة..

اعتلت فجأة نغمات سريعة متتالية الجو، لحن "تانجو" من أمريكا اللاتينية. استحضر في ذهنه صورة رجل وامرأة يتعانقان في أناقة ويدوران بسيقانهما المشدودة حول بعضهما.

كانت الأنوار قد انطفأت فوق المسرح، واستطاع أن يميز توفيق منحني الرأس يداعب الأوتار. إنها أول مرة يراه واقفاً على المسرح ولا يكون بجانبه.

وجد نفسه مازال متسمراً أمامها، وقد ارتكزت بعينيها عليه في هدوء بعد ما لم يرحل. لعل تقدم عمرها هو ما منعها عن نهره.

بادلته بعينين متسائلتين، خاليتين من أي قسوة. خيل إليه أن تلك العينين سمحا له بالجلوس، فجذب كرسياً، وجلس بجانبها مترقباً رد فعلها. توقع شرذمة ناسفة ستنفجر فيه أي لحظة. لكنها لم تنتفض، لم يعل صوتها، رمقته بفتور فحسب.. الأرجح أنها تسبقه سناً، وبدا بديهياً أنه لا ينوي معاكستها.

تمعنت يديها، كفتاة صغيرة تستدل بهما لاستشعارها الخجل. وتراوحت نظراتها بين لألأة المياه الفضية والمسرح.

– أنا اسمي فاروق!

حملقت أمامها.

- حضرتك جاية علشان الحفلة؟

واربت شفتيها وأشارت برأسها نحو المسرح.

- حفيدي!

- عازف البركيشين؟

شاب صغير السن، شعره الطويل يهتز مع كل ضربة على "الدرامز".

- أنا صاحب توفيق اللي بيعزف.. أنا بعزف جيتار معاه في فرقة تانية.

بدا على وجهها علامة التعرف.

- مارو حكالي عنه!

تتكلم ببطء وكأن عامل الوقت لديها له حافز أعمق. تساءل كم تبلغ من العمر..

ارتفعت فجأة نغمات جيتار وديعة وسريعة تتوارى واحدة تلو الأخرى، عزف ارتجالي حر وطليق.

من هذا؟ أطل برقبته، كان شاباً، لم يره من قبل، كان يعزف "الشان شان". موسيقى عذبة كالحلم من كوبا..

لم ألحن "شان شان". لقد حلمت بها، حلمت بالموسيقى. أحياناً أستيقظ وفي رأسي نغمة، فبقدرتي أن أسمع الألات بوضوح. أطل من البلكونة ولا أرى أحداً، ولكني أميز الموسيقى، وكأن أحداً يعزفها في الشارع. ولا أدري منبعها. وفي يوم ما استيقظت واستمعت لتلك النغمات الأربعة،

وزودتهم بكلمات، قصة حكيت لي في طفولتي..(*)

التفتت إلى المسرح بهدوء. راقت له سلوتها. هذا الحزن النافذ في عينيها، تآني حركاتها التي تثير بداخله الألفة. رمق يديها اللاتي سرت فيهما التجاعيد، فيما روى المغني:

- إني ذاهب من "ألتو سيدرو" إلى "ماركانيه، ثم من "كويتو سأرحل إلى "ماياري"..(**)

لولا قيام المنتج الأمريكي وصديقه برحلتيهما المجنونة لكوبا لكان "كومباي" ورفاقه قد تعرضوا للنسيان وانقرضت موسيقاهم في شرائط قديمة قضى عليها الغبار.

قام المنتج بالبحث عنهم بعد ما عثر بالصدفة على شريطهم، وجمعهم واحداً تلو الأخر. أشهرهم "إبراهيم فرير"، الموهبة الفذة التي قضتها الأيام تلميع أحذية المارين في شوارع هافانا بعد ما خذلته الموسيقى و لم توعده بشيء.

لن ينسى هذا المشهد المؤثر و"إبراهيم فرير" يتلقى بوجه شامخ "ستاندينج أوفاتين" من قبل جمهور "كرنيجي هول"، نخبة الموسيقى العالمية، وهو يحدق فيهم بذهول وكرامة وعدم تفهم، بوجه حفرت المعاناة فيه الندابات، تتخلله العاطفة كأنه قضى عمره كله من أجل تلك اللحظة، وكان قد تقبل منذ زمن أنه لن يجدها.

(*) العازف الشهير "كومباي سوكوندو" عن أغنية "الشان شان"
(**) أغنية "شان شان" لفرقة "بوينا فيستا سوشيل كلاب"

اشتد الإيقاع ودوى صوت "البركيشين"، ثم انتهت المقطوعة. تلاها تصفيق متواضع.. لم تكن الصالة ممتلئة، وشغرت مقاعد كثيرة في الصفوف الخلفية.

ترى لما جلست بعيدة عن المسرح؟

لعلها لا تحتمل صخب الموسيقى أو أرادت أن تحظى بالموسيقى والنيل معاً. توحي جلستها ونظراتها أنها مازالت امرأة.

عزفت الفرقة أغنية مفعمة بالطاقة، تحكي عن امرأة تدعى "تولا" نسيت أن تطفيء الشمع قبل أن تنام، فاحترق بيتها. ويكرر المغني أن "تولاً" نائمة والنار تلتهم غرفتها..

تلاه لحن لاتيني صاف، وغنت امرأة في منتصف العمر تبدو من أمريكا الجنوبية بصوت حازم وثقيل كالرجال، تحكي قصة حبها وفقدانها لحبيبها، وتنهي البيت بالكلمتين "تي كيورو.. تادورو".

– يضايقك لو دخنت؟

هزت رأسها، ليتها تصغره أو تسبقه ببعض الأعوام.

– إيه رأيك في عزفه؟

– دائماً داوشنا في البيت!

ابتسم وزالت منى من باله.

أراد أن يجاملها:

– عنده موهبة!

– أمه مكانش عندها وقت تيجي.

قالت أمه، ليس "مامته".

– مش شكلك جدة خالص!

– زمان ماكناش مشغولين بحاجات كتيرة زيكم دلوقتي.

قالتها بدلال جعلته يحسد زوجها الذي نعم يوماً بجمالها.

مرت باخرة بجانبهما على متنها فتيان وفتيات محجبات تصاحب معها ضوضاء لأغنية شعبية.

انتظرا حتى عبرت، سألت:

– قلت بتلعب جيتار؟ أعتقد مارو سمّعني أغانيكم.

– عجبوكي؟

ابتسمت مراوغة.

– أنا من جيل تاني.

ثم أردفت:

– أنتم جيل "الفيسبوك".

– ما عندكيش "أكونت"؟

– لأ، عندي.

ضحكت.

– أهه تسّلية.

تأملت النيل بيقظة غابت عنها من قبل، وحسبها ألفت صحبته.

ماذا لو ظفر بها بعد حياة مخفقة، استعوضه عمّا مضى؟

- أنا كنت مع بنتي انهارده في جنينة الحيوانات.

يسرى انسجام بين شخصين عندما يتحدثان دون تكلفة.. وطابت نفسه للبوح بما توحي أفكاره من مشاعر.

- مارو وهو صغير وديناه "الزو". خرج وهو بيعيط، الحيوانات صعبت عليه.

- أنا تعاطفت أوي مع الشمبازني.. فكرني بنفسي وأنا واقف على المسرح والناس بتتفرج عليّ.

- أنا بنا تعاطفت مع الزرافة. أصل رقبتها طويلة أوي ومش منسجمة مع باقي جسمها. وبعدين بتشوف حاجات مش عاوزة تشوفها.

أتقصد نفسها؟

ظهر خالد. وقف وحيداً أمام المسرح يستمع لتوفيق وفرقته.

اعتلا "بيس" توفيق معزولاً عن باق الألات. لا تتيح له الفرص بعزف "سولوهات" مع فرقتهم.

كان يرتجل.

حكى "باكو دي لوسيا" عازف الجيتار الأندلسي كيف في بداية مشواره سأل عازفاً خبيراً عن الارتجال، فضحك الأخر معللاً أنه لا يمكن تعليمه. حكى "باكو" أن الصداع كاد أن يشطر رأسه في البداية. فالارتجال مخاطرة والعازف يهوى في فضاء فارغ، ولا يدر أين سينتقل بعد خمس

عشرة ثانية من عزفه، فيتنقل من وتر لوتر، ويضحي بنقاء الصوت من أجل اكتشافاته.. ولا أحد يسافر بسرعة العازف.. عازفو الموسيقى الكلاسيكية لا يرتجلون، ويعزفون بطريقة تنظيمية..

بقدر العازف أن يبدع عندما لا يكبله الجمهور بالتوقعات..

حركت رأسها فاهتز شعرها المموج كنسمة عابرة وأدرك أن عليه أن يرتجل هو الأخر.

- ما عندكوش "سي دي"؟

هز رأسه.

- جايز حد يكتشفكم.

- أنا كبرت خلاص.

رمقته متفحصة:

- مش باين عليك. أنت لسا صغير!

لم يرق له تذكيرها بأنه يصغرها.

- عندك كم سنة؟

- 41.

لا يجوز سؤال امرأة عن سنها.

- وأنت؟

- 54. خلّفت بدري. حاولت أنصح بنتي تستنى شوية، لكنها طالعة

عنيدة زي. اتجوزت وخلفت واتطلقت، وهي ومارو عايشين معايا دلوقتي.

– وجوزك؟

– توفى.

شدا المغني بالأسبانية:

– ما أشعره تجاهك، لا أقدر على إنكاره. فاللعاب يسيل في فمي وليس بقدرتي فعل شيء تجاهه.

– كنت بتحبيه؟

– زمان ما كناش بنتجوز عن حب! كان من عيلة وأنا من عيلة.. عريس لقطة زي ما بيقولوا، وأنا نفس الحكاية.. كان في واحد فينا بيحب التاني أكتر.. لكن الأهم كان في ما بينّا احترام متبادل.

توغلت عيناها في وعي يلتهم ذكريات ويطفو بها وقتما ما يشاء.

– كان لي ابن عم بيحبني لدرجة الجنون. حتى إني فكرت أنه ممكن ينتحر بسببي والناس تحمّلني ذنبه. ولما جوزي اتوفى من سنتين جيه يعزيني. حسيت أنه لسا بيحبني زي من تلاتين سنة، ومستعد يتجوزني لو أدتله إشارة.

– وأنت؟

– كرهته بعديها!

احتدمت القسوة على وجهها.

– مش مفروض حد يحب حد بالشكل كده!

أردفت بعد فترة:

– ساعات الواحد بيتخذ قرارات، وبعدين يكتشف أنه لو كان خد قرار تاني كانت حياته زمانها اتغيرت.

ثم سألته:

– أنت مش ندمان؟

ابتسم بخيبة وتفكر أن حزنه يدفع النساء بعيداً!

– مش لازم تجاوب!

رنت في الخلفية كلمات بالإنجليزية:

– قرعت بابك و لم تآمري لي بالفتح..

أحس فجأة بإرهاق شديد. تنهد بعمق وكأنه يزفر هواء زائداً في صدره.

التزما الصمت، كأنهما استنزفا رصيدهما في الكلام، وأي كلمة إضافية ستكون غير صادقة.

ثم سمع توفيق يشكر الجمهور، فلفت الشال حول رقبتها بحزم وقامت.

6

ودعته وذراعاها ملتفتان حول عنق حفيدها.

شاهدهما يغادران، وتفكر أن هذا القطار فاته منذ زمن.

- مين دي؟

وجد وجه عاطف المدور يحدق فيه بفضول.

- نازلي هانم!

كان خالد يحوم حول المسرح. مازال لا يستطيع تقبل فرقة آخرى. لم يكف عن اعتراضه، إلا لما وعده توفيق بأنه سيعطي الأولوية للفرقة..

كان توفيق يستقبل التهاني بحبور، مرة نادرة ترتكز عليه الأضواء ويخرج من ظلال دور "الباسيست" المجهول.

- مين نازلي هانم دي؟

رمقه عاطف بعدم تفهم، فضحك.

تنازل خالد عن وحدته وأردف إليهما. ثم ما لبث أن أقدم على تهنئة توفيق الذي كان يفيض فرحة وقد حقق حلمه.

ترقب خالد في قلق وهو وتوفيق يتحادثان، لكن خالد أشاد فحسب فيما يشبه الحياء بالعزف الجماعي للفرقة مع إبداء بعض التحفظات على مقطوعات غير مكتملة، ينقصها النضج الفني، ثم تخلص من علامات الاقتضاب تدريجياً، واندمجا الاثنان في الحديث، وتوفيق متقبل نقده بصدر رحب ومبدياً استعداده لمناقشة الأمور الفنية.

اتفقوا أن يرتادوا مقهى "عمر الخيام" في شارع "26 يوليو"، وتقدم توفيق وخالد وهما يتشاوران في الأغاني الجديدة التي ينويان عزفها مع الفرقة. استغل هو الفرصة لمفاتحة عاطف بشأن المظاهرة، لعله يجده عقلانياً ويوفق في ردعه، فيقنع توفيق بالمثل. عاطف يميل مثله إلى الصمت، يمتص ما حوله ككاتب يقضي معظم وقته في شرح الأحداث لنفسه بدلاً من الاشتراك فيها. سعى أن يكسبه في صفه.

لاحظ أنه مترقب، وتساءل لماذا يقحم نفسه في عالم لا ينتمي إليه، فهو ليس شجاعاً بطبعه، فلماذا يخاطر إذاً؟

- احنا لسا ما قررناش هنروح ولا لأ!

- وليه تروحوا أصلاً؟

أجاب عاطف بنبرة مكبوتة، وكأنه اضطر للإجابة عن هذا السؤال تكراراً.

- المظاهرة هتقام في ذكرى "خالد سعيد".

حدق فيه مندهشاً. بدأ يستاء منهما، هو وتوفيق، وهما يتحدثان مثل نشطاء "تويتر" وأعضاء "الجروبس" التي بدأت تنتشر وتتزايد على "الفيسبوك". أدهشه كل هذا الغليان عقب مقتل "خالد سعيد".

لقد حدث الأمر نفسه مع آلاف المصريين، إنه شاب آخر وقع ضحية تعذيب لنظام مستبد، قال لنفسه.

لكن عاطف تحدث بحرقة عن مقتله من قبل أميني الشرطة الذين قاما بتهشيم رأسه بعد ما أوسعوه ضرباً ثم ألقوه جثة هامدة في الشارع. إنه من جيلهم "خالد سعيد" هذا، جيل الطبقة الوسطى، وقد وجدوا فيه رمزاً يلتفوا حوله.

- طيب، أنا معاك.. هتتظاهروا وبعدين إيه اللي هيحصل؟ هتضربوا وتتبهدلوا وفي ناس هتتحبس.. وكل شيء يرجع لحاله.

- أنتم بتتكلموا في إيه؟

أرهف توفيق أذنيه.. وصلوا المقهى، وحيا النادل توفيق بترحيب:

- إزيك يا فنان؟

إنه يقضي نصف وقته بالمقاهي هو وعاطف. اصطف لهم النادل أربعة كراس بلاستيك على الرصيف، وجلسوا بجانب شباب يدخنون

بلا مبالاة، فلم يكونوا في المكان الذي تمنوا التواجد فيه في المقام الأول، واكتفوا بالمقهى كبديل له.

قرر تأجيل الحوار لاحقاً، كي لا يعكر الجو. أخرج الهاتف من جيبه، وظهرت له رسالة غير مقروءة. وصلت ساعة الحفل. من "منى".

- ماكنتش عاوزة نودع بعض بالشكل ده.. أنت طيب أوي يا فاروق.. خلي بالك من نفسك..

مسحها وأرجع الهاتف لجيبه..

هتف توفيق في حماس:

- أنا اتكلمت مع "البروديسر". لو مشينا حسب الجدول، مش هيبئا فاضل لنا غير شهر والأسطوانة تخلص.

لا تذهب إلى المظاهرة! تشبثت عيناه بصديقه في استياء..

تناول توفيق وعاطف موضوعهما المفضل، وراحا يتبادلان الآراء في الانتخابات الرئاسية المقبلة والسيناريوهات المحتملة. لم يطق الاستماع! ستنفجر أزمة سكانية، سيزداد الفارق بين الطبقة العليا والطبقة السفلى.. ستنفجر ثورة جياع.. إنه يعلم كل هذا..

نفث توفيق الدخان قائلاً:

- من يومين قريت مقالة في الأهرام عن بناء الوطن. ممكن حد يقولي والنبي يعني إيه وطن؟

علق عاطف الذي دائماً على وفاق مع صديقه:

- الوطنية إنك تكره إسرائيل وتحتفل بالمنتخب لما يكسب كآس أفريقيا.

قهقه توفيق بسخرية. وتدخل خالد الذي نادراً ما ينزلق إلى أحاديث سياسة قائلاً:

- إني اخترتك يا وطني حباً وطواعية.. إني اخترتك يا وطني سراً وعلانية.. إني اخترتك يا وطني.. فليتذكر لي ومني.. ما دمت ستذكرني..(*)

نظر له توفيق وابتسم:

- أيه الحلاوة ده.. معقولة.. خالد بيتكلم في السياسة.

تفرس وجه خالد، وخيل إليه أنه لا يقصد السياسة بقدر ما ينوه عن زواجه..

جاءت الساعة منتصف الليل، قضوا معظم الوقت في مناقشة مواضيع لن يتذكرها الغد، ولن يسترجعها. أراد أن يقوم مرات، وظل هامداً. أجبر نفسه على القيام أخيراً، فأشار له خالد أنه سيرافقه. بدا أنه يريد التحدث.

لم يكن في حالة ليستمع لاضطرابات وإخفاقات الأخرين.. لقد أفسدت عليه الرسالة الأمسية.

ودعهما توفيق مازحاً:

- الناس ابتدت تتكلم على فكرة.. كل ما نتلم في حتة، تقوموا وتتسحبوا وتخدوا بعضيكم وتمشوا.

(*) مارسيل خليفة - إني اخترتك يا وطني.

رد عليه خالد:

– إسم الله عليكم! ده أنتم مش ناقصكم إلا ورقة وتبقى عرفي..

ظلا صامتين حتى مطلع الكوبري. بدا خالد وكأنه يواجه صراعات داخلية.

التمع النيل شديد السواد، كأنه يرتدي ملبس حداد. حملق فيه دون أن يخترق غشاه ونفث الدخان الذي امتصته رئتيه واختلط بلعابه، فحلق في الهواء كمنعدم بشري.

– تيسير حامل!

قالها خالد بغتة. رمقه مدهوشاً وما لبث أن باركه متفائلاً:

– ألف مبروك!

ألهذا أنت مهموم يا خالد؟

– بالزمة حد يكون عنده الأخبار الحلوة ده ويضرب البوز اللي انت ضاربه؟

– أنا وتيسير مش متفاهمين!

إنه شريط يعيد نفسه. تاهت عينا خالد وسط أطلال داخلية.. الزواج أشبه بتجربة معملية، تمزج هذا بذاك، وتضيف ذاك بهذا.. ثم تترقب مفعوله.

نزلا منزل الكورنيش.

– مش هي دي الحياة اللي كنت عاوزها!

ومن يسمعك يا خالد؟ ومن منا يعيش الحياة التي تمناها؟

وشته عيناه وفرت دمعة انحدرت على وجنتيه. مسحها على الفور بطرف القميص.

صعّب عليه منظر صديقه. كانت أول مرة يراه يبكي.

– استهدى بالله بس.. يا بني صلي على النبي!

رد والدموع تغالبه:

– عليه الصلاة والسلام.

– أنت فاكر يعني أن في حد فينا مبسوط؟ عندك أنا مطّلق وبنتي اللي ما لهاش ذنب لسا سألاني أنا ليه ما بحبش أمها. وشادي أبوه توفى، وهو فاكره غضبان عليه وعمال يشرب علشان ينسى، وجنو اللي أبوه مات في أمريكا وتايه ومش لائي نفسه وحاسس أنه هيعمل زيه لما يسافر ويسيب أمه. وتوفيق باشا اللي هيودي نفسه في داهية علشان يثبت لنفسه حاجة هو ما يعرفش هي إيه أصلاً.. الدنيا عمالة تلطش في كل واحد فينا يمين وشمال..

قاطعه خالد بسخرية:

– إنت عاوزني أولع في نفسي يعني؟

إنه لا يهون عليه البتة! حاول مجدداً:

– تيسير بنت كويسة وبتحبك.. مش لازم تغلط نفس الغلطة!

يقصد نفسه.. توقف في هذه اللحظة "ميكروباص" بجانبهم وأفرغ

شحنته من البني أدمين على عجل، فانزلق دون أن تتوقف العربة تماماً رجل نحيف يركض قبل أن تلمس قدماه الأرض، ولد لكي يركض، مواطن مصري يعاني الأنيميا والضغط والسكر، استقبله الأسمنت البارد كهارب.. يرتدي بنطلوناً رخيصاً من القماش وجاكيت واسعاً لا يناسبه، يحمل في يده كيساً بلاستيك يحتوي مستلزمات الليل، قاصداً محطة رمسيس غالباً ليستقل توصيلة آخرى..

تابعاه في صمت حتى اختفى عن مرميهما، فزاد المنظر من غمهما، وتفكر أن حياتيهما محطمة مثل الأسفلت الذي يسيران عليه، مهلك لكثرة الأقدام التي خطت فوقه.

– إيه المشكلة طيب؟

اجتاحه أمل خبيث أن بقدرته مهاتفة منى واستطابة الأمور بينهما. فما شروعه لإيجاد حل لأزمة خالد، إلا محاولة ليضخ الأمل في علاقته هو ومنى. كل شيء ممكن.

انبثق القول من خالد بعفوية:

– مش قادر أحبها.. أنا افتكرت أني هقدر أرد لها الجميل علشان هي بتحبني.. ولكن..

التوت شفتيه في اشمئزاز:

– حبها خانئني.. أنا ليلة دخلتنا كان نفسي تكون واحدة تانية.. والبنت دي طلعت صاحبتها.. وجات باركت لنا.. كنت نفسي أسيب الفرح باللي فيه وأنزل وراها.. أنت مصدق؟

إنك غريب الأطوار يا خالد!

- كان نفسي تكون هي اللي تكون قاعدة جانبي.. كل ما بغني أغنية "قدري" بحس إن عاطف كتبها ليا..

إنه مهووس بتلك الأغنية، كل مرة يغنيها ينفعل ويبدع دوناً عن أي أغنية أخرى.

- أنت عايش في وهم.. يا خالد.. وهم.

أمثاله وأمثال منى وسوسو ونازلي أخرجاه عن شعوره الليلة. تريث وتخيل أنه يخاطب سوسو:

- أنت فاكر واحنا صغيرين لما كنا بنتخيل أصحاب مفيش حد غيرنا بيشوفهم.

ضحك خالد:

- أنت فاكرني مجنون؟

- اسمع بس.. عارف أنا كم مرة تخيلت إن أنا ومراتي رجعنا لبعض تاني وسوينا خلافتنا.. وإن أنا ومنى قلنا لبعض أن فارق الدين مش هيقف في سكتنا.. ساعات بنتخيل حاجات علشان نستحمل الواقع..

- ما هي دي النقطة.. أنا من كتر ما بفكر فيها، حاسس أنا بقى ليا ذكريات معاها.

- اعقل يا خالد! ازاي يكون لك ذكريات مع واحدة أنت ما تعرفهاش أصلاً؟ ده حتى مش من حقك.

- أنا بفكر أروحلها الشغل!

حدق فيه مذهولاً وخيل إليه أنه على وشك أن يفقد عقله.

- إيه اللي انت بتقولوه ده؟ مراتك حامل! خليك أد المسؤلية يا أخي! أنا على الأقل حاولت..

- وسيبتم بعض في الأخر.

- ده نصيب..

تمتم، فهز خالد رأسه معترضاً:

- أنا نفسي أحب!

عن أي حب تتحدث أيها المجنون؟

فاحت رائحة بول قوية أسفل الكوبري. باتت الزمالك على الجانب الأخر لامعة وبراقة، وتخيل نازلي هانم وهي تطل من شرفتها.

كم من الحياوات تكفي كي تطوي هذا الندم؟

أراد إرجاعه لصوابه قبل أن يفترقا، ثم ينقذ توفيق بعدها.

إنه يوزع النصائح ويربت على الأكتاف كـ"سوبر مان".

قال بنبرة واعية كالتي يخاطب بها الصغار.

- إوعدني أنك مش هتعمل حاجة تندم عليها!

حدق فيه بحزم وترك يده. ثم اتجه إلى بيته وأحس أنه يسير منذ فترة ولا يتقدم.

7

بمجرد أن يرتدى حمالة الجيتار، سيشعر بتحسن.

أقدم على عزف مقطوعة عاهدوا عزفها، كل مرة يغيرون أداءهم فيها حسب الإيحاء الذي يصل إليهم.. العزف لغة لم يفك شفرتها بعد، وقد عجز المرء عن ترجمتها.

أطال نغمة مقوسة.. وصرخ جيتاره كروح "هيندريكس"..

هذا الجيتار منبعه الألم..

استدار نصف دائرة ليواجه توفيق.. تسارعت الأوتار بشكل مذهل.. لامس جيتاره كأنه يتحسس عنق امرأة.. عيناه منغلقتان وظمأنتان للعتمة بعد ما تسرب لهما من أنوار.. انحنى بجسده بغتة ومال إلى الوراء ليحافظ

على توازنه.. اتجه نحو الذروة واحتوى كل ما يتصدي له ويقف في طريقه.. بلغ ذروته في الوقت نفسه الذي تهيأ للجمهور بلوغها معه.. فتسمرت اللحظة وانتفضت حواسه ثم تراخت قبضته..

لقد تحقق له ما أراد والأن لم يعد شيء..

ثم حملق في الجمهور بعينين واسعتين..

8

طلت شرفتها على فندق "الماريوت" ببرجيه الورديين.

كسى النيل لباسه الأزرق، وغلفه السحاب بردائه الصباحي الشفاف، قبل أن ينزعه ويتعري أمام الشمس فيرتعش لملامستها الوهجة.

احتسى قهوة مظبوطة أعدتها له "ماري" عاملة النظافة الفليبينية، وتخيل كيف تقضي نازلي هانم صباحها هنا في سكينة وتذعن لخواطرها وتأملاتها.

خطت إلى الشرفة.. كانت ترتدي "جيبة" بيضاء، وفوقها بلوزة سوداء عاتمة.

إنها تفضل الأسود، ربما حداداً على زوجها، أو أنه مزاجها..

مدت يدها إليه في مسافة وقورة وصافحته بحيادية. عيناها لا تفحصان عن شيء.. توقع أنها ستثبت عينيها عليه في انتظار لتتبين غرض زيارته، لكنها جالت حولها بنظرات هادئة، تكاد تكون آلية، تنجرف حولها من حين لأخر، لتنساب روحها باطمئنان لوجود الأشياء حولها.. تعاملت مع وجوده كزائر قديم توقعت زيارته.

حصل على رقمها من حفيدها. ادّعى أنه يريد جلب "سي دي" لها، وتعامل الفتى معه بحسن نية وأعطاه إياه..

لم تبدو متفاجئة لدى سماع صوته. تلعبك بداية، دائماً يتلعثم في بداياته، حتى في اللحن يحتاج وقته، تظاهر أنه يريد إهداءها "سي دي" "بوينا فيستا سوشيل كلاب". شكرته، فتجرأ وأفصح لها عن شعور بالارتياح إثر محادثتهما في الساقية. سألته ببساطة إذا كان يرغب في زيارتها.

حفظ رقمها في هاتفه نازلي هانم. لسبب ما راق له تسميتها هكذا.. لتعاليها الأرستقراطي ربما.. تعالي ناتج عن جمال سافر لم تطلبه، وتعاملت معه كإرث تميزت به فحسب. خيل إليه أن الزمن نتف ريشها وحد من عجرفتها..

تبهره دون أن يدرك سبب.. يسترق النظرات إليها كل حين، ليتأكد من وجودها جانبه، فتشع في روحه الطمأنينة.. كل شيء حولها وضع بإمعان لينساب مع نظراتها.. كوب الشاي.. الملعقة المنقلبة.. كرسيه.. حتى برجي الماريوت على مرميهما..

تبادله النظرات الاستكشافية، ثم تصرف عينيها عنه وتطرحها إلى العالم ما وراء الشرفة، كأنها قررت بعد محاولة مثابرة أنه لا يعنيها شيء. لقد سئمت التعرف على أنماط بشر مثله.

ما هو الجديد بك لتشغل حواسها على كل حال، قد رأت أمثالك كثيراً!

– إزاي بنتك؟

حادثته كصديق قديم اعتادت سؤاله عن حاله بدافع الواجب.

– أعتقد أني بدلعها زيادة عن اللزوم.. من يومين قالت لي أنها هتتجوز واحد معاها في الفصل..

ابتسمت ابتسامة ذات مغزى كأن هذه أشياء تخص السيدات.

– وقلتلها إيه؟

– فضلت قاعد كده مش على بعضي ومقلتش حاجة.

– ليه ما جيبتهاش معاك؟

أتمازحه؟

– عندنا أطفال في البيت. إخوات مارو الصغيرين. مامتهم شغالة طول اليوم ومبنشوفهاش. وأبو مارو "بيزنيس مان".. الاتنين بيجمعوا فلوس.

حملت نبرتها المرارة. سألته:

– أنت ما ارتبطتش تاني؟

سر لهذا الانعطاف وحكى لها عن منى. لم تبد أي تأثر. استمعت

لقصص شبيهة.. إنها في حيادها تبدو مثل الحجر.

– أنتي مبتفكريش خالص في ابن عمك اللي حكتيلي عنه؟

تفحصته بعينين ساخرتين فشعر بالخجل. اهتزت خصلاتها لتستقر على كتفيها.

أتشعر بالغيرة أيها العجوز؟ لقد فاتك هذا القطار منذ دهر..

واصلت بسلاسة متجاهلة سؤاله دون أن تلتمس الحاجة للرد عليه:

– مكانش في حاجة نفسك تعملها وأنت صغير، ومعملتهاش؟

إنه في حاجة ليتبادل مشاعر تتبدد مثل عادة سرية. في حاجة ليتسم للعالم كل حين.. عليه أن يرتجل دون جيتار.. تسمى هذه مقايضة..

– أنا كان نفسي ألعب باليه وأنا صغيرة.. بس أبويا كان خايف على عذريتي.

رمقته بتحدي.. تختبر إن كان جديراً بنيل ثقتها.

– ودلوقتي فقدت عذريتي.. وجوايا لسا البنت اللي نفسها تلبس فستان باليه ومستنية ترقص..

نظرت بعيداً واستقرت عيناها على شيء ما في الخارج.

– تفتكر أحلامنا اللي متحققتش هي اللي بتحددنا؟

تأملها دون أن ينبت بإجابة. قالت:

– أنا عاوزة أسمعك مرة بتعزف.

لم يرتج تلك المرة. لم يتراخ ويدع أفكاره تنسرب مثل مياه شلالة.. كان

يسايرها أكثر من اللازم، وتوقع أن يقتحم أحد سلوتهما وينهره لمجيئه.

– احكي لي عن بنتك! بتقضوا يومكم ازاي مع بعض؟

ارتاح لذكراها. قص عليها كيف تقتحم سوسو عالمهم بفضولها وأسئلتها الطفولية.

– أنت بتقضي وقتك إما مع أطفال أو عواجيز!

علقت مازحة، فرد بضيق:

– أنا هنا بحكم إرادتي!

– مش جايز نفسك تكون في مكان تاني ومش عارف؟

استأنفت قبل أن يجاوب:

– هسألك سؤال.. بس جاوب من غير ما تفكر؟ توعدني؟

أومأ برأسه وشعر أن عليه اجتياز امتحان مهم وهو غير مستعد.

– أنت ليه جيت؟

الايقاع هو كل شيء.. أهم من النغمة..

أتحسبه شاذاً مولعاً بامرأة تسبقه سناً؟

– أنت دعتيني!

– ليه اتكلمت في التليفون؟ أنا بفكرك بحد؟

تجمدت عيناها وفتحت شفتيها لتتفوه بشيء، لكنها تراجعت. إنها امرأة فحسب..

ثم ما لبثت أن تمتمت:

- أنا تعبانة شوية. أفضل أن أكون لوحدي دلوقتي.

أومأ برأسه مهذباً ونهض في هدوء.

أحس بالإهانة وماري رامقاه شامتة وهو خارج. ثم زفر في الشارع، كمن علق آماله على شيء وأصيب بالخيبة.

9

بعث لها اليوم التالي رسالة ليعتذر لها عن تطاوله.

فجاءه رد موجزاً إنه لم يتطاول.

تلقى بعدها بيومين رسالة، إن كان يريد تناول الإفطار معها في النادي.

– أنا مش مشترك!

– معايا تذاكر.. فوت علي!

لم يكن مزاجه معتدلاً. اتصلت به زوجته بشأن مصاريف الحضانة لسوسو. وعدها أنه سيدبر أمره، فسألته بحنق "إزاي"، لتذكيره أن موسيقاه لم تكن يوماً كافية.

أدار موسيقى "الأي بود"، وجلب أغنية لـ"دايفيد جراي"، الشاعر والعازف الأيرلاندي الميلانكولي.. رن مفتاحان بيانو في نغمة حزينة وتحدث بصوته عبر السماعة:

- لا أدري ما هو؟ لكن إذا أرتني صورة لناس كبيرة السن، أتأثر.. هناك ثمة شيء في النسيان.. نحن نختار ما نريد أن ننساه وما نريد أن نتذكره..

عزف المفتاحان نفسهما ودوى صوته الخافت:

- زحفت.. ومشيت.. وعرقت.. ونسيت... نسيت..

عندما لم يحتمل الصوت، أخفضه دون أن يطفئه تماماً.

انتظرها تحت بيتها في سيارته "الفيات بونتو" الصغيرة. بدت سعيدة لدى ركوبها، وتمتمت بحبور:

- عربيتك "كيوت"!

كانت ترتدي "بوت" أسود يصل إلى الركبة، و"جيبة" سوداء قصيرة تمتد لركبتيها المغطاتين بـ"كلون" أسود، فوقه "جاكيت" أبيض ضيق، كأنه تم تصميمه عليها.

بهرته بأناقتها، لم يكن يستطيع الجزم إنها في منتصف الخمسينات.

- سوسو بتحب العربية علشان صغيرة.

- نفسي أتعّرف عليها.

استكنت تتأمل الأشياء وارتاح لهدوئها. اتسمت حركاتها البسيطة

بانسجام لم يكن في حاجة لإضافات أو شرح أخر. أدار "سي دي" قديم لـ"عايدة الأيوبي"، متوقعاً أنه سيعجبها..

– لما قابلته مرة صدفة.. حبيبي مش أي صدفة.. فضلنا وعيوننا تتقابل..

حدقت في الجهاز، وتذكر هو أغنية عن رجل يشدو لامرأة أنه يحبها ولا يتوقع منها شيئاً، لكن نهاية الأمر دائماً نتوقع..

أظهرت تذكرة من مجلسها للحارس عند البوابة، فدعهما يمران. كان النادي خالياً واصطحبته إلى "التراك" حيث جلست نساء كبار السن في الحديقة يثرثرن وينظرن إلى العالم في تعجب وتعب.

تقدم منهما النادل في أدب بالغ، وطلبت سندويتشات جبنه رومي وشاي. أخرجت كبسولتين وشرحت دون أن يسألها:

– دول علشان الاكتئاب.. باخدهم من ساعة ما جوزي توفى.

قالت كأنها تتحدث عن "أسبيرين" للصداع. ثم حدقت فيه.

– ما بحبش اللف والدوران.

– بيساعدوكي؟

– الدكتور قال إني ممكن أبطلهم كمان شهرين.

تناولت إفطارها وهي جالسة بظهر مستقيم، تقضم طعامها ببطء، وتفكر أنها عجوزة بالنسبة له.

– مش شايف إن إحنا "كوبل" غريب؟

تمددت للوراء وحملقت فيه حاملة الساندويتش في يدها.

أراد البوح أنه لا يكترث لما يظنه الناس.

كانت إحدى السيدات جوارهما تزمجر وتشكي من الناس في حياتها.

- فارق السن بيننا مش كبير.

نظرت بعيداً ثم جالت بنظرها تجاه شجرة مازالت محتفظة بأوراقها الخضراء، رغم تهاوي بعض منها.

- يا حرام.. بص الأوراق بترتعش إزاي من الهواء.

تابعت الشجرة ثم رمقته بابتسامة.

- أنت بتحاول تستكشف حاجة جديدة؟

أشعل سيجارة دون استئذانها، ونفث الدخان دون أن يجيب.

- فاكرني فزورة؟

- ليه امبارح كنت عاوزاني أمشي؟

لم تكن الإجابة التي انتظرتها. همهمت:

- كنت تعبانة!

بدا له أنها تستسلم كامرأة.

ترى أستحطمين قلبي أيتها العجوز؟

..

راحا يلتقيان في شرفتها يستمعان لصمتهما لما يتكلمان، ويتحاكيان

حتى بات يألف وجودها، وحسبها ألفته.

اصطحبها مرة إلى حديقة الأزهر مع سوسو، كانت أول مرة يتقابلان. بادرتها سوسو بشك، واستشارته بعينيها قبل أن توجه إليها الكلام. استشعرت أن تلك المرأة تمثل أهمية له، ونازلي تعاملت معها بتحفظ الكبار الذين لم يعد بقدرتهم أن يتعاطفوا مع أطفال في هذا السن.

سألته سوسو وهو يوصلها لأمها:

– بابا هو انت بتحب الست دي؟

جاء السؤال من حيث لم يعلم.

– إيه اللي خلاكي تقولي كده؟

طلت من النافذة وقطب جبينها كما يقطب كلما يواجه عقلها الصغير شيء أكبر من إدراكه.

ثم أصرت كأنها تعلم الحقيقة:

– بس هي كبيرة!

– إحنا أصحاب مش أكتر يا سوسو. وهي كبيرة فعلاً، هحبها إزاي؟

راحت تفكر. فتحت فمها الصغير لتقول شيئاً ولكنها تسرعت في النطق قبل أن تجد الكلام.

فاكتفت قولاً:

– أنت بتحبها، أنها عارفة.

ضحك، و لم يكترث حينها إذ كانت ستخبر أمها.

- أنت عارفة أنا بحب مين بجد؟

- مين؟

التمعت عيناها بفضول كأنه سيتلو عليها فزورة.

- واحدة صغيرة كده وجميلة وعندها كرش.

راح يدغدغها في بطنها الصغير، وهي تلتوي ضاحكة.

- أنا ما عنديش كرش!

تابع دغدغتها:

- يا سوسو يا أم كرش!

فصاحت:

- أنا ما عنديش كرش!

تحسب لانقلاب مزاجها وتركها، فهمست لتصالحه:

- أنا ما عنديش كرش!

- وأنت لسا عاوزة تتجوزي صاحبك في المدرسة؟

- لأ، أنا سيبته علشان في بنت تانية معجبة بيه.

استغرب من عالمهم هذا الذي ينهون فيه العلاقات دون أي توابع.

ثم اندفعت قولاً بتلقائية:

- بابا. أنا بحبك أوي!

حدق فيها وتعجب من أين أتى هذا.. وإذا كانت تتألم في داخلها.

- وأنا بحبك أوي يا سوسو.

قال سريعاً:

- أنت أحلى حاجة في حياتي.

أدرك أن ما قاله تجاوز فهمها مرة أخرى، والتزمت هي بالصمت.

اتصل بنازلي وحكى لها ما دار بينه وبين سوسو من حوار، فضحكت وسألته:

- وأنت معجب فعلاً؟

تفكر، فجاءته ضحكتها من الجانب الأخر.

- ما ترتبكش أوي كده. أنا بهزر.

أدرك بحاسة أنه أخطأ، فقال مدارياً:

- بكره حفلتنا. هتيجي؟

ردت بنبرة غائمة:

- هشوف!

حاول استرداد الموقف، ولكنها كانت قد تباعدت، فأدرك أنها لم تكن تمازحه.

10

- يا قدري!

عادة يختمون بهذه الأغنية.

يبدأ بنغمات فياضة ومتكررة.. لحن فيه تردد في التنقل بين الأوتار. اصطحبته باقي الألات في الخلفية بخفوت، تعلن عن وجودها فقط، لتحثه بالطمأنينة، منتظرة منه إشارة كي تندلع وتكمل اللحن. توقف وكانت تلك الإشارة، فتبلورت وتوحدت النغمة قبل أن تصل لمفترق طرق.. فتكون لحناً جديداً، ليفترقوا مجدداً..

يتمركز اللحن حول نغمات الجيتار الذي يعلن عن التكوين الحسي للأغنية. من المفترض أنه يعبر عن القدر، والقدر ما أراده الإنسان ولم ينله.

سجع بجيتاره ضد تيار النغمات.. تداخلت آلات وانهالت الطبلة.. اتخذ اللحن شكل فتاة بدوية غامضة خلقها بأوتاره تنضح وتتكون.. التوت الأعناق وراءها بتلهف واختلست الأعين نظرة وهي تشمر رداءها حاملة المياه من البئر.. يتابعونها تسير فوق رمال ناعمة لتتلاشى كحلم.. وهي الحلم.. شدا خالد بلغة بدوية غير مفهومة. تداخلت النغمات مع الإيقاع كي يسهّل تخيلها.. ترنح خاصرها بهزات خفيفة وهي تعبر ساحة الرجال، وكأن قدميها الرقيقتين لا تمسان الأرض، فتنقضي الرمال على أثارهما بغيرة لتمحوهما. أفرج بوق شادي عن رغبة الرجال وجنون النفوس، ودق جنو طقوساً تمخضت منذ أجل وتفصح عن محرمات الرغبة.. رفع جيتاره في انتفاضة حواسية، لينتشل نوتة انغرزت في الأعماق.. واستخرج نغمة انسربت كقطرات مياه تتسابق وتترابط ببعضها.

احتدمت الأغنية.. وتنبأ المستمع بتغيير توجب أن يتربص له.

تسارعت الأوتار وتغير الإيقاع ليعلن عن تخطيهم حقبة زمنية.. ثم هدأ العزف وتغيرت الساحة.. استأنفت النغمات مسيرتها وتنقلت أنامله فوق الأوتار.. تحيك صورة قديمة الأزل تنهدم وتظهر من جديد.

رقبها فتى بدوي في شغف.. وعلت النغمات المنذرة.. فاختاره القدر..

نهض الفتى ناوياً إطلاق روحه من جهرها.

إما سيظفر بها وإما يهلك؟

وثبت الموسيقى وهوت في فراغ، وتوقع المستمع ارتطامها بقاع.. ثم طفا اللحن وصرخ خالد مستغيثاً، لأن لم تعد تكفي النغمات..

تلحظه الفتاة وتتسمر الأنفاس.. تتمعن وجهه المتحنط وتعكس مناه ومراده..

تنسج خيوطاً من الآمال والأوهام.. ثم تلتفت وتواصل مشوارها..

ترقبه الأعين بلهفة.. أمقدم هو على ملاحقتها؟

تتغير الساحة مجدداً.. وتمتزج بنغمات أخرى.. تتلو الأوتار وكل سامع يتخيل قصته...

يوحي تغير اللحن أن قلبها موصد.. وأن قلبه على وشك أن يتقطع إرباً.. بينما هي رامقة إياه بغير مبالاة أنثوية..

يشتد الإيقاع.. ويتنبه المستمع مبهوراً أين سينجرف به اللحن.. النغمة مرتعشة.. متعننتة..

يدرك المستمع أن شيئاً ما وقع.. تعكس الصورة تدريجياً صورة امرأة جميلة.. كبرت وبجانبها ولد.. ورجل.. ليس الفتى..

ثم تهوي الطبلة هوياً لتختم وتنقطع صلة السامع بهذا العالم، وما يتبقى سوى نفحة مما أراد الإنسان بوحه..

11

زحفت مياه النيل غاشية ما يجول بقاعها.

استند بمرفقه فوق سور شرفة فتاة أمريكية، دعتهم لشقتها بالزمالك. وتابع المياه تلتمع بغموض حول بقعة عتمة على شكل مخروط.

ترامت له قهقهة بالداخل، تعانق فتى وفتاة راحا يرقصان. لمح توفيق يجلس بمفرده. نفث أخر نفس في سيجارته وعزم على المغادرة.. ترى كم دخن اليوم؟ علبتين؟

كان توفيق يحدق في زجاجة البيرة النصف ممتلئة أمامه، ولما انتبه إليه رمقه بعداء، ثم رشف النصف المتبقي في إصرار، بعدها تأمل الزجاجة الفارغة بوجه منتصر.

اعتدت الشرطة على المتظاهرين ومنهم سامية.؛ لن يستطيع مواساة أحد الليلة!

– توفيق، يلا بينا!

أدار توفيق الزجاجة في يده وتمتم:

– جبان!

حدق فيه متخيلاً أنه سيصب غضبه فيه. ثم نهض توفيق بصعوبة من كرسيه، وقال:

– كنت عاوز أثبت لنفسي إني مش جبان!

ثم هز رأسه باستنكار:

– بس أنا طلعت خروبخ.. عارف يعني إيه خروبخ؟

حاول مواسياً:

– خد الأمور بهداوة يا توفيق. براحة على نفسك!

اشتعل العداء في عينيه وقال:

– أنت برضو طلعت خروبخ يا فؤش!

رمقه بانكسار. وتمتم توفيق:

– سامية مش هتبصلي تاني.. عاوزة رجل.. دكر زي موريس..

ثم فرد توفيق ذراعيه الاثنين وتسمر مكانه ثم دندن:

– مين ده اللي عندك على الفيسبوك.. أنا مش خروبخ.. انا كينج كوبخ..

توقف وضحك ببلاهة. ثم وضع ذراعه على كتفه وقال:

- ما تزعلش مني يا فوْش.. أنا بحبك.. أنت أكتر من أخ..

أمسكه من مرفقه، ولكن توفيق انتفض بغتة، ورجع إلى مجلسه مطوقاً زجاجة البيرة كأنها كل ما تبقت له.

لن يستطيع مغادرته هكذا! جلس بجانبه يرقبه، وتوفيق متسمر مكانه حتى أغفلت عيناه، ولما فتحهما، كان قد اختفى، و لم تبق إلا زجاجة البيرة الفارغة.

12

تقلص وجهه من الألم، فخيل إليه أنه سيخلف تجاعيد..

أخذ نفساً عميقاً وأخرجه بحرص. رن الهاتف مرتين وأبلغه بوصول رسالة قصيرة. أظهرت الشاشة الخضراء اسم "نازلي هانم". جز على أسنانه وقرأها.

تحب تقضّي معايا ليلة رأس السنة؟

دفع الهاتف بعيداً وتقلب فوق السرير. قامت الوحوش واستدعاها، عادة يصطادونه ليلاً، ويتغذون على إخفاقاته.

اجتاز ألماً أخر، أقوى تلك المرة، التوى ليتفاداه، وانزوى إلى ركن مظلم في خياله.. كان يمسك يد سوسو.. ثم طلت طليقته من الشرفة، كانت ترتدي فانلة وشوزتاً أصفر وتلوح له بيديها..

داهمه الألم وتراءت له منى وهي تساوي "جيبتها" البيضاء قبل أن تتخذ مجلساً.. وأخيراً نازلي.. كانت ترتدي قميص نوم خفيف، رفرفت أطرافه مع الهواء.. خطا نحوها بإصرار غير آبه بالبرد والحشمة وانحنى فوقها.. قبلها على فمها.. فأغلقت عينيها عنوة.. دار بلسانه باحث عن لسانها.. توقف وانتظر لتفتح عيناها، ولما رمقته بنوع من الدهشة والإثارة سحبها من يدها مطيعة إلى غرفة نومها. استيقظ قضيبه من عالم الموتى.. وانتزع ملابسها قطعة قطعة.. ظهرت تجاعيد فضية في عتمة الغرفة.. ندبات الوقت.. فقد نهداها اكتمالهما وتهدلا لأسفل.. لمسهما بحنان بينما اخترق فمها بلسانه وهي مستلقية على ظهرها. شمخ مثلثها الأشعث تحت سرتها.. مسح فوقه بأطراف أنامله كأنه يكتشف قطعة أثرية مغبرة ازداد ثمنها مع قدمها.. اجتازته شحنة جديدة من الألم.. طوق قضيبه بيده وضخ الشهوة فيه.. سحب الجلد لأسفل فبرزت عروق زرقاء.

تأوهت تحته، بعد ما فتحت بوابتها.. ساقيها المصابة بالـ"سيلوليتس". طوق حلمتها بأسنانه. وانتفض بقضيبه مثلما ينتفض بجيتاره.. زفرت وأحس أن قضيبه يخترق وردة عمرها مائة سنة..

أداره كمفتاح في قفل مغلق بإحكام.. دفع قضيبه وسحبه وجذبه ودفعه ورخاه وشده.. تدفقت النشوة في الجسد الميت.. أغلقت عيناها وعضت شفتيها.. ضاجع جسدها بحركات منتظمة بعد ما غزاها.. ثم اتجه نحو الذروة وأراد أن يسمعها تتنهد.. إنه يضاجع "نازلي هانم".

أحس بلزجه يعتصره.. يندفع بغير إرادته.. تأوهت كهانم تضاجع.. ثم انطلقت نافورة بيضاء تناثرت فوق الغطاء.. مادة ساخنة كرحيق الزهور

تفرغ على دفعات فوق بطنه..

انتفض لاهث الأنفاس.. وهي تحته ترمقه بلامبالاة.

فتلاشت الرغبة.. واستبدلت بشيء حيادي.

غداً سيقضي رأس السنة معها.

13

تدفقت نسمة معبقة برياح النيل، فأرجعت رأسها للخلف لتستقبلها.

رمقته بابتسامة، فتغاضى عن فارق السن بينهما. أدرك أنها اشتاقته، ولعل كلمة "اشتاقت" ليست في موسوعتها.

تأملها غير عابيء بتحديقه بها. فطلت بعيداً.

- ما تخلناش ننسى وتضحك علينا لحظة عابرة.

رمقها غير متفهم، فانسالت اللحظة. وبزغ السؤال من أعماقه.

- أنا ليه هنا؟

ردت بدهشة:

- بتسألني أنا؟

إنه يكرر التجربة نفسها. إذ كانت علاقته مع منى مستحيلة، فهذه العلاقة من رابع المستحيلات.

– أنا ما طلبتش منك أي التزامات!

أتختصر العلاقة بالتزامات؟ وماذا تقصد؟ مستقبلاً معاً؟

– حياتك متقسمة على سوسو والفرقة. ومش مطلوب منك تفرط في أي حاجة تانية.

– وإحنا؟

– إحنا كبرنا!

حدق فيها في إلحاح، فهزت رأسها.

– ما ينفعش!

– بالبساطة كده؟

– مش هقدر اتعلق بحد تاني!

تذكر ابن عمها وداهمته الرغبة في أن يوجعها.

– هنوفر على بعض حاجات كتير. صدقني!

– الظاهر أني كنت بضيّع وقتي.

نهض محتنقاً، فنظرت له باستضعاف، قالت بعد تردد:

– هتفرق معاك لو قلتلك تقعد؟

ثم تمتمت في آسى:

– ساعات بنضّيع كل حاجة لما نفهم.. الأمور مش معقدة ولا حاجة.

كل حاجة واضحة. إحنا اللي بنعقدها!

أرادها أن تعطيه برهاناً قوياً! أرادها أن توعده بشيء!

لو قبلها.

ستطردك ولن تراها ثانية. تعلمت الاستغناء عن كل ما هو غير ضروري. وأنت غير ضروري!

– أنا مش عارف لو كنت هاجي تاني!

أحس بألم يطفو في بحار عينيها.

– كنا ممكن نسيب الأمور تمشي كده.. على العموم لو عاوز تمشي إمشي!

ترددت في ذهنه أغنية "هشام عباس" وهو يتبع حبيبته.. تصلبت عيناها واستردت كرامتها بعد معاناة وجيزة.

لا تحتاجك بالقدر التي تحتاجها!

تردد. لقد تعدى كل الخطوط.

– في حاجة أخيرة.

أيظنها عرافة، بعثت لتنبؤه بمصيره؟

وشت عيناها بفداحة الخسارة. تطايرت خصلة وانكمش وجهها كمن تتحسب لتوقعاتها.

اقترب منها وانحنى فوقها. تحسب رد فعلها، وتردد على مرمى وجهها.

أصابها الارتباك، ولكنها لم تدر وجهها بعيداً. بدا أن شفتيها ستفصحان عن شيء ما، ستقول كلمة رفض، ولكنها قمعتها بداخلها.

أغلق عينيه وطبع قبلة يابسة على شفتيها اللاتي ظلتا موصدتين، لم يحس بشيء..

فتح عيناه وهو مازال منحنياً.

اعتدل في وقفته وجالت بنظرها بعيداً رافضة مواجهته. كانت تقاوم في داخلها الاشمئزاز..

تمتم اعتذاراً ولكن عينيها المجروحتين كانتا تحلقان بعيداً..

دوت ألعاب نارية وهو يخطو الشارع. كانت الساعة منتصف الليل. وبدأت السنة الجديدة..

14

عزم ألا يتردد على شرفتها مجدداً.

سيهجرها ككل من هجروه. عبر كوبري مايو واجتاحته عنوة سادية إزاء كل من ارتبط بهن.

جرفته نسمة هواء عانقته بأنوثة، وتباعدت لتعتنقه من جديد.

وصل منزله منهكاً. وجد الأشياء في المنزل كما تركها في الصباح. انتزع ملابسه في تعب واستلقى فوق السرير. مكث بلا حركة والنوم لا يطعه. تقلب يميناً ويساراً، دون جدوى. تسارعت عليه وجوه ككراسة يتفرسها دون أن تستقر عيناه على أي منهم.. سوسو ومنى ونازلي وخالد وتوفيق.. كلهم وجه واحد تتغير ملامحه.. رمقوه بتعب وعتاب..

ترنح إلى المطبخ وأخرج زجاجة "فودكا" يحتفظ بها في درج الثلاجة. صب لنفسه كأساً وجلس حول مائدة المطبخ يحتسي طعمها مشمئزاً.

ليته قادراً أن يتناول الألم جرعة واحدة.. ولكن لن يحتمله مؤكداً.

انسابت توابع تخيلات في جسد يهتز كأوتار جيتار. عليه أن يضبط عقله كما يضبط آلته..

ضاق المطبخ بحيطانه، كل ما يحيط به يصيبه باليآس.. الحائط الباهت والأثاث المتهدل ورائحة الشقة وبلاطها المتآكل..

إنه "سيفولوس" يحمل شنطة جيتار يجتاز بها البارات في عبث. والرضا داء كاذب.

احتسى كأساً ثانياً أصابه بالدوران.. فصب ثالثاً ليزيله.

إذا غصت في الأبحار عمقاً كافياً، ستجد المياه عذبة..

مد بصره لصورة رسمتها سوسو معلقة على باب الثلاجة، تظهر رجلاً يمسك يد فتاة صغيرة، حملق فيها، وخيل إليه أنه سيداهمه الهوس مثلما نال شادي.

شعر بازدراء كساه بالفودكا في حلقه. ثم أحس بأنه على وشك التقيئ، فاتجه مسرعاً إلى المرحاض، وهو يحجم فمه بيده. انحنى فوق "التواليت"، ولكن القيء لم يندفع. استند على حافة "البانيو"، وأسند ظهره له.

ليس على الأمور أن تسير على هذا النحو!

ما تتوقعش مني أي حاجة!.

من صاحب هذه العبارة؟ زوجته أم منى؟ دفع كل امرأة أراد الارتباط بها بعيداً.

لو مش هتقدر تفهم، قول. ده حقك!

مكث على أرض لا يدري كم من الوقت. أغلق عينيه ووقع في نوم غائم. ظهرت منى ورمقته بعتاب، كما فعلت في الساقية، ثم عكف على زيارة نازلي، فاتضح أن الشقة خالية، وأنها لم تكن سوى وهم من ابتكاره.

انتشلته رنة التليفون من النوم. ردد خالد شيء ما بصوت مفزع، لم يتمكن فهم غرضه.. دوى الكلام بعيداً، كأنه مازال يستيقظ من الحلم.

- فجروا كنيسة القديسين في الأسكندرية.. أنت سامعني؟

ظهرت منى وحولها حائط مهدم. دس نمرتها في هوس ورن الهاتف طويلاً. لم ترد. حاول مرة واثنين وثلاثاً.. عشرة، لا يكاد يسمع صوت انفصال الخط حتى يعاود الاتصال. تخيل الكنيسة مهدمة وجسدها ملقي على الأرض يكسوه الدماء.

- منى..

- منى..

- أنت كويسة؟

- الحمد لله!

- أنت كنت في الكنيسة؟

- لأْ.. بس في ناس أعرفهم راحوا.

حل بينهما الصمت، فقالت:

- أنا لازم أقفل!

تخيلها تنهض.. ويداها تمسح "جيبتها" البيضاء..

وبعد وهلة أدرك أن علاقتهما انتهت.

15

في الصباح أراد الاطمئنان عليها، لكنه تذكر محادثتهما البارحة، و لم تعد لمكالمته حاجة.

دفع الملاءة عنه وأحس بجسده المترهل.. دعك عينيه وتناول حبتين "بنادول" ليحد من ألم البارحة.

حدقتا فيه عينان غائرتان بمرآة الحمام، تأملاه كأنه يتعرف عليهما، وهو يبادل نفسه التحديق، ويتلمس شعرات ذقنه الخشنة، ومقابله يفعل مثله تماماً. تناول فرشة الحلاقة المبتلة وهو لا ينزع عينيه من مراقبه الذي ترقب متحسباً لأي حركة مغادرة. وعندما لم يبادر الرجل في المرآة، و لم يفعل هو شيئاً كذلك يتسبب في مبارزة وتفاقم الأوضاع بينهما، وضع الفرشة مكانها واكتفى بمعاقبة الظل الآدمي، بأنه لن يحلق ذقنه اليوم. ولما

نظر بعيداً، وعاود متابعة المرآة، اكتشف أن ذاته قد هجره.

حدق في نفسه وأحس بيأسها وعجزها كلياً، ثم عاود التفكير في حلاقة ذقنه. لقد حلقها كل صباح و لم تجديه بشيء.

انطلق تجاه الزمالك. تسلل إلى نادي الجزيرة من مركز الشباب المجاور. سار دون أن يعترض طريقه أحد وينبهه أن مكانه ليس هنا.

رصدها وهو يقترب من "التراك". كانت جالسة تتناول ساندويتش جبنة رومي في الحديقة الخالية وتبلعه بالشاي. تساءل كيف ستستقبله بعد البارحة. رسم ابتسامة على وجهه، ليس متأكداً إن كانت في محلها. التفتت إليه وهو على بعد خطوات منها، أسرع خطواته وجر الكرسي دون أن يعطيها الفرصة للاعتراض.

تمعنته في هدوء لا يدل لا على ترحاب ولا رفض، مثل أول ليلة في الساقية لما اقترب منها كغريب.

تخيل أن شيئاً سرى بداخلها ونزعت عينيها عنه في تردد. ظهرت البنت بداخلها التي طالما أرادت أن تصبح راقصة باليه. تصلبت عيناها واشتبكت بنظرات غائرة. طبقت كوب الشاي بسبابتها وقربته من شفتيها، مسته بلسانها لتكتشف سخونته وأبعدته بحركة آلية دون أن تتذوقه حقاً.

ماذا تفعل هنا؟

(التفت حوله، وجاءته حركة مفاجئة لم يتبين مصدرها، كانت يده تتلمس ذقنه الخشنة وتمر فوقها بغرابة.. اليد التي لامسته بحركة آليه هذا الصباح.. اعتدل في مجلسه وانفصلت ساقه اليمنى عن باقي جسده،

فوضعها على ساقه اليسرى.)

(كانت نازلي تقضم الساندويتش في هدوء.)

(ترقب بحرص.)

(لا وعيه يتحرك أسرع من وعيه. لامسته يده مرة آخرى.)

(إنه ظله الذي لم يغادره. تلبس شخصيته وتبعه.)

أنا ظللك..الذي لم أغادرك..

سمع الصوت مرتين.

حاول أن يتنفس بهدوء وظن أنه جن.

إنها أثار "الفودكا"، حدث نفسه.

(البحيرة عميقة والمياه باردة بداخلها.)

لقد أفرغت الزجاجة، ماذا تتوقع؟

(جاءه الصوت، و لم يتبين إذ كان نابعاً منه.)

(عاود الصوت مكتوماً.. محاولاً أن يتحرر.. استنجد بصورة سوسو..)

(لم تعره نازلي أي انتباه.. إنها تعاقبه بسبب البارحة.. لامس ذقنه وسمع الصوت يسخر منه.

اتبعتني لأني لم أحلق ذقنك؟

(سأله بذهول.) (فضحك.)

(انتظره أن يتحدث، ولكنه احتمى بداخله.) (سأله حائراً):

ألن تتحدث الآن؟ أتستدرجني ثم تتركني وحيداً. (أنت مثل كل النساء اللاتي عرفتهن.)

(عاود الصوت:)

لقد أقحمتني في مواضيعك السخيفة.

أنت أقحمت نفسك! إني لم أستدعك!

كان علي أن آتي منذ زمن. لنتكلم وجهاً لوجه، لنصفّي حساباتنا.

لست في حاجة إليك!

بل أنت تدين ذلك لنفسك.

لا أدين أحداً.

(قالها بتعب.)

واجه نفسك ولو مرة!

وبعد ما أواجهها؟

لما لا تستطيع أن تكون فحسب كما يتوقع الناس منك؟

ماذا تقصد؟

إنك تخون نفسك وتخون زوجتك السابقة ومنى ونازلي وسوسو. وخالد وتوفيق وكل من تدعي أنك موجود من أجلهم. انظر لنفسك! ماذا تبقى منك؟ ماذا يبقيك مع امرأة تسبقك بعشر سنوات؟

(تخوف أن يدرك ما يسعى وراءه.)

أنت تقضي وقتك إما مع أطفال أو مع عجائز يا عمو فؤاد.. عمو فؤاد.. عمو فؤاد!

اخرس!

تستطيع أن تتعرف على شخص بمعرفة كيف يقضي فراغه.

أنت تدرك كل شيء، أليس كذلك؟

نعم، أدرك عنك كل شيء! من يعرفك غير نفسك؟

(نظر تجاهها.)

لما تنظر إليها؟ أتظن أنها تعرف؟

..

تخيل أنها ليست في حياتك! ككل امرأة صادفتها. وماذا يفرقها عن الأخرين؟ أنت تعاني من انبثاق الأوهام، مثل خالد، ولكنك تدعي الحكمة، على الأقل خالد معترف بجنونه، أتعتقد أنها تمتلك كل الحلول؟

لست مثل خالد!

قل لي، لماذا ليس بمقدورك أن ترتجل في حياتك؟ ألحانك تنقطع فجأة مثل خيط أفكارك. تثب من وتر لوتر دون سياق، لا أفكارك ولا ألحانك تدوم.

إني عازف كلاسيكي!

إنك عازف حانة!

اغرب عن وجهي!

بمقدورك أن تبدأ من جديد ولكنك متسمر منذ أجل.

لو وثبت ستسفر النغمة عن نشاز.

ما يبدو نشازاً لك، ليس سوى جزء من اللحن.

(قال ساهماً:)

المسافات تخيف العازف!

(تذكر أول إخفاقة أمام الجمهور.. لم يكن مستعداً.)

لم تعد بداخلك القدرة للاكتشاف؟ لقد تراكمت المخاوف وتخليت عن نفسك، أتعلم لماذا أخفقت؟

(تابع نازلي تمتص البيئة حولها.)

إني تعبت!

أخفقت لأنك لم تتحد نفسك!

(راودته الرغبة في الانهيار والبكاء. تابع نازلي وهي تمضغ، وكأن مضغها أبدي ولا تبلع.)

سأقطعك إرباً!

(ضحك الصوت، لكنه لم يبد واثقاً مثل الأول.)

أغضبت؟ لا تدعني أضحك! أنت لا تجيد الغضب! تنقصك الجرأة لذلك.

أظهر وسأقتلك!

(زالت الضحكة. وعاود موقفه.)

أنت تعلم أني لست عدوك. أنت عدو نفسك!

(رد في غضب.)

لا تدري ما تقوله. لا نفس تدري ذلك.

(أفرغت طعامها و لم يتبق إلا بعض الفتافيت في صحنها. مرت بأناملها فوقها فالتصقوا بها. إنها في جوهرها عازفة باليه صغيرة.)

لقد واجهت نفسك.. أعزف على غرة ولو مرة!

(أرادها أن تدفع الصوت بعيداً. كانت تتابع رجلاً بديناً يركض حول السير، كأنها تعرفه.) (فرك فروة رأسه وقال يائساً:)

كيف أسترد الوقت المسروق؟

(جاء الصوت ضعيفاً.)

أخرج عن المألوف!

(راقب مائدة مهجورة نحو ملعب كرة اليد.)

عليك فقط أن تخطو إلى هناك!

وإذا تعثرت؟

سترتجل!

(ابتعد. أراده أن يبقى، وتخيل أنه بدأ أن يفهم وعلى صدد التوصل إلى قرار.)

(غشى وجهه بيديه وأخذ يفركه بقوة.)

عمو فاروق! عمو فاروق! اعزف لي أغنية!

(عاود الصوت مرة أخرى، ورجع شريراً. أم أنه يتخيل؟

يود أن يعقد السلام مع نفسه ولو مرة.

(أراد العالم كله أن يختفي عن مسمعه.)

(خشي أن يفتح عينيه، وتكون قد غادرت.

ولكنه وجدها جالسة، تتأمل جوارها. جال ببصره مكان ما تنظر.. لا شيء محدداً.

هرع النادل ليرجع لها باقي الحساب، أبت أن تأخذه، فانحنى شاكراً وانصرف.

مازال الرجل البدين يركض.. سينهار فجأة ويهوي. تخوف أنها تنتظره وبمجرد أن يقف، ستقوم وتتجاهله.

ثم آوى حكمها، وقالت دون مقدمات:

- يلا نروّح عندي!)

عازف البركيشين.. والساعاتي

سؤال واحد..
صبح السؤال مليون..
في مكان واحد..
سأل السؤال بجنون..
طب مين أنا.. ومين وفين.. وازي يكون..
الكلام عني.. لكن مهوش مني..

سؤال واحد.. وسط البلد

1

- جنووووووو.

تدوى يديه بسرعة صاروخية.. لا تكاد أنامله تلمس الطبلة.. ضربات قصيرة متتالية تهوى على حافة الطبلة وصميمها.. بعضها قاتمة وأخرى فاتحة..

ترتسم على وجهه الأسمر البسمة وتنكشف أسنانه عن بياض ناصع، مما يزيد وجهه ظلاماً، فيذكر بعازف "البوجي" الغامض..

لا ينبع الصوت فقط من الأنامل، إنما يمتد ماراً بالقدمين إلى الأرداف والصدر.. وتشمل ذبذباته الجسد كله..

يعيد الإيقاع نفسه ويضيف لمسات.. يتحكم فيه كلياً.. والطبلة تستجيب له، دعاه يفعل بها ما يشاء.

أول ما يجذب الانتباه هو الإيقاع، فالصوت جاء أولاً..

الطبلة غامرة كل الأحاسيس الغير مكتملة.. لها تخضع وعلى إيقاعها الجسد تتحرك.. على إيقاع ورثه منذ آلاف السنين.. وما الحياة إلا ضربة قلب..

يبطىء ويقسّم الإيقاع.. تتراقص وتلتوي ذراعيه كثعبان يقضي رقصة مميتة..الجسد كله يتبع دقات منظمة.. يطفيء رغبة لا تكبح.. فيرتفع كائن سمعي أسطوري يتأرجح يميناً ويساراً.. يملأ المستمعين بنشوة لا يقاومها جسد.. ينصاعون له حتى يخدرهم.. ثم يهوي بأقصى قوته حتى يفقد الإحساس بيديه وتصير ممشوطة مثل الطبلة نفسها..

تتداخل الموسيقى فيتراجع وينتظر دوره.. ويذوب بضربات لا تكاد تشعر وسط المجموع.. فتضيع الذات وتلتحم بما يفوقها.. قبل أن تسلم له الشعلة.. هذه أغنيته.. الجمهور يهتف اسمه وهو يزداد اشتعالاً.. كل الأعين متجهة إليه الأن.. سينفجر ويفرج عن طاقة محرمة لكثرة اللذة التي تحررها..

ففي البداية كان الصوت..

2

دوى صوت القرآن في القاعة.

تنهد المقريء واحتسى رشفة من الينسون، ثم اعتدل في مجلسه وحرك رأسه يميناً ويساراً لينتفض من التركيز، قبل أن يطلق شهقة ويسعل بعنف في كفه. شرع بصوته المرتعش في تلاوة آية أخرى منذرة بفناء الدنيا. ولا يخلف الفراغ الذي يتركه بين تلاوة الأيات سوى فحيح المروحة الملتصقة بالسقف.

كانت القاعة نصف ممتلئة، تفيض وتسكن بعد مضي كل ربع، والمعزون يتوافدون ويرحلون دون رجوع.

جلس أمامه رجل كبير يرتدي بدلة رمادية، يستمع للتلاوة في خشوع، بينما يسترق شاب بجانبه النظر لهاتفه في ضجر، وعلامات الإرهاق

واضحة على وجهه إثر فراغه من يوم عمل طويل.. بجواره شاب يتبع خواطره المعبقة بانفعالات وإدراكات يومه، يصطنع الحزم كل حين على وجهه كي يداري تشتيته. تشابكت نظراتهم لحظة قبل أن يغض هو بصره على مضض.

شبك ذراعيه فوق صدره في ضيق، وأغلق عينيه مستمعاً للتلاوة التي لم يتفهم إلا نصفها. ميز قدراً سمعه من قبل إما في التاكسيات أو في التليفزيون، دائماً تعجب من تقارب القصص والمعاني بينهما.

كان الصوت متحشرجاً ومدى الميكروفون لا يتناسب مع القاعة. فقد التركيز ولاحق الشاب الذي خسر أمامه مبارزة التحديق بعينيه، تلك المرة أرغمه على غض بصره، فأصبحا متعادلين. ثم رمق الرجل العجوز المقابل له بعدوانية أيضاً، وطرق على ذهنه إنهم يدركون أنه مسيحي. تربصت عيناه بالأرض خجلاً ووعى لعدمية أفكاره.

حلق صوت المقريء في القاعة يلاصق الأذن قبل أن تمتصه الحيطان ويذوب.

أزاح المقريء الميكروفون بيده منهياً ربعاً آخر، فنهض واصطف مع المعزين ليصافحوا خالداً. كان توفيق وفاروق يتلقيان العزاء بجانبه كونهما أقرب أصدقائه.

صافح معزون خالد بحرارة ليأكدوا له صدق آساهم، وهو يومئ برأسه إكراماً لهم، وهناك من لم يكتف بتقبيله فقط فاحتضنه بقوة، فتفكر إذا كان سيحتضنه أم يكتف بمصافحة قوية.

لما جاء دوره قبّله على وجنتيه ومضى حتى انتهى به الحال فوق الرصيف.

وقف على الجانب الأخر للمسجد كالمنبوذ، وجال بعينيه تجاه مدخل السيدات. لم يعثر على مريم.

شاهد فتيات وفتيان في سن المراهقة أتوا لعزاء آخر في صالة جانبية. كانوا يرتدون ملابس سوداء فاخرة، ويتمازحون، بينهم فتاة ترتدي فستاناً أسود مظهراً سمانتها البيضاء، تضحك لفتى بدلال.

اقترب بعد تردد مجدداً من القاعة. كان توفيق يهمس بشيء لخالد، فابتسم.

لاحظه خالد ونادى عليه برفق:

- تعال يا جنو!

أفسح مكاناً بجانبه، وشعر بالإحراج لاتخاذه مكاناً لتقبل العزاء.

اقترب رجلان يرتديان بدلتين سوداوين على عجل، فنهضوا ليصافحوهما، ولما وصل أقارب خالد، تخلى عن المكان لهم ودخل القاعة. هم المقرئ بترتيل ربع آخر.

هذه المرة انزوى في ركن خال كي يتفادي الأعين. انتابه الضجر فأخرج "الأي فون" وتفقد تعليقات "الفيسبوك". أتت معظمها على خلفية تفجير كنيسة القديسين معبرة عن استياء أصدقائه ومعارفه. رفع بصره وجال بالقاعة ليتبين إن كان أحد ينهره بعينيه لانشغاله "بالموبايل".

لاحظ شادي يخطو القاعة بقميص مهلهل رغم البرد بالخارج. جلس

في الأمام دون أن ينظر حوله.

إنه حقاً غريب الأطوار، ولا يدري أحياناً كيف يتعامل معه. راح يسرف في الخمر بعد فقدان والده، ثم تشيخ وأطلق لحيته، وتقوقع داخل نفسه. خشي وقتها خالد أن يكف العزف، وفي يوم ظهر وقد حلق لحيته واستأنف عزفه دون الصخب والانفلاتات المباغتة التي تخللت عزفه طوال الفترة السابقة.

وضع المقريء يده على وجنتيه، وختم:

- يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي. صدق الله العظيم.. الفاتحة.

راقب شادي ليرى إذا كان سيتلو السورة. لم تتحرك شفتاه.

انتفض المعزون من صمتهم ودبت الحركة في القاعة. لم يصطف تلك المرة معهم، اتجه للخارج مباشرة. كان رجل كبير يتحدث مع خالد بنبرة حزينة. وقفت مريم مع تيسير ولبنى. لاحظ أن تيسير ازداد وزنها وتساءل إذا كانت حامل. بعد قليل انضم إليهم خالد وباقي الفرقة. بدا خالد متماسكاً، وحملت تيسير يده برفق. تولى توفيق الحديث وألقي دعابات بسيطة، وخالد يتركهم كل حين ليصافح أحد المعارف. لم يدر أي شيء ذي مغذى يقال، احتضنه أخيراً واستقل سيارة أجرة مع مريم.

ابتعدت السيارة وأدار رأسه ليرى خالد منحنياً ليصافح سيدة عجوزاً.

3

توهجت الأنوار المتلألئة في رقصة خفية.

تداخلت صور.. ربطها لا وعيه ببعضها البعض، ثم تعجب مما توصل إليه.

باقي أسبوعين على سفره، لم يتوقع أنه سيفتقدها هكذا..

تبدو المدينة دائماً جميلة لمغادرها. بات يستشعر ألفة نحوها لم يعهدها، وهي طالما لم تعن له شيئاً طوال تلك السنين.. طالما أراد الخروج، بيد أنه سعى طويلاً لإنهاء إجراءات السفر..

لن يتغيب أكثر من سنتين على كل حال. ومن يدري.. ربما يمران عليه في

غمضة عين.. لقد وصف كثيرون فترة الدراسة بأحلى فترات حياتهم..

أخفقت قلبه دقة، فأبطأ العالم.. استرق النظر إلى مريم، كانت تطل من النافذة حالمة، وتضغط يده برفق كلما استشعرت حاجته لقربها منه. تبذل قصارى جهدها لتداري مشاعرها وتتواجد له كلياً. تمر عليه يومياً بعد قضاء عملها، وتنسحب أمه أحياناً في لياقة إلى غرفتها لتدعهما بمفردهما في الصالون، فيسرقان ما بدا لهما من لمسات وقبلات أصبحت أكثر حنيناً الآن. اتفقا على إتمام الخطوبة في إجازته المقبلة، ليختصرا مدة الانتظار.

شقت السيارة طريقها وسط شارع 26 يوليو بأنواره النيون المتوهجة.. كم يعشق هذا الحي ويفضله مائة مرة عن التجمعات الجديدة التي تكونت على مشارف القاهرة. كم يعشق التنزه فيه ليلاً بشوارعه الهادئة المحاطة بالمدارس والسفارت الناعمة بخلوتها.

اتكأ برأسه على النافذة وتابع الأنوار تمرق وتنطفيء بعبورهم. حركات المارون بدت له متوقعة الأن. داهمته أحاسيس لم يعد قادراً على تمييزها، حلقت فوق قاع روحه فجوة تجذب أفكاراً متهاوية بسرعة، فتفقد شكلها ومضمونها وتحدث زوبعة كلما ارتطمت دون أن تحدث صدى بداخله..

أحياناً يتمنى لو كان شخصاً أخر فقد ليجد نفسه..

تفكر أن ربما أكثر ما سيفتدقه ليست مريم ولا أمه ولا القاهرة، وإنما ذلك الإحساس الغامر كلما أطلق خالد اسمه وهوى هو على الطبلة ليأسر بها الجماهير..

لكن ستكون من الحماقة أن يدع فرصة مثل تلك تعبر دون أن ينتهزها، فرصة للدراسة في "هارفارد"..

توقفت السيارة برجة. أخرجت مريم ورقة مالية وناولتها للسائق. يروق له اعتمادها على نفسها في أشياء كثيرة.

رمق البواب في تأفف وهما متجهان إلى المدخل. كف عن إلقاء السلام عليه منذ حياه مرة بـ"مساء الخير" وأجاب البواب مصححاً: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"، علاوة على نظراته المحتنقة التي يبادله إياها كلما اصطحب معه مريم.

- مسكين خالد!

قالت مريم وأغلقت باب المصعد الحديدي. طوقها بذراعيه وضغط جسدها متشفياً حزنه فيها. رمقته بحنان فأغلق عينيه وطبع قبلة طويلة على شفتيها حتى ارتج المصعد لوصولهما.

ترامى إليهما صوت التلفاز. اتجه إلى المرحاض وقضى حاجته ثم حدق في المرآة طويلاً. عكس وجهه انقباضاً ما.

همس لنفسه:

- هتخستع ولا إيه؟

لما علمت والدة مريم بنيته للسفر قالت:

-عين العقل يا بني! في حد يبقا عنده فرصة يسيب البلد دي ويقعد؟

لم تعلق مريم. لكنه ظنها أيضاً تفضل الخروج. مصر بلد ولكن ليست وطناً.

قضى وقتاً طويلاً بالمرحاض حتى خيل إليه أن عليه أن يخرج. كانت مريم ووالدته يجلسان في الصالة يتابعان مسلسلاً قديماً لـ"محمود ياسين"، ومريم تقزقز اللب وتثرثر مع أمه كعادتها. يستطيع أن يتركها في أي مكان ولا ينتابها الضجر، دائماً تتكيف مع البيئة حولها.

اختلست نظرة حنونة له تعني أنها ترغب في ملامسته.

– إزي خالد؟

سألت أمه.

– كويس!

لامست مريم يديه بأناملها. منذ أسبوعين وهي تعامله بحنان زائد.

واصلت أمه:

– يا حبيبي، أنت زعلان علشان خالد؟

ينقصها الحساسية أحياناً في التعامل. تابع التلفاز في وجوم وتمتم:

– ما ينفعش نغير القناة؟

استقروا على قناة "العربية". جاء بيان عاجل من تونس يفيد بقتل متظاهرين من قبل القناصة فوق بيوت "بو زيد". ذكرت المذيعة أن الأحداث تتطور لحظة بلحظة بعد ما شب "محمد بوزياد" النار في جسده منذ ما يقرب من أسبوعين، بعد ما صفعته ضابطة شرطة واستولت على عربيته.

تنهدت أمه بشفقة:

- يا ساتر يا رب. اقلبي يا بنتي الغم ده!

رجعوا لـ"محمود ياسين" وهو يؤدي دوره بدرامة مفرطة لا يستدعيها المشهد.

ازداد تعكراً وشعر برغبة في معاتبة مريم دون سبب حتى تنصرف باكية. راقبته بحذر كأنها تستشعر ما يدور بخلده. بات متقلباً وتجتازه شحنات غير متوقعة من الانفعالات مؤخراً، يعلم أنها متعلقة بسفره الواجب. وقد تحملت مريم انفعلات عدة جعلتها تبكي، خاصة لما تبدر منه اعتذارات متلعثمة في التليفون ليلاً. وضع ذراعه خلف عنقها، وود لو اختلا بها ولو لدقائق. فنهضت والدته واختفت بالداخل، لا تنقصها الحساسية كما تصور.

انتهز الفرصة وضمها لحضنه.

- هتوحشيني يا بت!

- ده أنا هولع في نفسي لما تسافر.

امتعض وجهه، فقالت مسرعة:

- قصدي أني هكسر قلة وأعمل حفلة وأعزم كل الخلق. عاوزة أشوف حالي بئا!

- أعمل فيكي إيه يا لمضة؟

قبلها فوق جبينها.

- يابني، هو أنا والدتك؟

– طب ماما لو دخلت علينا، وشافتني ببوسك علشان انت عاملة زي قدرة العسل، هيكون إيه موقفنا؟

ضربت بيدها فوق صدرها.

– يا مصيبتي! قدرة عسل؟ قدرة فول حضرتك، التانية خلية عسل. الله يخربيت التعليم الأجنبي اللي بوظلكم العربي.

دفن رأسها في معصمه. ثم ظهرت أمه فجأة، فدفعها بعيداً، فيما تظاهرت الآخرى أنها لم تنتبه.

– مش هتوضب شنطتك يا جون؟

– لسا بدري يا ماما!

نهضت مريم مدارية خجلها.

– بدري من عمرك! فز قوم يلا!

نهض على مضض وتبعهما يقتحمان غرفته ويفرزان ملابسه. اكتفى بالمشاهدة والتدخل عند الضرورة فقط، وهو يشرف على تنقية ملابسه الداخلية من دولابه. سخرت مريم من "بوكسراته"، وراحت تعيره لأن ملتصق بهما صور لـ"ميكي ماوس"، رغم أنها هي التي اشترتهم.

رمته نظرة مليئة بالرغبة. ولكنه مضى إلى الشرفة. تابع حركة الشارع الخامدة. وراح يصفق ويطقطق بأنامله فوق السور كما اعتاد ليحافظ على مرونة يديه. الطبلة تحتاج لقوة بدنية ومرونة أكثر من أي آلة آخرى. لهذا يرتاد "الجيم" ثلاث مرات في الأسبوع ليحافظ على لياقته. حياته كلها مرتكزة حول الفرقة، وعليه الآن إيجاد شيء أخر.

تسلل بصره لنوافذ "الماريوت" المنورة قباله، وفكر أنه قريب سيكون هو الأخر في بلد آخر، يدس أنفه في كتب عتيقة بمكتبات صارمة، ولا يسمع سوى نقر المطر بالنافذة.

رن هاتفه.

أظهرت الشاشة اسم صديق قديم لم يلتق به منذ فترة. أسكته وتابع المكالمة تتحول لـ"ميسيد كول". ترامى إليه أصوات أمه ومريم بالداخل. اجتاحته فجأة رغبة ملحة في الهروب. نظر إلى الردهة كأنها المنفذ الوحيد. توجه إلى المطبخ وارتشف كماً هائلاً من الماء ثم هتف:

– هجيب حاجة من تحت وجاي!

لم ينتظر رد فعلهما. توجه مسرعاً إلى المصعد متوقعاً أي لحظة أن يفتح الباب ويمسك به متلبساً.

رمق البواب بحنق ثم توقف أمام المدخل لا يدري أين يتجه.. بعيداً عن الزحام! انعطف إلى شارع مواز لبيته يفضي إلى الكنيسة الإنجيلية. كان يحرسها غفير مستكن فوق دكة يستمع إلى "ترانزيستور" صغير، قباله بقالة لرجل كبير يرتب بضاعته بتمهل. حدق في وجه الغفير كأنه يريد حفظه لذكر علامة بالشارع. تسلل إلى خاطره إن كان الغفير مسيحياً قبل أن يعترض طريقه كلب ظهر من بين السيارات. دنا منه متخلياً عن العزول الحيواني تجاه البشر. تسمر مكانه، فتوقف الكلب بدوره وحدقا في بعضهما البعض. استغرق الكلب ثوان فقط ليحسم موقفه ويتبين من خوفه. كشر عن أنيابه الدميمة، ففزع. لم يدر إن كان يتبع سيره أم يتراجع.

حاول استئناف طريقه ولكن غريزة الكلب رصدت خوفه، فزمجر ونبح متقدماً نحوه. وتراجع هو للخلف.

- امشي يا بن الكلب!

شوح الغفير بعصاه، فزمجر الكلب متردداً. يستطيع أن يغرز أنيابه في لحمهما، ولكن تنقصه الجرأة. ولما تقدم نحوه الغفير، تراجع أخيراً، وتهدل لسانه للخارج معترفاً بهزيمته.

تنهد ورمق الغفير شاكراً، ولكن الأخر كان رجع لدكته.

كل حركة يتخذها خاطئة وخارج السياق. حواسه لا تتفاعل بتلقائية مع بيئتها كما ينبغي. يعي أنه يعي.

وهو منسحب من الشارع وجد نفسه يحدق بلا سبب في صاحب الكشك الذي بلا شك تابع المشهد المحرج.

بادله الرجل النظر بدافع غريزي، فطال تحديقهما رغماً عنه، ولما وعى للعداء الذي تسبب فيه دون داع، هون من تحديقه بابتسامة باهتة، لكن عيني البائع كانت قد ضاقت وتملكه شعور لا إرادي بالتهديد.

ابتعد بأنفاس متحشرجة. إنه يفقد كلياً قدرة الاندماج. خيل إليه أنه سيختنق أي لحظة. دقات قلبه تتسارع ككتلة ثقيلة في صدره، وتصبب عرقاً حتى أحس بارتفاع حرارته. أيقن أنه تنتابه نوبة فزع.

جرفته دفعة قوية للبكاء، وهو يجاهد في استعادة السيطرة على تنظيم أفكاره الذي تمردت عليه.

- يا رب نجني!

جاهد أن ينظم أنفاسه، ثم اجتاحته رغبة ملحة في التبول.

ليته لم يغادر البيت!

انعطف إلى شارع 26 يوليو. رنت في ذهنه مقطوعة "بوب" تسرد قصة رجل يسير ليلاً في شوارع مدينة صاخبة، ناعماً بمغامرات عجيبة.

تسلل خلف مكتبة "ديوان" ماراً بـ"كافيهات" لم يخطها من قبل، وتوقف أمام "لاوبرجين". رمقه الحارس الضخم بنظرة باردة فاحصة. كان يرتدي بدلة سوداء عريضة، ويسد المدخل بجثته الضخمة دون أن يبد النية في التزحزح.

لما لم ينطق، بادره الحارس بتحفّز:

– أيوه؟

– أيوه!

ضاقت عينا الحارس.

– حضرتك حاجز؟

يكاد أن يجزم أن المكان خال بالداخل.

– لا.

تفحص كراسة أمامه وسأله:

– كم فرد؟

– واحد!

زفر وكأنه على صدد القيام بتضحية كبيرة، وتخطي كل القوانين من

أجله. ثم رمقه بنظرة متفكرة مدروسة، قبل أن يومئ برأسه أخيراً ليفسح له الطريق. سبه في خاطره وهو يصعد الدرج المؤدي للبار. استقبلته نفحة هواء باردة نافذة من آلة تكييف، وتعالت أمامه سحابة دخان كثيفة. كان المكان فارغاً كما توقع. مكث رجلان فقط خلف البار، وشغلا مائدتين، على أحدهما مجموعة أجنبية والآخرى شاب وصديقته. ذكره ضغط المياه في حوضه بحاجته في التبول. فتوجه إلى المرحاض وبمجرد أن فتح السوستة اندفعت نافورة شفافة ومقوسة، أدهشته لغزارتها وبدت أنها لن تتوقف. إحدى أعراض نوبة الفزع.

فتح صنبورة المياه وقال لنفسه:

- Everything will be alright

كان قلبه مازال منقبضاً. اتخذ مجلساً خلف البار وبادله النادل بنظرة فاحصة وهو يجفف كوب نبيذ عميقاً بوشاح قماش.

أمره بضيق:

- واحد هينيكين!

أومأ في مهنية ووضع كوباً عملاقاً فوق "الكوستر". فض محتوى علبة خضراء بعناية كي لا تفور، تكونت الرغاوي بتناسب على السطح. ذكره السائل ببوله، وتناول رشفة كبيرة. التوى وجهه لطعمها المر، ثم سرت في بدنه انتعاشة فورية. عليه الاحتراس وإلا سيثمل!

ترامت أغاني أمريكية متأففة من السماعات. التفت للرجل جانبه على البار، كان يرتدي بدلة سوداء وقميص أبيض، لحيته البيضاء متساوية

بدقة. فاحت منه رائحة عطر قوية. لقد رآه من قبل. أيكون "منير صابر"، أشهر عازف "بركيشين" في مصر؟ نعم هو. حضر له بعض الحفلات، و لم يصدق عينيه لما شاهده يهوي بسرعة جنونية على "الدرامز"، باعث أصوات عديدة ومتداخلة ببعض، كرامي أطباق لا يفقد السيطرة. إنه في المجال منذ الأزل.

كان يحتسي "ستيلا" وأنامله تغوص في إناء صغير يحتوي سوداني، يقشره بآلية ثم يمضغه. حملق أمامه كأنه يريد أن يتركه في حاله.

– أستاذ منير؟

يعلم أن رفاقه ينادونه "موني".

– أنا اسمي جون.. أنا "بركيشينيست".. ومعجب جداً بعزف حضرتك.

التفت إليه منير وتفحصه ليتبين إن كان رآه من قبل، ثم عاود النظر أمامه.

أومأ برأسه فقط، فقرر أن يتركه في سبيله.

– أنا شفتك قبل كده!

ثم تمتم منير بلكنة أمريكية شديدة:

– عندك موهبة !You are very good.

سر لهذه المجاملة، مع أنه تساءل إذا كان يخلطه بشخص أخر.

تناول منير كوبه ورفعه تجاهه.

- "تشيرز"!

تصادم الكوبان وانسكبت رشفة على خشب البار. قذف منير حبة سوداني إلى فمه.

كان صوته داكناً ويعلو أخر الجملة.

- إيه اتجاه الموسيقى اللي بتعزفوها؟

- "بوب" شرقي!

أومأ منير برأسه، كأنه سمع ذلك من قبل.

- سجلتم اسطوانة؟

- أيوه. مفضلش إلا الورق.

- همم!

تعالى صوت "أيمي واينهاوس" تغني في السماعات إنها لن تقلع عن الشراب، مكررة: No! No! No!

حام الدخان حولهما في تكاسل. امتزجت حواسه بالبيرة والبار. طلب زجاجة أخرى. بثت شاشة تلفاز عريضة مباراة كرة قدم صامتة لفرقتين بالدوري الإنجليزي.

- أحمد، وطي الصوت شويا!

أشار له منير بأنامله، كأنه يدير تحكم صوت غير مرئي. أومأ النادل في احترام ونفذ أمره.

أخذ رشفة كبيرة ليغرق حواسه. شعر بالدوار وأنه سيرتطم بالأرض لو

شرع في النهوض. ثبت عينيه على نقطة أمامه ليستند عليها.

– بتعمل إيه غير الموسيقى؟

التفت إلى منير وأدرك أنه ثمل.

– أنا هسافر كمان عشر أيام لـ"هارفارد". هعمل "ام بي إيه" هناك.

أومأ منير برأسه مجدداً. تفكر أنه يصعب إرضاؤه أو إخباره شيئاً لا يعرفه.

– أنا عشت خمس عشر سنة في أميريكا!

نطق "أميريكا" بلكنة أمريكية.

– عشت في "بوسطن". ولعبت في "هار لم".

رمقه منير بكبرياء منتظراً رد فعل مماثل، فحاول أن يبدو متأثراً.

قرأ الكثير عن "هار لم" وعصر النهضة في العشرينيات من القرن الماضي لما لاقته من ازدهار ثقافي للأفروأمريكان. أعد أثناء دراسته بحثاً عن رواية لكاتب "أفرو أمريكاني" من ذلك الجيل يدعو "كلود مككاي"، تحكي عن نادل شاب يعمل بقطار، مولعاً "بهار لم" ويزورها كلما هيئت له الفرصة، وتوقف قطاره فيها، فيتراود على حوانيها، ويتسكع مع نسائها الفاتنات، ثم يتعرف على شاب "أفرو أمريكاني" مثقف يدعو "راي"، يفتح عينيه لهويته ولأصوله الأفريقية..

– لعبت مع عازفين كبار في "هار لم" عزفوا مع "مايلز" و"كولترين".

ربت بتأن على لحيته البيضاء.

- عشت وحبيت واتجوزت وطلقت.. مراتي من جذور بولندية.. فضلنا عشر سنين مع بعض، وبعدين قلت لها مع السلامة.

كان يتكلم ويتوقف، ويعاود كلامه ويتوقف مجدداً.. يتبع إيقاعاً منفرداً كأنه يعزف "البركيشين" في مقطوعة معقدة.

- ليا ابن بتالي خمس سنين ما شفتوش.

تمتم منير كأنه يتفكر، ولا يتذكر:

- وبعدين رجعت مصر.. اتغيرت كتير.. شوارعها وناسها.. أنت قلت إنك مسافر؟

حدق فيه منير وبات موقناً أنه لم يكن ينتظر أحداً.

- "هارفارد"!

مرت لحظة بينهما تذكر هو فيها والده الذي هاجر إلى أمريكا وتحسر منير على ابنه.

- أنت عارف إن في "فنزويلا" الأطفال بيطبلوا على أي حاجة تقع تحت أيديهم. حلل، أنابيب، أيديهم، رجليهم.

الطبال زمان كانوا بيعتبروه عازف درجة تانية. لكن كل الآلات بتحاول تطلع الصوت اللي احنا بنطلعه. كل الآلات مرهونة بالايقاع. لو اتأخرت أو بدرت ثانية هتبوظ كل حاجة.. ثانية..

ضم سبابته ضد خنصره ليصغر المسافة البسيطة حتى ابيضت أطراف أنامله من الضغط.

احتسى رشفة كبيرة من البيرة، وغالبته شهقة:

– احنا بنخترق مادة فضفاضة من الوقت علشان نكتشف إيقاعات جديدة.. إوعى تخلي العالم يفرض إيقاعه عليك أبداً، أنت اللي بتحدد الإيقاع.

بدا سعيداً بما قاله.

تذكر مريم، إنها منتظراه بالبيت.

– أنا لازم أمشي!

نهض من فوق كرسيه، ولما وقف على قدمين ثابتتين، نقب جيبوه ليستخرج منها الحساب. فوجد منير يحدق فيه بثبات. وقف بحثه و لم يعد واثقاً ماذا يفعل.

فاجأه منير بفتور:

– هو إيه عيب جيلكم بالظبط؟

– عيب جيلنا؟

– عيب جيلكم إن أنتم ما عندكوش وقت!

سأله السؤال وأجابه بنفسه.

– مفيش وقت تسمع الموسيقى أو تقرأ كتاب أو تكمل فكرة أو تحب أو تعمل أي نيلة.. دايماً في حاجة تانية؟

أعاد الجلوس على طرف الكرسي محرجاً. نظر منير أمامه، وراح يقفل يده في شكل قبضة، ويفتحها كذا مرة، ثم رفعها وأنزلها كأنه يريد أن ينوه

إليه أنه هو من اضطره لفعل هذا.

واصل مهاوداً:

– أنت عارف يا مارك "نيتسشه" قال إيه عن الموسيقى؟

– جون.

شوح منير بيده كأنها مجرد شكليات. رفع سبابته لأعلى ليحافظ على انتباهه:

– قال إن العالم من غير موسيقى غلطة كبيرة.

ابتسم منير برضا.

– أنا لازم أمشي!

رفع منير سبابته:

– في البداية كان الصوت.

– في البداية كانت الصورة.

– تدخل رجل عجوز جالس بجوارهما:

– في البداية كانت الكلمة.

لوح منير بيديه مرة أخرى، وكأنهما يشوشان تفكيره.

– الصوت هو أول وسيلة للخطاب.

أصر في عناد وعجرفة الكبار الذين يتيح لهم حقهم السني في المعرفة.

جادل هو:

– الإنسان بيفكر بالصورة. المخ بيرسل صورة بتترجم لكلمات.

حدق فيه منير مذهولاً، وكأنه تفوق عليه وهو على استعداد ليتعلم شيئاً جديداً. ولكنه لم يشأ أن يعلم أحداً. واصل منير بنبرة تصالحية:

– على العموم اللي عاوز أقوله.. أنت ممكن تلاقى أي حاجة في الدنيا.. لكن لازمك توفيق.

تفكر لما يقحم توفيق في الموضوع ومن أين يعرفه.

– لو توفيق ما جالكش وعملك كده..

رفع إبهامه لأعلى.

– كله هيروح هدر.

ثم استطرد منير وكأنه بدأ معزوفة جديدة:

– سمعت عن طبال قبل كده اسمه عبده خان؟

أثار الاسم انتباهه..

– عبده خان كان أعظم طبالين شارع محمد علي. ما توعاش انت على العصر ده طبعاً.. زمان كان محمد علي مليان بالرقاصات والطبالين.. كانت الناس بتيجي علشان تأجرهم في الأفراح.. إحنا اللي بنجيبلهم الفرحة.. ومع ذلك بيحتقرونا.. عبده خان كان عليه نترة طبلة.. بيخرج منها أصوات فوق ما تتخيل.

رن هاتفه. أظهرت الشاشة صورة مريم..

– كان بيقعد على قهوة في رمسيس، موسيقيين مصر كلهم بيرحوها، حتى عبد الوهاب.

انطفأت الصورة وتحولت لـ"ميسيد كال"..

– كان من أكبر مواهب القرن العشرين، ومات من غير ولا نكلة. الناس كانت شايفاه مجرد مطبلاتي.

تجشأ منير ومسح ذقنه بأنامله.

– واحد قاعد وراء رقاصة بيتلوي أدام الناس. ولكن بشرفي يا جون، الناس لما كانت بتسمع عبده خان، ما كانتش بتقدر تثبت مكانها، كانوا مش قاعدين على بعضهم، وعاوزين يقوموا ويرقصوا.. لأنه بيخترق كل قوانين الفيزياء.. وكفاية صوت كرة بتدحرج على الأرض علشان تلهمه... محدش عرف يقلده وكتير حاولوا ولكن ولا جه قبله ولا بعده. لو كان عبده خان اتولد في أمريكا، كانت الناس وقفت طوابير علشان تسمعه.. وقدروا وزنه بالذهب. هو الوحيد اللي كان بيعرف يخرج الإيقاعات دي.. إحساس جميل إنك تتخطى العجز وتخرج الناس منه.. كل إنسان اتولد علشان كده.

تغيرت الموسيقى في البار، ورنت نغمات "سلسا" لاتينية عالية. غلفه دخان نابع من سيجار أشعله رجل أجنبي جانبه. كان البار قد امتلأ وعجت الأصوات وجرجرت الأكواب محدثة نشازاً. جلست فتاة مع رجل ضخم، راحت تشرح له شيء بحماس وهي تلوح بيديها. واستعدت بسمة جاهزة على وجهها كلما قال الرجل شيئاً بدا مضحكاً.

شعر برغبة مجددة في التبول، وترنح إلى الحمام. كان مليئاً برجال يقضون حاجتهم مثله. وقف بجانب شاب أجنبي بشعر طويل وشعر بعدم

الراحة. حدق في قضيبه كأنه يستحضره، ثم ضغط البول المتحشرج كي يندفع، ولما تعنت دس على الشطافة، كي لا يميز جاره أنه غير قادر على التبول. ظل واقفاً حتى انتهى الشاب وغادر، وبعدها فقط قضى حاجته.

لما رجع، كان منير يرمق المرآة أمامه في البار. إنه أشهر عازف "بركيشين" في مصر!

أراد أن يذهب إلى بيته، لكن منير لم يدعه.

أفرغ منير البيرة المتبقية في كوبه على دفعة واحدة، ومسح فمه بظهر يده. ثم قال:

– يلا بينا!

4

استعجب لعدم تأرجحه في الشارع.

تجشأ منير عالياً وفاحت منه رائحة خمر قوية اختلطت بعطره.

توجها إلى سيارة نبيتي مركونة في الشارع. وأشار له منير أن يركب.

استسلم المقعد الوثير لملامسته وتمدد في جلسته. تسربت رائحة قوية من فواحة معلقة حول المرآة. حرك منير العصا من "البي" إلي "الأر"، فارتجت السيارة بحركة مباغتة وارتطمت بالسيارة خلفها.

همهم منير متأسفاً:

- "ماي باد"!

خرج من السيارة وتفحص أثر الاصطدام. تسبب في كدمة بسيطة

للسيارة خلفه. صار بأنامله فوقها، ثم وضع يديه في وسطه وهز رأسه. هرشها متفكراً وأخرج أخيراً ورقة وقلم من درج سيارته، دون رقم محموله وعلقه بين المساحات.

شقت السيارة طريقها إلى "أبو الفدا"، مارة على "الجبلاية" وكوبري "قصر النيل". اجتاحه عالم من البشر والحناطير. كان منير يتحدث وهو لا يسمع إلا مقتطفات يربط بعضها ببعض. حدثه منير عن الحب والخسارة والزواج والأولاد، وتخيل عبده خان جالساً في غرفته الخالية بشاربه الكث ووجهه الحازم بجواره طبلة قديمة لم تمس.

– روح أمريكا يا جوني.. اتعلم واشرب واتبسط،، قضّي أيام حلوة.. اشتغل كثير.. خليك hard worker الدنيا ما بتديش لحد.. وما تنساش ترخي عضلاتك علشان تعرف تحمل عليها تاني.. اتجوز بنت بتحبها.. وخلف.. وحافظ دائماً على فضولك للحياة.

فكر إذا كانت تلك الوصية التي طالما رغب في إلقائها على ابنه.

لم يفق إلا وهو في شارع مظلم، و لم يدر كيف خرج من الزحام. أبطأ منير السيارة قرب ضريح "سعد زغلول"، ثم نزل وجذب سرواله لأعلى وانتظره يخرج بتكلفة. أغلق السيارة بدسة على حقيبة مفاتيحه، وتوجها نحو مبنى صغير يتكون من طابقين. اشترى منير تذكرتين من سيدة سمراء تجلس خلف مائدة صغيرة.. ترامت إليهما دقات طبول إثر اجتيازهما قاعة صغيرة مكدسة بجمهور أغلبيته أجانب اصطفوا على كراس خشبية منتظرين بداية العرض. خفتت الأنوار وتقدمت سيدتان ترتديان جلبيتين

سوداوين، كلاهما تمسك في يديها رق، يضربونه ويديرونه في حركة استعراضية. قبع خلفهما طبال يصطحبهما بإيقاعه، كانت إحدى المرأتين داكنة اللون عن الأخرى وذكروه بفيلم "ريا وسكينة".

راحت السيدتان تغنيان بلغة غريبة، واشتدت ملامحهما وهما يصفعان الطبلة بأيادي متبلدة. أسرعتا الإيقاع وأعينهما متسمرة مكانهما كأنه معمول لهما عمل. ثم قام الرجل وراح يحرك رأسه يميناً ويساراً، وأودى بنفسه في حالة "الترانس".

اخترقت الطبلة أركان القاعة، واجتاحت قوتها الأجساد. كان عزفهم عنيفاً. التقت عينيه مع السيدة داكنة البشرة وحملقت فيه برهبة. تنبهت حواسه لأقصى درجة متوقعاً مصيبة ستهل عليه، ربطها بصوت الطبلة المذعن.. ثم وبضربة محكمة انتهى كل شيء.

صفق الجمهور وواصلت الطبلة دقها على الفور.. راحت المرأتان تغنيان لحناً قريباً للأغنية السابقة.

اتسم وجه منير بالجدية، وهو يتابع العرض بحرص كأنه يدرس الإيقاع.

أيتذكر "هارلم" وزوجته ذات الأصول البولندية؟

اشتد الإيقاع وتسارعت الأيادي وهوت بلا رحمة.. تملكه الصوت وتكونت طبقات في صدره نجح في كتمها بادئ الأمر، حتى ظن أنه تغلب عليها، ولكن راودته نوبة قيء قوية، أدرك أنه لن يستطيع ردعها.

ارتطم بالأجساد وهو يعجل إلى الخارج. حجب فمه بيده، خاشياً التقيئ على أحد الجالسين.

استفرغ معدته قرب الشجرة فوق الرصيف، وطعام الغذاء ممزوج بالخمر ورائحة القيء الكريهة. ربتت يد مشفقة على ظهره. سألته:

- أنت كويس؟

رمقه منير بقلق أبوي. ظل منحنياً، كي لا يطيل اللعاب ملابسه.

- تحب أوصلك في حتة؟

هز رأسه ومسح شفتيه بظهر يديه.

- لا. أنا بئيت كويس.

ابتعد في عجل. أفاقه القيء من خمول الثمل، وأحس أنه يطل على العالم من طابق علوي متحرك. سار تجاه وسط البلد ماراً أمام مبان مهجورة بجانب ضريح "سعد زغلول". تذكر أن توفيق يسكن بالقرب من المنطقة. هاتفه لكنه لم يرد.

توقف عند دكانة قديمة ليشتري لباناً يعطر به رائحة فمه. اصطفت فوق أرففها الهزيلة مساحيق غسيل وأكياس أرز ومكرونة، وعرضت "الفاترينا" بضاعة شحيحة، "سامبا" و"شمعدان" و"كورونا"، لم يعهدهم منذ المدرسة. كان كهلاً قابعاً في الركن يدس أنفه في دفتر عريض وقديم الأزل يتفقده بصعوبة واستغراب. يعافر أصحاب البقالات القديمة لانتشار "السوبر ماركت" و"المولز" حديثة المنشأ اللاتي أغرقت الأسواق

بمنتجاتها، بينما لا يتبقى لأمثال الكهل هذا سوى علاقاته الطيبة مع أهل المنطقة.

– يا حاج! لو سمحت!

لم ينزل عينيه من دفتره.

فصاح:

– لو سمحت!

تنبه له الكهل فاكفهر وجهه كأن عطله للتو. نهض بمشقة، خاطياً نحوه بظهر منحن وخطوات غير ثابتة. وقف أمامه وتهدلت ذراعيه في مستوى "الفاترينا" في استعداد لتناول ما يطلبه.

– عاوز "كورونا"!

التوى وجه الكهل وصاح:

– إيه؟

– "كورونا"!

انحنى لتقترب أنامله من ورقة الشيكولاته السيلوفان اللبني، واستند بيد مرتعشة مليئة بالنمش على حافة الفاترينا.

– اتنين جنيه و..

– إيه؟

زعق وتقلص وجهه من الألم:

– اتنين جنيه ونص!

أخذ الكهل منه النقود ودفعها بخشونة في درج خشب، ثم ترنح إلى مجلسه وراح يتفقد دفتره من جديد. لما تنبه إلى أنه مازال واقفاً يرقبه في فضول، صاح فيه:

- عاوز إيه تاني؟

مضى إلى الخارج بسرعة، وتسائل لما يعامله الكل الليلة بفظاظة، ثم قضم قطعة شيكولاته أنعشته، بعد ما جوعه القيء..

الأفضل أن يوقف تاكسي ويرجع إلى البيت، ويتناول ما خلفته أمه له من طعام..

انتبه لرجل ذو جلباب وعمة متسخة، ترامى له صدى عصاه الغليظة يهوى على دنو منه، ويرج الأسفلت رجاً.

كان عريض المنكبين، ووجهه ينبذ للأمام غير واثق مما سيلقي. صاح بأسى من حرم من البصيرة:

- يا الله!

دوى نداؤه كعصاه الذي انكب في سماء مفتوح، وانتصب وجهه لأعلى كأنه يتوقع الفرج.

حملق في عينيه وهو يعبره.. كانتا زرقاوين وخاليتين كفجوتين.. بدا منظرهما غير طبيعي، ليس لونهما الأصلي.

أبطأ تاكسي ناحيته، فتردد ورمق الضرير مدفوعاً بشفقة ورغبة في مساعدته.

- رايح فين يا حاج؟

توقف الرجل وانتبه كمن رصد فرصة. هتف مستعطفاً:

- ربنا يسترلك طريقك ويكفي عنك شر المرض!

- رايح فين بس قوللي؟

- عمر مكرم يا بني!

- تعال أوصلك!

- ربنا يوقفلك ولاد الحلال ويفرحك!

طلت يده الخشنة باحثة عن مرفقه ليتشبث به. أحس بضغطه، ومضيا يسلكان طريقهما في الشارع بينما المارون يوسعون لهما الطريق. تراخت أعصابه كأنه انتظر فرصة كهذه طوال اليوم. وأحس بأنه سيكافأ بطريقة ما.

- أنت منين يا حاج؟

- من طنطا يا بني!

- وبتعمل إيه هنا؟

- قاصد ناس أعرفهم.. بيساعدوني.. أنا بئالي عشر ساعات في الطريق.. في جماعة طيبين زيك هم اللي ركبوني القطر..عيني زي مانت شايف كده..

رفع ذراعه الآخر كأنه يسير في الظلام.

- عملت عملية علشان أشوف لكن ناقصني واحدة تانية.

- انت اتولدت كده؟

- الله يجازي اللي كان السبب!

مدّ رقبته واشتد تعلقه بمرفقه. همس:

- هو حضرتك مسلم؟

حدق في عينيه السابحتين في بحر أزرق من الظلام. مال الرجل برأسه نحوه، منتظراً جواب.

- أيوه!

- طب صلي على النبي!

قال بعد تردد:

- عليه الصلاة والسلام.

- تصدق وتؤمن بايه.. أنا كنت من النصارى.

وقعت الكلمات، كوقع أقدام على أسفلت مهدم.

رمق العينين الزرقاوتين التين لم يعكسا ما بقاعهما.

- وأشهرت إسلامي بعد ما ربنا هداني وشفت النور.

كان يتحدث بآسى من ظلم، ويتك على ملافظ حروفه، ليؤكد على الافتراء الذي تعرض له.

- أهلي الله يسامحهم هم اللي عملوا كده في.. حاولوا الأول يجادلوني.. فجادلتهم بآيات الله.. لغاية ما حطوا سيخ مغلي في عيني.. وأديك شايف.

- أهلك هم اللي عملوا فيك كده؟

– الله يسامحهم.. هيروحوا من ربنا فين.. بس أنا عيني فداك يا رسول الله.. لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله!

تعثر الرجل وبدا انفلات عواطفه يفوق قدرته في الرد.

– دي الحقيقة!

يظنه ساذجاً كي يتلو عليه هذه القصة الخيالية ليعطف عليه بالمال.

– إنت رايح فين عند عمر مكرم؟

– جنب السفارة الأميريكية.

اجتازا صنية الميدان بصعوبة وسط السيارات المارقة، ولما وصلا بسلام سأله:

– لو كنت قلتلك إني مسيحي، كنت حتكيلي القصة دي برضو؟

تربص الكهل غير متأكد من الجواب، ثم وجه سبابته لأعلى وهتف في رهبة:

– الله الحق.. وأنا قلت الحقيقة!

أسرع خطاه. أراد أن يتخلص منه في عجل. وصلا عند الحاجز الأمني للسفارة، ورمقهما عسكري حراسة بشك.

اتسعت عينا الرجل وانتفض منفعلاً:

– هم عارفني!

صاح في الظلام:

– سلام عليكم!

انتبه لهما ضابط جالس فوق كرسي، تفحصه ثم أومأ للعسكري ليدعهما يعبران. تقدم الكهل في عجلة وكأنه سيعبر بوابة زمنية ستغلق بعد وهلة.

همهم بارتياح من اقترب من هدفه:

– تاني بيت على الشمال!

كان الشارع خالياً وموصداً من الناحيتين. شمخ مبنى السفارة الضخم على يمينهما بينما قبعت بيوت صغيرة على اليسار مختبئة خلف الأشجار. توقفا أمام مدخل حديقة لبيت صغير. سأله بتردد:

– أنت متأكد؟

– إن شاء الله!

دفع بوابة الحديقة وخطاها بحذر، سمع لهاث بجانبه، ظنه كلب حراسة متربصاً له، ولكن اتضح أنه "موتور" لآلة رش تنتفض كلما دارت دائرة كاملة. تمعن الظلام، ووضح له درج يفضي إلى باب موصد. صعده ودق الجرس. حبس أنفاسه لما سمع صوت أقدام يقترب. طلت امرأة في منتصف عمرها خلف الباب، سألته بالإنجليزية:

– نعم!

كانت تشعر بالأمان إزاءه، متأكدة أن الأمن لن يسمحوا لأي أحد بالمرور.

– في رجل ضرير معايا بيدعي أنه يعرفك.

ردت بلغة عربية ركيكة، بعد ما طلت خارج الباب وتبينت من هوية مرافقه.

- أه.. خليه يدخل!

هبط الدرج مرتاحاً، وأسند الضرير. كانت المرأة قد اختفت في الداخل وتركت الباب موارباً.

أخرج محفظته ودس ورقة بخمسين جنيه في يده الخشنة.

صاح الكهل:

- ربنا يباركلك ويكتب لك الجنة يا بني.. ربنا يوقفلك ولاد الحلال..

ثم اقترب من أذنه وهمس:

- أنا مسيحي!

5

خطا الشارع وتنفس الهواء الصاعد.

ثم أخرج هاتفه وهاتف توفيق. رد تلك المرة.

– جنو.. فينك.. أنا في حرية.. مستنيك!

بمقدوره المرور عليه قليلاً قبل أن يرّوح، فمريم غالباً في بيتها الأن.

خطا الساحة العريضة لمجمع التحرير، كان الأطفال يركضون ويلعبون الكرة في الفسحة وأهاليهم مستلقون فوق الدكك المتناثرة. تواروا في ذهنه وهو يجتاز "طلعت حرب" ببائعيها وصراخهم. وقف رجل ملتح فوق سيارة نصف نقل صغيرة مكسوة بسراويل "جينز" وفساتين ينادي على الزبائن بنغمة ابتكرها لاجتذاب الأمهات المحجبات وبناتهن اللاتي على وشك الزواج. ورمق البائعون الواقفون على عتبة المحلات المشترين

الذين يتوقفون أمامهم ولا يشترون بازدراء..

ناله الإرهاق وهو ينعطف في شارع البستان. تفشى في مفاصله وعضلاته التعب وأحس بدوخة خفيفة، فدس بقدميه فوق الأسفلت ليستشعر جاذبيته.

كان شارع "البستان" أهدأ نسبياً من "طلعت حرب" بعد ما خلا من الجموح المتوافدة عليه نهاراً في سعيها الضروري، وقد مضوا مسالمين بعد ما هدأت أنفاسهم المشحونة، وتبين أن كل ما سعوا وراءه ما كان ذا أهمية حقيقية.. ففر الناس المتبقون كناجين من حطام مركب بما تبقى لهم من طاقة، في النهاية أنجزوا ما أنجزوه، وبقى الحال كما هو عليه.

حامت الأفكار حول ذهنه كجموح من النحل تحوم حول خلية عسل، ولم يعد قادراً على استيعاب ما حوله. لم ير الرجل المهدم الذي يحدث نفسه وعبره لأنه لا أحد يريد الاستماع له، ولم يستدير لما ارتطم بمجهول في الطريق، ولم يلتفت لرواد المقهى بعد ما ارتجفوا لضياع هدف مؤكد على شاشات مذبذبة، ولم يلحظ نظرات إعجاب فتاتين محجبتين تهامستا وضحكتا وحجبتا فميهما بيديهما.. لم يفق إلا لما تراءى له من بعيد نافذات الحرية المستطيلة الخضراء المكسوة بكارتونات مطبوع عليها علامة "ستيلا" الخضراء. أعاده ذهنه تدريجاً إلى الواقع وهو يقترب في استعداد لتجسيده نفسه. استدرجه صخب الحانة فور اقتحامها. تكررت مجموعات مستنسخة لبني أدمين حول موائد معدنية صغيرة مصطفة فوقها زجاجات ستيلا خضراء. كانوا يتصايحون كي تخترق أصواتهم واق الضوضاء، فيضل فيه ما يضل ويصيب منها ما يصيب.

شمل المقهى مختلف الجنسيات والطبقات.. مثقفين وفنانين وصحفيين وسكارى وسائحين.

لمح توفيق منزوياً مع فتاة أجنبية في الركن، لاحظ وهو يقترب منهما أن لغة جسدهما تشير بالألفة.

– جنو!

استدار في طريقه فلقي شادي يرمقه بابتسامته العريضة، كانت بجواره لبنى ومجموعة من الأجانب يحتفلون بمناسبة ما. قبع شادي بجسده الهائل فوق كرسي صغير من الخشب.

– برنس الليالي.. خدلك كرسي.. دي حفلة وداع الواد ماركو.

أشار لشاب أجنبي رفع زجاجة البيرة تجاهه.

– اشرب لك بيرة!

التوت معدته لمجرد الفكرة.

– مش هينفع بأمانة!

همهم شادي بكلمات تلاشت في الصخب. فاقترب منه ليسمع.

– لثيت اللحن!

رمقه شادي بنظرة خالية من الهذيان. بدا سعيداً وكانت عيناه تتألقان بغبطة بسيطة.

– أنا مبسوط لك!

ارتمى منهكاً بجانب توفيق وصديقته.

- جنو.. أقدملك إيزابيل!

تمعنته الفتاة بحذر يستكن للغرباء.. كانت قصيرة القامة، شعرها أسود وطويل ووجنتاها مسحوبتان مذكرة إياه بالحصان.

- إيزابيلا كانت في حفلة الأورمان.. فاكر؟

- ما خدتش بالي!

دوى إليهم زعيق حاد.

- ياد يا بن ال..!

لوح رجل بزجاجة بيرة في الهواء ليهدد بها غريمه عصفور، نادل الحانة، الذي يبدو دائماً في حالة من الثمل.

- أنت نسيت نفسك يلا؟ أجيبلك البوليس يهرشوك؟

تدخل مدير الحانة الأجنبي الأصل ليهدأ الموقف، ولما ظل محتدماً، سب عصفور بشتائم بذيئة ودفعه بعيداً ليراضي الزبون.

اتضح أنه تصادف دخول الرجل مع مجموعة من الأجانب، ففضلهم عصفور عليه، وأعطاهم الكراسي المتبقية.

لم يقبل الرجل الثائر مهادنة وغادر المقهى حانقاً فرجعت الناس إلى ثرثرتها، وربت المدير على كتف عصفور ليبين له أن عتابه ما كان إلا تمثيلاً.

شرح توفيق لإيزابيل ساخراً أن معظم الخناقات بين المصريين لا تتعدى الزعيق والسب.

- إحنا "بوء" بس!

جاهد أن يجذب انتباه صديقه الذي كانت كل عيناه متوفرة لإيزابيلا. قال له:

- شكلي قطعت عليك؟

- يا باشا أنت تقطّع زي ما انت عاوز. فداك مزز العالم كلهم!

ثم بدأ توفيق حواراً جديداً مع إيزابيلا.

- أنا كنت مع منير صابر!

- يا راجل! عامل ازي؟

- غريب شوية بس ظريف.

علقت إيزابيل على شيء ما، فاستحوذت على اهتمامه كلياً. قطب جبينه وتعكر صفوه. لما طلب منه المجيء إذ كان لا يملك الوقت له؟

علت قهقهة ناحية مجموعة شادي، فأشار توفيق ناحيته وشرح لها أنه زميلهم غريب الأطوار الذي حكى لها عنه.

- فاضل عشرة أيام!

رمقه توفيق غير متفهم.

- على سفري!

- هتوحشنا يا جنو والله.. كلها سنتين ويعدوا.

أراد أن يوعده بأنه لن يتغير شيئاً وأنه سيجد مريم والفرقة في انتظاره لما يرجع.

- بيرة يا أستاذ؟

مد له عصفور زجاجة "ستيلا". يتدلى دائماً جردل من مرفقه، وفي متناول يديه زجاجة على استعداد أن يفتحها في أي وقت.

هز رأسه. فحدق فيه عصفور في نفور جعله تمنى لو أن الرجل كان قد هشم رأسه.

- هاتها!

تناولت إيزابيلا الزجاجة فانصرف عصفور يدك بفتاحته المعدنية على رقبة الزجاجة منادياً على النشوة لمائدة أخرى.

روت إيزابيلا لتوفيق عن "برلسكوني" وتورطه مع المافيا، وتوفيق لا يزيح عينيه من على شفتيها، وهو يعلم أنه ليس مهتماً بـ"برلسكوني" البتة.

تطرقت بعدها لبحث تجريه عن شارع "محمد علي". فطنتهما بانجليزية ممزوجة بلكنة إيطالية عن طبال مغمور قطن هذا الشارع، وقد وقعت في حوزتها صورة أبيض وأسود تظهره بشاربه الكث ووجهه النحيف قابعاً خلف راقصة. عثرت على الصورة في مجلد قديم يسرد تاريخ الموسيقى الشرقية، وقد دون مؤلفه بعض السطور عن ذلك الطبال واصفة بأن دقاته كانت تصيب المستمعين بالانتشاء، وأنه لقب بملك إيقاع شارع "محمد علي". ظلت تنقب عنه حتى اكتشفت أن مشوار تألقه بدأ في الستينيات قبل أن يتعرض لحادث وينتهي به الحال في حجرة بائسة بعد معاناة قصيرة مع المرض، و لم يترك بحوزته شيئاً يذكر.

سألها باهتمام عن اسمه، فأجابت:

– عبده خان!

واصلت القصة من حين انتهى منير. حكت كيف كانت الراقصات يتمحكن فيه ويدللونه بمالهن ويغرياه كي يوافق على العزف معهن، ولقد كان نجمه متألقاً والرواد يأتون خصيصاً للاستماع له. عرضت عليه ذات يوم راقصة في إحدى جحور ملاهي "محمد علي" مرافقتها إلى باريس، و لم يكن قد سمع عنها من قبل، أغوته وأقنعته فوافق واجتاز عاصمة الفن من أوسع أبوابها، بعد ما كان قد صنع لنفسه اسماً في "محمد علي"، دون أن يدرك غالباً.

قالت:

– يلحظ التواضع عند العباقرة الذين يعتبرون نبوغهم تأتى بالفطرة، لدرجة أنهم لا يجدون أي غرابة فيما يصطنعون!

بهرت باريس "عبده خان" بأنوارها ونسائها. اعتلا مسارحها الفاخرة، وهوس جمهورها بموهبته الشرقية، خاصة لما كان ينجلي بعزفه الفردي. توافد المستمعون من كل أنحاء المدينة ليرونه. كان جوهر وقمة العرض. وذات ليلة تصادف وجود "مناجر" أتى خصيصاً من أجل الاستماع إليه، دعاه إلى شراب واصطحبه إلى إحدى البارات القديمة ليقدمه إلى راقصة مغربية تدعى "بهية".

كان العمر تقدم بها و لم تكن "هزتها" كما كانت، فتخيل مدير أعمالها

أن نجوميتها في حاجة إلى وميض "عبده خان" كي تتلألأ من جديد.

شربه المناجر كأساً تلو الأخر وهو يستفيض له شرحاً، كم الفائض المادي الذي سيعود إليه. أدركت "بهية" تلك المرأة التي خاضت تجارب في الحياة لا أول لها ولا آخر أن هذا الرجل لن يغوى بالمال، فاتخذته في الليلة نفسها عشيقاً لها، ونقّل بالمناسبة عن عشيقاته الفرنسيات أنه كان يجيد خصيصاً استخدام يديه.

– ولا أدري ما يعني ذلك حقاً.

تمتمت إيزابيلا في إحراج.

صرفت عليه بهية أموالاً باهظة كي لا يفكر في تركها. اجتنت له أرقى الملابس، وسمحت له بالولع مع نساء أخرى.

تقبل "عبده خان" بصدر رحب ما تلقيه ليالي "باريس" تحت قدميه، فأدمن النساء وراح يسرف في الشراب، ولا يعرف الاعتدال طريقاً لقلبه، وولعه بليالي باريس لم ينسه ولعه الأساسي، الطبلة، فكلما كان يدكها كان يمتلك الساحة ويأسر المتفرجين والنساء تتملكهن نشوة لاذعة لما كانت أجسادهن تستجيب لدقاته..

يقال إنه بقدر تحكمه في إيقاع الطبلة تمكن من فك شفرة سر الوقت، وهذه خرافات بالطبع!

بالنسبة للفرنسيين كان "عبده خان" معجزة، حالة "أكسوتيك" من كوكب آخر. لم يجيد لا الفرنسية ولا الإنجليزية، ورغم ذلك كان

الجمهور يدعوه لموائدهم بعد العرض ويتمتعون بصحبته دون أن يفهموا أو يفهم منهم حرفاً.

وذات ليلة قام أمير عربي بتنقيطه بدلاً من بهية بمئات الفرنكات مما أسفر عن تفجر الغيرة لديها وباقي الفرقة، وقد كانت مشتعلة منذ زمن بسبب شهرته الفائقة وإهمال الجمهور لهم.

يقال إنه رغم مشاجرته مع بهية إلا أنه لم يجرؤ على مغادرتها لأنها كانت تمثل الوصلة الوحيدة له بالعالم الغريب. وقد أخفت جواز سفره و لم تكن تعطيه مالاً وفيراً كي يضطر الرجوع إليها..

تضاربت القصص بعد ذلك. هناك من ادعى أنه وقع في غرام غانية أهلكته ودفعته للدمار، وهناك من يروج أن بهية انتقمت لخيانته ولغيرتها شر انتقام. وتتداول القصص أيضاً أنه لم يحتمل الشهرة، فصار ضحية لغوايات ومنازعات المدينة، وهم بالإفراط في الشراب وتناول الأفيون. وهناك من يروي أنه فاض بالغربة واشتاق لبلده، و لم يكن يمتلك ما يكفيه من مال لاقتناء تذكرة العودة.

– أما أنا فأميل أكثر تصديقاً قصة أنه تورط في نزاع مع إحدى المجرمين العرب في باريس. وهذه القصة تؤكد على ارتباطه بالغانية، وهي كانت عشيقة العربي. ويدعي الراوون أن ذلك العربي أصاب "عبده خان" في يده إصابة بالغة مما دفعه للتوقف عن العزف.

وتوصلت إلى أنه انتهى به الحال في شقة ضيقة بشارع "محمد علي" حيث انصاع نجمه للنسيان وزال وكأنه لم يكن.

..

أنهت إيزابيلا رويها بغتة. فرمقوها منتظرين أن تضيف شيئاً أو تقوم بشرح جزئية ما، ولكنها حملقت فيهما فحسب.

فابتسم توفيق وسأل بالإنجليزية:

- أيرغب أحدكما في تناول بيرة أخرى؟

اصطك صوت المعدن فأحدث إيقاعاً التف حوله كلام منذثر.

سألها:

- هل استمعت لعزفه؟

هزت رأسها كمن لا يشأ استمرار الحديث، وغالباً لعدم معرفتها المزيد.

فتح توفيق حواراً معها ولكنها رمقته بغموض وواصلت بعد وهلة، كأنها كانت تفضل ألا تتطرق لهذا الموضوع.

- هناك قصة غريبة متعلقة بـ"عبده خان" ولكنها تشبه الخرافات. لا أدري إن كان من المفترض أن أتحدث عنها.

تغاضت حواسه عن التعب الذي لاحقه طوال المساء وأومأ لها برأسه بلهفة ليحثها على المضي.

لم تستكمل على الفور. تغلبت على ما يبدو تحفظاً أوروبياً لديها يمقت الخرافات.

- إني لا أصدق حتماً هذا الكلام، ولكن هناك من يزعم أن "عبده خان" يدين بنجاحه لساعاتي قديم، هو من قام بضبط الإيقاع له.

ضحك توفيق واعتبرها مزحة، بينما ظلت علامات وجهها جادة.

– لقد صمم الساعاتي ساعة جيب كما اعتادوا صناعتها في ذلك الوقت، خصيصاً لضبط دقات القلب، كي تتزامن مع إيقاع عبده خان، وهو إيقاع خارج حسبان الوقت الذي اخترعناه، والمعترف به.. لقد تمكن "عبده خان" بساعته تلك أن يواظب دقات الوقت بدقة خارقة.. وهنا يكمن سر فك شفرة الساعة واختراقها، ولذلك حقق ما حقق من ضربات تتحدى قوانين الطبيعة المعروفة.

– لكن هذه خرافات!

حدق فيها كأنها تلت عليه قصة تستهزئ بإدراكه. فردت بضيق:

– لقد قلت لك مسبقاً إنها أسطورة!

ابتسم توفيق وحاول أن يلطف الجو.

– عليك أن تستمعي لجنو. إنه عازف إيقاع يخترق مادة الوقت هو الآخر.

ثم قال له بالعربية:

– إيه يا برنس.. ما تروأ.. أنت مش في "المود" النهار ده ولا إيه؟

تذكر مريم وأمه والأحزمة المنتظرة إياه في البيت.

– لازم أكت! ورايا لسا مليون حاجة لازم اعملها.

رمقه توفيق بنظرة متفهمة، بينما راحت إيزابيلا تحتسي البيرة وتنظر حولها بترقب.

اجتاحته فجأة رغبة للبوح له بمدى امتنانه له لصداقتهما، ولكنه اكتفى بابتسامة، وأشار لشادي وهو خارج. كان الأخر منهمكاً في الحديث مع ماركو.

اختبأ وراء زجاج التاكسي وتمعن الأنوار بالخارج..

لسبب ما تعاوده هذه الذكرى.. والده يمسكه من يده كأنهما خرجا للتسكع معاً، ثم يجلسه جانبه على المقعد الأمامي، ويطرح عليه ما يعرفه عن الحياة.. وهو يتظاهر بالفهم..

سألته مريم مرة إذا كان مايزال يفكر فيه. فرد: البعيد عن العين، بعيد عن القلب.

خيل إليه أنه لم يعد يكترث..

6

خملت الشقة بلا حركة، كأن الأثاث يتنفس في صمت.

تسربت إلى أنفه بقايا نفاية طعام اختلطت برائحة الأثاث.

وضع مفتاحه وهاتفه ومحفظته وساعته على الطاولة. تنبه إلى شنطته المحزومة في ركن غرفته واجتاحه شعور بالذنب.

– كنت فين يا جون؟

تطلعت أمه إليه بتعب أمومي، وتفكر أنه سيهجرها..

– كده ما بتردش، لا عليّ ولا على مريم!

– معلش يا أمي!

– مالك يا حبيبي؟

عكست عيناهما قلقهما عليه. قبلها برقة على جبينها.

- ما ليش!

- القسيس "باولوس" كلمني انهارده. عاوز يشوفك.

إنه قسيس كنيستهم في مصر الجديدة. يعلم أنها هي من سعت لترتيب الميعاد. ولكنه يود فعلاً ملاقاته. طالما أحس بألفة نحوه منذ الطفولة.

- تصبحي على خير يا ماما!

قبل أن تتوجه إلى غرفتها، قالت:

- إبقا صالح مريم علشان زعلانة أوي.

مضى إلى الشرفة. استكن الشارع بعد ما تخلص بصعوبة من صخب البشر الذين بدوا أنهم لن يفارقوه أبداً. بسط عينيه فوق أسطح البيوت المتنافرة، وأراد أن يملأ أفكاره بأشياء غير التي تسكنها.. تبدو القاهرة دائماً جميلة بأنوارها من نافذة طائرة هابطة. كيف تسنى له يوماً أن يمقتها هكذا؟

لكنه لم يكن يستطيع المضي هكذا!

رمق امرأة متسولة فوق الرصيف تجمع طفليها الصغيرين بينما تحمل رضيعها بإهمال وهي تهم بالنهوض بعد يوم طويل من ابتزاز المشاعر. إنها غالباً من بولاق، حيث البيوت ملتصقة ببعض، والجارة تسمع كل كلمة تنبت من الجارة المجاورة. عالم يفترس فيه القوي الضعيف.

لكنه لا يدرك شيئاً عنه، فهو بالكاد يغادر الزمالك.

باقي أيام وبإمكانك أن تبدأ حياة جديدة. لست مرغماً على شيء. فلقد أقدمت ونويت على السفر، فكن رجلاً وتحمل المسئولية!

..

قدموا له أصدقاء العزاء في ضحايا الكنيسة، رغم أنه لا يعرف أحداً منهم، فكل ما يجمعهم هو الصليب.

يتبرأون من التعصب وكأنها وصمة التصقت بهم..

يتظاهر بأن قضية الأقباط لا تخصه، ونادراً ما يعلن عما يجول في خاطره حقاً. الطيبة ألا تخلق لنفسك أعداء.

جنو مسيحي بس كويس!

يمتنع عن التعليق وينحي قضية الأقباط جانباً كأنها لا تخصه، لأن الحديث معناه تبني الأراء، والأراء تجلب المواقف آجلاً أم عاجلاً. وأي موقف سيستدعي منه أن يمثله.. الأفضل ألا تحكم مثل المسيح. لكن الإنسان في حاجة أن يكره ويغضب ويحكم كل حين، لكي يجعل ذلك منه انساناً..

الأقباط لا يأخذون حقوقهم حتى في الكرة، نسب هذا القول للبابا.

تساءل لو كان هناك لاعب قبطي وسط "منتخب الساجدين" أحرز هدفاً، أكانوا سجدوا على الأرض؟

..

جالته خواطر استدعت خواطر أخرى. طل بعينيه لبيوت قابعة مثل مكعبات خاضعة بعيون خافتة، محتمية الناس بداخلها. لن تسعفهم طيبتهم

في شيء، إنهم يتباهون بالطيبة فقط لخوفهم. خيل إليه أنها مستعدة للغليان أي لحظة..

سيخرج. إنه الاختيار الصحيح!

ظلت الأفكار تدور في رأسه، ومريم نقطة التلاقي..

ثم تابع الليل يزحف بستاره الذي سينكشف بعد قليل عن مسرح مليء بالغبار حيث يسرح ممثلون تائهون لا يمتلكون أي أدوار..

7

سيعزف الليلة لآخر مرة مع الفرقة، هذا أول خاطر انتابه لدى استيقاظه.

دفع الغطاء وجلس على حافة السرير يحدق في قدميه السمراوين التي تمتد منها عظام أصابعه النحيفة. قالت له مريم مرة إن المرء يقدر أن يتعرف على الإنسان من خلال تمعن قدميه، لأنهما بالأحرى يشبهان وجهه. أفكارها غريبة.. جلس هكذا لا يدري كم من الوقت حتى طرقت أمه الباب.

– أوعى تتأخر يا جون على القسيس بولوس! أنا عملتلك الفطار.

كانت تتبل اللحم في المطبخ. ولما ظهر وضعت الفطار أمامه على المائدة.

- عاوزاك بعديها تفوت على طنط منى وتجيبلها شوية عصير ولبن وفاكهة. أنت عارف حركتها بئيت تقيلة.

تناول طعامه في صمت وراقبها وهي تعمل بهمة.

- ماما.

كانت منهمكة في تزويد الشربة فوق النار.

إني أفكر في إلغاء السفر..

التفتت إليه لما لم ينطق. فسألها:

- مش عاوزة حاجة؟

أدارت له ظهرها بعد ما تمعنته بنظرة فاحصة وتمتمت:

- أبقا جيبلي معاك كريمة "جهينة".

..

كان كوبري "أكتوبر" مكدساً، ولم يكن صلاح سالم أفضل مروراً. الازدحام وحده سبب كاف للهجرة.. ظل يراوغ بسيارته ويستغل المسافات الضيقة حتى نجح أخيراً في الانعطاف إلى شارع جانبي قرب الكنيسة..

شعور غريب أن يأتي هنا غير يوم الجمعة. ترجع علاقتهم بالكنيسة.. منذ كانوا يقطنون في مصر الجديدة بداية التسعينيات. كانت تربط القسيس الصداقة بوالده. وحسب معرفته فقد حاول التدخل ليصلح بين والديه. ترامى له أنه حنق من مهاجرة والده. لما انتقلوا إلى الزمالك

ترددوا بداية على كنيسة كاثولوكية متفرعة من "26 يوليو". لكن لم تكن أمه مرتاحة فيها، وبعد أن أطلعته يوماً عن رغبتها الصلاة في كنيستهما القديمة، لم يعترض، بل وافق بارتياح، وقد استشعر طوال الوقت أنها في حاجة لسند معارفهما في الكنيسة. تم استقبالهما ليلتها بحفاوة، ورحب بهما القسيس بذراعي مفتوحين، أجلسهما في الصف الأول وراح يتلو قصة عودة الابن الضال. ذرفت أمه الدموع والأيدي تربت على أكتافهم. واساهما القسيس بموعظته، بينما فقد هو جزءاً من إيمانه تلك الليلة..

كانت الكنيسة خالية بغرابة، كأن بيت الرب هجر. تخيل كيف يسعد الراهبون بقدوم يوم الجمعة لانتشالهم من عزلتهم الأسبوعية.

استقبله كاهن رحب به واحتضنه بقوة قبل أن يقتاده إلى مكتب القسيس.

وجده منهمكاً في تدوين موعظته الأسبوعية. لم يرفع عيناه من على الورقة. تمعن حوله الغرفة العتمة التي لم ينسرب داخلها إلا نور متضائل نابع من نافذة تطل على الحديقة.

رصدته عينا القس أخيراً فنهض مشفوعاً ببسمة وعينين مشعتين بالدفء والمحبة.

- ابني العزيز!

سحب القسيس يده لما بادر بتقبيلها وضمه لصدره. باشر بالتطلع إليه بإشراقة أحرجته.

– لم يتهيأ لنا الوقت لنتحدث منذ فترة يا جون! كيف حالك يا ابني؟ لقد صرت رجلاً!

همهم شكره في حياء، وجلس قباله يصطنع ابتسامة مفتعلة.

تدلت ذقنه البيضاء مثل مقشة صغيرة وأضافت لمنظره وقاراً ليناً.

ربت القسيس فوق ركبته وسأله:

– كيف حال والدتك؟

– بخير. هي من أصرت على أن ألتقي بك، مع إني كنت أنتوي زيارة قدسك.

– يسعدني ذلك يا جون. لم نتحاك منذ زمن. اطلعني على أخبارك! كيف حال الموسيقى؟

– سنعزف الليلة في "الأزهر بارك"!

– عظيم! عظيم! ليت بمقدوري الحضور.. ومريم؟

– ننوي إتمام الخطوبة السنة القادمة وطامعين في مباركة قدسك بالطبع!

– سيكون ذلك من دافع سروري!

نادى القسيس على راهب يقف في الحديقة:

– اعمل لنا كوبين قرفة يا مرقص، بارك الرب فيك!

ثم رمقه القسيس بعينين منتظرتين، وضغط هو قبضته من التوتر.

ما عيب جيلكم، هذا ما سأله منير.

شع من عيني القسيس سكون خلفته آلاف الصلوات، تلاها قلب مليء بالايمان ومنعدم الشك.

– إني أرى متاعب الدنيا على وجهك يا ولدي. أتسبب لك النساء المشقة؟

غمز له بعينه، فابتسم ورمق من النافذة عامل نظافة يجمع أوراق شجر بيديه الخشنتين.

– والدتك أبلغتني أنك تعاني نوع من الإرهاق.

تناول القسيس صليباً أسود التمعت أحجاره الكريمة كلما أداره.

– مجرد انشغالات السفر!

قرع الباب ووضع راهب أمامهما كوبين بحياء فاحت منهما رائحة قرفة ثقيلة.

تفحصه القسيس حتى أغلق الباب وسأله بخفوت:

– ماذا بك يا ولدي؟

أحس بأنه يرتفع عن الأرض أو أنها تتباعد.

حدق فيه القسيس بجدية عمله الخشوع.

– سأسافر بعد خمسة أيام!

أومأ القسيس برأسه.

– وكلما تعمقت في الأمر بدا لي كهروب.

توقف ولكنه لم يقاطعه.

– وربما أكون بهرب من نفسي أو من البلد.

– كلنا يتهيأ لنا الهرب أحياناً من شيء ما. هذا طبيعي. إذ كانت تخالجك الشكوك والمخاوف، فينبغي عليك الإفصاح عنها والتعامل معها.

أدار الصليب في يده.. أراد أن يسأله إن كان صلواته تردع عنه الهواجس.

تفجر بغتة:

– إني أفقد إيماني قدسك!

تلقت عيناه الصفعة في صمود.

ترامى له من قبل كيف طرد شاب من الكنيسة لاختلافه مع القسيس في اللاهوت.

سأل القسيس بهدوء كأنه يستفسر عن حالة مرض.

– متى حدث ذلك؟

تمتم في ضعف بعد ما باح باعترافه.

– لا أدري، حدث تدريجياً.

سأله بحزن ملموس.

– ألم تعد تؤمن بالرب؟

– كلا. أؤمن.. لكن إيماني هش.. لا أشعر به وأنا أتلو الصلوات.. إني أتخبط في الشوارع.. أفكاري شاردة وأخجل منها.. الوجه الذي أقابل

به العالم ليس الوجه الذي أواجه نفسي به.. لا أتفاعل مع من حولي بقدر ما أريد..

- ماذا عن مريم ووالدتك؟ ألا تشعر جوارهما بالأمان؟ والفرقة التي كرست لها كل الوقت؟

بدا القسيس مهموماً.

- أفكرت أن تلتحق بأنشطتنا، وترافقنا في سفرياتنا؟

جرب أشياء عدة بدءاً بالأعمال الخيرية والعمل التطوعي حتى "اليوجا" والـ"Meditation"، ولم تفلح أي منهم. لم يجد طريقة ليتشبث بها، فأحياناً يبدو الايمان كمجازفة كبيرة!

- بداخلك مدينة من الايمان تستطيع أن تبنيها كيفما شئت، إنها مدينتك!

لا يوجد داخل قلبه مجالاً للشك، فعقله محكم باللاهوت.

صاح مستنجداً مشيراً خارج النافذة.

- إني أريد إيماناً ينفعني بالخارج قدسك!

غض القسيس بصره، فتمتم مسرعاً.

- إني آسف!

لم تكن فكرة صائبة المجيء إلى هنا، كل شيء في الحجرة يوحي بالحزم.

- إيماني محتجز داخل كنيسة.

بادره القسيس بصوت لم يرافقه منذ صغره.

- لقد أتى يسوع كي يلبي حاجاتنا جميعاً.. الدين لا يفرق عن الحياة.. نحن نخطئ ويتقبل الرب توبتنا. كل خطوة نخطوها تجاهه، يخطى مائة اتجاهنا.

- إنه كلام الإنجيل!

- الأنجيل أتى للبشر ليطهرهم من أخطائهم ويحثهم على الفضيلة.. ألست قادراً على التفريق بين الخطأ والصواب؟

- إدراكي للصواب شيء، وإيماني به شيء أخر.

- أتواظب على الصلاة؟

زفر في تعب:

- نعم قدسك!

أومأ القس برأسه وبدا أنه سيقول شيئاً، وتأكد أنه بعد ما تكلم كان سيقول شيئاً آخر:

- هذا يحدث طوال الوقت!

ثم ابتسم في محبة.

- نحن نصاب بالأنفلونزا الروحية كما أطلق عليها، لما نتركها متخلخلة ومهملة. فلا نعالجها متخيلين أنها ستشفى نفسها بنفسها، لكن نقاهتها تتطلب منا جهداً وعناءً.

زالت الابتسامة من وجهه وكأنه لم يكن متأكداً من صوابها.

زفر نفساً احتبس في صدره. بينما قام القسيس من مكانه.

- إني لا أدعي امتلاك الأجوبة.. لكنني أوقن كل اليقين أن الرب محبة وخير مطلق أكثر مما أتقن اللاهوت.. يسوع أتى كي يخلصنا.. وكل ذرة بداخلنا تتوق للخلاص.. الرب خلق الإنسان على شكله.. وضحى بحياته من أجلنا..

لا يبغي سماع موعظة أخرى. إنه يعطيه علاجاً لا يفطنه.

- لن أقل لك ماذا يتوجب عليك فعله. أفكارك ملكك ولا ينبغي أن تخجل منها.

استرجع في ذهنه مواقف واجهته لم يتعامل معها، ناس قابلهم، كلام كان ينبغي أن أقوله..

- ربما عليك فقط الايمان بالناس يا جون.

- أؤمن بالناس؟

- أنت حارس لأخيك!

أغلق القسيس عينيه ودعكهما بقبضته، ثم توجه إلى النافذة. شبك ذراعيه خلف ظهره يراقب عمال النظافة في الحديقة. ارتكزت الغرفة في سكون وكأنها منتظرة منه إشاره. ترامى له همة الراهبين ونداءاتهم النشطة بالخارج.

حدق في الحائط المتعرج أمامه واصطدمت عيناه به..

- أتدري أني كنت دائماً أحسد تعمق العازف في عزفه.

التفت إليه القسيس باسماً:

- دائماً كنت أقول لنفسي لو أدى المصلي صلاته بتعمق العازف، لو تبحر مثله، لنبعت صلاته من القلب حقاً.. فالعزف نوع من الابتهال.

إنه يجيد تغيير الحديث بجدارة. خطيب بارع بلا شك يخشاه أعداؤه. لكنه يمارس دوراً ليس دوره، ليس طبيباً نفسياً.

- ترى ما يرى وهو غائص في عزفه؟ الصلاة تسعى لتطهير البشر وكذلك الموسيقى، فكل عازف بداخله رغبة أن يستخرج نغمة خالصة وحقيقية، وهذه رسالة الإنجيل.. أتدرك مشاعرك وما يحركها وما يثيرها يا جون؟ كل بذرة تحصد هلاكها بنفسها، لأن قدرها أن تذبل. كل داء يحتوي جرعة من السم. النفس هالكة والمشاعر عاصفة إذا لم تجد لها مخرجاً.

بدا له أنه يتمرد ضد اللاهوت.

- تدري الفرق بين الصالح والطالح بلا شك. الصالح أفكاره صالحة، والطالح ربما تكون أفكاره صالحة، ولكنه لا يدرك الصواب. نحن لا نستنفذ كامل طاقتنا، وهذه هي المشكلة. لذلك يتشتت تركيزنا ونجهد بسرعة. الطاقة الفياضة في عصرنا هذا تودي بنا للخطيئة؟

أهذا كل ما في وسعه قوله؟ أراء حول الخطيئة والعزف؟

قرع الباب وهرع راهب للداخل، أبلغ القسيس شيئاً في أذنه، فنهض عاجلاً:

- سأعود في الحال!

التمع الصليب لما مال برأسه. ترجع ذاكرته لهذه لغرفة منذ كان عمره سبع سنوات. كان يجلس مقابلاً لوالده على الكرسي أمام المكتب، وساقاه الصغيرتان الاتي لا تصلان للأرض تتأرجحان في الهواء. كان والده والقسيس يتحدثان في أشياء لا يفقهها.. لقد نضجت الغرفة الأن.

سمع أصواتاً بالخارج وتمنى أن يمهله القسيس لحظة آخرى بمفرده.

لاحظ أن عامل النظافة أنهى عمله، واستبدل ملابسه بجلباب، وبدا شخصاً مختلفاً.

– أين كنا؟

أغلق القسيس الباب وراءه، وتمعنه بحزم ليسترد دور القسيس.

– كنا نتحدث عن الخطيئة والصواب.

تمعنه القسيس، ثم قال فجأة:

– نعم، دعنا نصلي يا جون!

سأله مدهوشاً:

– الآن؟

ابتسم له:

– ألديك إرتباطات أخرى؟

رد بارتباك:

– لا. ولكن كنت آمل أن نكمل حوارنا.

– دعنا نستكمله بكلام الرب!

أمسك يده فنهض.

- يا رب..

..

تجنب النظر إليه بعد التلاوات. شبك القسيس ذراعه بمرفقه وهما متجهان إلى الحديقة، جذب مرفقه بخفة وهما على العتبة.

- أتدري أي آية كان يعشقها والدك تحديداً؟

وما علاقة ذلك بأي شيء؟

- لَمَّا كُنْتُ طفلاً كَطفلٍ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ، وَكَطفلٍ كُنْتُ أَفْطَنُ، وَكَطِفلٍ كُنْتُ أَفْتَكِرُ. وَلكِنْ لَمَّا صِرْتُ رَجُلاً أَبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ!

استمع إليه يتلوها في أكثر من موعظة من قبل، ظنها آيته هو المفضلة.

- كان والدك سيفتخر بك كثيراً.. أعذره يا جون.. فهو بشر وأخطأ مثلما نخطئ جميعاً.. اذهب مع الرب يا ولدي! ولا تفكر كثيراً.. اعزف الليلة أفضل ما لديك.. سأصلي لكما كل يوم جمعة، قبل بداية الموعظة..

8

- ما كلمتنيش ليه إمبارح يا جون؟

رن صوتها منهكاً عبر الهاتف. ستنفجر إذا لم يهاودها ويتقن كلماته.

تمتم أنه لم يكن على ما يرام وأراد الاختلاء بنفسه. تخيل الحيرة على وجهها.

- ما كنتش عاوز أنكد عليك!

صمتت مريم كأنها تستوعب ما يقوله، ثم انفعلت وصاحت بصوت مختلط بالدموع:

- أنت عارف أد إيه أنت قلقتنا عليك امبارح؟

- بأمانة كنت مفشوخ وبلّف في الشوارع زي المجنون.

انتاب صوتها النحيب. تغمره بانفعالات لا يتوقعها، بمقدرتها أن تضحك وتمازحه وتبكي في الوقت نفسه.

- أنت مجنون.. ها؟ أصلك لو مجنون.. لازم تقول لي علشان ابتدي أحوش لعلاجك من دلوقتي.

- حبيبتي أنا..

بكت بحرقة الأن.

- حبيبتك إيه بس؟ ما تخرجنيش من حياتك يا جون علشان أنت قررت أنك لازم تكون لوحدك. وأنا؟

قالتها بحرارة.

- أنا فين من كل ده؟ فاكرني شوال جوافة قاعد معاها؟.. أنت مسافر كمان يومين وسايبني.. هتغير حياتك وتقابل ناس جديدة وأنا متلئحة هنا.. وتبقى مصيبة لما تكتئب هناك وما تقوليش.. وأكون مش عارفة حاجة خالص.. مادام قاعدة جنبك هنا ومش هاين عليك تقولي.. ما تجريش يا جون!

- أنا آسف!

- أنا لو كنت حسيت أد إيه أنت متضايق إمبارح، أنا كنت عملتلك أراجوزة!

- you are my funny valentine!

- اتنيل على عينك يا شيخ!

راح يطيب خاطرها بكلام تتشوق سماعه، وقص عليها أحداث البارحة بدءاً بلقاء منير وسماع قصة عبده خان.

- متخيلة أنه كان من أعظم طبالين مصر وعمري ما سمعت عنه؟ وفي الأخر مات ومحلتوش اللضا.

- خلاص متعيطّش.. نصيبه كده. هنعمل إيه؟.. إنت يابني غاوي نكد وخلاص؟

شعر بالارتياح بعد ما أفرغ محتوياته لها، وانتابه الإحساس أنه صار مستعداً لما هو قادم، وإنه يستعيد زمام حياته. مضى إلى الشرفة وراح يراقب الشارع ويطبل بأنامله فوق السور.

الليلة سيغرق حواسه وسيردم شيطانه ويوسعه ضرباً حتى يغادر هذا الجسد. الليلة سيعزف مع الفرقة لأخر مرة..

9

هوت ورقة شجر ذابلة تتقلب في السماء بأناقة خافتة.

تلقفها الهواء وأدارها مراراً كامرأة تهوى في ذراعي رجل.

جلسوا على درجات المسرح الخالي في انتظار الوقت. وغلفهم الخريف بما يحمله في أعباقه من بدايات لنهايات لا يعي المرء لها إلا لما تكون تكونت بالفعل.

تابع ببصره ولدين يركضان فوق سور الحديقة التي تفصلهما عن حي "الدرب الأحمر"..

سيستبدلوه بفتى يدعى مارو يعزف في فرقة توفيق الجديدة، لكن خالد وعده أنه سيلقى مكانه لدى رجوعه، وأنهم سيعزفون باثنين "بركيشينيست" إذا تطلب الأمر..

تخيل دوماً أنهم سيشيخون مع بعضهم مثل "بينك فلويد" و"ميتاليكا". كان يكفي محادثة أي منهم في موضوع ما، فيأتي اليوم التالي وقد ابتكر مقطوعة تدور حثيثاً عما كانوا يتباحثون فيه، ثمة تجانس نادر بينهم ولا يتوفر لفرق أخرى، رغم المناوشات التي يمرون بها أحياناً. لن يتمكن من الحصول عما لقاه معهم من أي فرقة آخرى.

- هتوحشنا يا خروف!

- فشخ!

- بزمتك هتلائي فين القاعدة الحلوة دي؟

نظر فاروق إلى الساعة وتساءل:

- هو عاطف اتأخر ليه؟

- يا عم افتكر لنا قرص حشيش! عاطف إيه وهباب إيه؟

زجر توفيق شادي، فتمتم:

- آه صحيح هو عاطف اتأخر ليه؟

- أنتم عارفين فاتوا كم سنة؟

- خمسة.

- ونص.

لاذوا بالصمت لحظة، ثم واصل توفيق:

- فاكرين لما كنا بنعزف في "الفيرمونت" والرجل الأجنبي طلع على المسرح وحط إيده أدام خالد علشان كان فاكرنا مبنعزفش ومشغلين كاسيت؟

– كان منظره عبيط أوي لما خالد وقف غنا.

– طب فاكرين لما رحنا القلعة و"الميكسر" اتحرق والناس روحت، واحنا كان منظرنا وحش!

– ولاّ الولية الأجنبية اللي تحرشت بخالد في "الجاز". كانت حتة "ميلف" يا ولاد.

– هي عملت فيك إيه ياد يا خالد؟

– قلة أدب!

– خليته يجرب العدة.

– يا قليل الحياء!

وصل عاطف أخيراً حاملاً شنطة بلاستيك في يده.

– ما بدري يا ابن الدايخة!

– الدنيا كانت زحمة بشكل!

صاح شادي متألماً:

– ياي. الدنيا زحمة. أوف!

ناوله عاطف الشنطة بابتسامة عريضة:

– اشتركنا كلنا في هدية "الوداع". اتفضل يا بوب!

رنت كلمة "الوداع" ثقيلة على مسمعه. وأسرع توفيق قائلاً:

– يا عم كلها كم يوم ويرجع لنا زي القرد!

تحسس محتوى الشنطة ثم فرغها. كانت طبلة قديمة، رقبتها مخرزة بطراز ذهبي، كما لم يعد يصمم الأن.

سألهم ضاحكاً:

– إيه دي؟

انتزعها شادي منه وراح يسوطها بأنامله بسرعة فائقة.

كان صوتها داكناً ويحمل في جوفه عبق سنوات قديمة.

رجعها إليه معلقاً:

– زي الفل!

– جايبين لي طبلة مستعملة؟

– دي كانت ملك طبال مشهور.

– يا سلام!

مسح فوق بطنها بأنامله.

– اسمه إيه؟

– يا عم واحنا اشعرفنا.

– أنا قلتلكم نديله فلوس أحسن.. دي كانت فكرة مريم "بايزة واي".

كان مغروس في قاعها حرفي: م. ع.

– عرفتم منين أن صاحبها مشهور؟

– البياع قلنا!

– م.ع. أنا ما سمعتش قبل كده عن اسم طبال بيبتدي اسمه ب م.ع.

قال شادي:

– مش جايز م.ع. اختصار "محمد علي". احنا شارينها أصلها من هناك.

نهضوا ليتمموا استعداداتهم. وقبع هو يتأمل الطبلة، ويمررها بين يديه، وقد غادر على متن آلة زمن تدعى ذاكرة، وصل بها إلى ميلاده الخامس أو ربما السادس.. تظهره صورة "بولارويد" قديمة يحتفظ بها في درج بزي "بحار" أزرق جالس فوق مائدة سفرة فارداً ساقيه الصغيرتين وبجانبه "تورتة" وأولاد عمه الصغار، وهو يمسك ويتفحص طبلة صغيرة أهداها له والده..

10

- جنوووووووووو!

تقصع وجهه ومال بجسده فوق الطبلة المحشورة بين فخذيه.. تجمعت علامات التركيز على وجهه وغشت ابتسامته المعهودة.. أيقن أن مئات الأعين منصبة عليه.

هوى بضربات متتالية ومصرة، طلقات مدوية على جوف الطبلة، كل ضربة تختلف عن التي سبقتها في التوقيت والشكل.. أوما له توفيق برأسه بحماس.. حان دوره ليسلمه الشعلة.. تمهل وأبطأ الإيقاع حتى أوشك أن ينعدم، ثم أشعله بغتة والجماهير تصفق.

تكمن الخدعة في إقناع الجمهور بأن كل ما يسمعونه متفق عليه.. رمقه خالد في قلق.

جلجل دوى طلقات مكتومة.. هوى بأقصى سرعة كأنه يجذب فرامل بشدة... توالت ضربات أخرى متداخلة.. ليست منسجمة.. أحس أنه على وشك أن يفقد الإيقاع.. لن يتمكن من الحفاظ على هذه السرعة.. عليه أن ينسحب الأن قبل أن يشذ في أي لحظة.. إنه يرتطم بالأرض.. تدخل توفيق بنغمة لييسر النقلة ولينقذه..

إنه من نوع العازفين الذي يفضل أن يضل طريقه، فيضطر إلى العودة بنفسه.. لكن ليس الليلة!

الأن.. لا.. لن يخرج هكذا..

11

وضع ذراعه حولها وتأملا المدينة القديمة.

دست أنفها في رقبته وقبلتها.

كانا بعيدين عن المسرح، وسمحا لأنفسهما بأن يكونا على طبيعتهما.

– لو الأمن شافنا هيطردنا.

عضت رقبته، فصاح متوجعاً وتحسس مطرح أسنانها.

– أنت عبيطة؟

– أنت اللي عبيط وستين عبيط كمان!

– وغبي وحمار واستاهل ضرب الجزمة علشان سيبتك إمبارح. خلاص يا ستي؟

- "دونكي ستوبود ميزريبل". مش كفاية حطالك "البوكسرات" بنفسي في الشنطة.

- طب، مش عاوزة بوكسر هدية؟

جرى بأنامله فوق ظهرها.

- نضيف ولا مستعمل؟

ضحك وسألها بحنية:

- مش هوحشك؟

- المركب اللي تودي!

جذب رأسها بين مرفقه، لكنها نجحت في التخلص منه.

ارتفع فجأة دون تنبيه أذان العشاء، تلاه أذان ثان وثالث من جوامع متفرقة، متجمعين في كورال متفاوت، مرددين الكلمات نفسها بفارق التوقيت.. ابتهالات حاملة آمال البشر إلى السماء. وبعد ما دوى أخر صوت تمتم:

- غريبة أوي البلد دي.. ساعات بحس أني مش طايقها.. وعاوز أهج وأمشي.. وبعدين أفكر وأقول طب هعيش فين.. هتوحشني رغم كل الأرف اللي فيها.. بس أنا بحبها.. ومستني أي إشارة منها.. إشارة واحدة.. تقولي خليك..

رمقته بعينين عاشقتين، وهمست:

- تعالى! عاوزة أوريك حاجة!

12

انتحت السيارة يمين مسجد الرفاعي.

رمقها متسائلاً، ولكنها رفضت الإفشاء عن مقصدهما. صبّرته بأنهما على وشك الوصول وأنها مفاجأة.

تدحرجت السيارة فوق بلاعات غير سوية وأسفلت مهدم. راحت مريم تفتش عن العمارات بتركيز، باحثة عن علامة ما. أشارت لسائقها أن يتوقف أمام مدخل شارع صغير.

– احنا فين؟

جذبته من يده وخرجا من السيارة. ساوره هاجس أن يتحرش بهما أحداً في هذه المنطقة الشعبية. كانا يقتحمان عالماً ليس عالمهما. اقتادته كأنها أتت هنا من قبل، وعيناه تتجول بحذر بين البائعين والمارين.

قرأ يافتة شارع متآكلة: شارع محمد علي!

– مريم!

توقفت أمام عتبة بيت مظلم، وحثته بعينيها للدخول.

– أنا مش هتزحزح من هنا قبل متقوليلي إحنا رايحين فين.

دست يده برفق وترجته أن يثق فيها.

صعدا درج ضيق لا يسع سوى لشخص واحد. قرعت باب قديم بالدور الثاني تتوسطه نافذة مستطيلة، ومرت ثوان قبل أن تولع الأنوار ويترامى لهما خشخشة خطوات زاحفة. أفسح الباب عن رجل نحيف يرتدي جاكيت وسروال بيجامة. ظهر على وجهه الارتباك.

– عم سيد، صح؟ أهلاً! احنا أصحاب إيزابيلا.. البنت الإيطالية.. اتكلمنا في التليفون..

رمقها في تردد، فقالت مطمئنة إياه:

– مش هناخد من وقتك أكتر من خمس دقائق.

توجه إلى غرفة جانبية قبل أن يرجع مرتدياً سروالاً وقميصاً مهرتلاً. جلسوا على كنبة وتمتم الرجل بكلمات ترحيب لا يعنيها.

– خطيبي بيعزف الطبلة وسمع عن والدك.. كان متشوق يعرف عنه أكتر. حضرتك ابن عبده خان، صح؟

– أبويا كان اسمه محمد عنتر. عبده خان ده اسم الشهرة بس.

– ممكن تحكيلنا اللي حصل بعد لما رجع مصر!

فرك الرجل يديه في عصبية، وتمتم بشيء عن ضرورة التمسك بالخلق والدين. ثم ثبت عينيه على يديه، وظنه لن يتحدث، إلا أنه تخلى تدريجياً عن تحفظه، وحكى لهما عن زمن شارع "محمد علي"، كمن وجد مستمعاً، و لم يوقف سرده إلا ليحضر لهما كوباً من الشاي.

..

واصل قصته حيث انتهت إيزابيل..

لما خطا عبده خان أرض الوطن، بعد ما نال ما نال من وحشة الغربة ومجد لم يدم، لقى المهانة والذل على يد رفاقه القدامى. فقد تسابقوا في ترويج الإشاعات عنه ناقلين قصصاً مزرية، بدءاً بكيف سعى وراء النساء الساقطات، واختلط بالمجرمين وعاش وسطهم كواحد منهم، بل تناقلوا أنه فقد الإحساس بيديه بعد ما تم الاعتداء عليه وإصابته إصابة بالغة، شوهوا صورته قدر ما استطاعوا، وهناك من زعم أنه فقد إيقاعه وأن أسطورته تبددت في باريس. ألسنة نمامة وبذيئة تناوبت كيف انتقم منه المجرمون شر انتقام، فأصابوه في رجولته.. وكل هذه إشاعات والعلم عند الله.. وكان أثر الأكاذيب عليه فادحاً، تغاضت الفرق الكبيرة عن تأجيره، والراقصات فتخلين عنه واحدة تلو الأخرى، وقد كن دائماً يغرن من شهرته لسرقة الأضواء منهن. فوجد نفسه عند نقطة البداية، وكان في حاجة ماسة للمال وسداد ديونه المتراكمة، فرجع للعزف في الكباريهات والأفراح الصغيرة، ثم تدهورت صحته ومكث بالبيت فترة طويلة.

معظم العازفين لا يصلون إلى القمة إلا مرة في حياتهم قبل أن يواجهوا

الانحدار. وحتى لو لم يسترجع عبده خان مجده السابق، فقد عاود العزف وبدأت الناس تتوافد عليه من جديد، وإن لم تكن بتلك الأعداد الوفيرة بسبب الحرب الشرسة التي شنت ضده. لكن عبده خان ظل عبده خان. وكابد طبالون كثيرون سياناً ليصلوا إلى مكانته، فلم يأت مثله مثيل، مع أن الساحة احتشدت أثناء غيابه بطبالين مغمورين، إلا أن نجمهم انطفأ قبل أن يتوهج أصلاً.

تأقلم عبده خان مع إغواءات حياته ولما افتقر قلل من احتياجاته، ورغم عدم تردده على عشيقاته منذ زمن إلا أن بعضهن عطفن عليه وسددن مصاريف علاجه لما مرض.

ثم تدين في الفترة الأخيرة من حياته، و لم يظهر أي رغبة في استرجاع الماضي، بل بدا غير مبال بالمنافسة وبتشويه سمعته من قبل "اللي يسوى واللي ما يسواش"، واعتبر السقوط والمجد من سنة الحياة. يمكن القول أنه تصّوف، فكان يغلق على نفسه غرفته ويقضي داخلها ساعات مستغرقاً في الذكر، ثم كف كلياً عن العزف، وبات من النادر أن يمس الطبلة. إلا في حالات نادرة داهمته على غفلة، فكان يتجه ناحية القلعة وكأنه يتبع نداء، وهناك حيث تتوارى المدينة والناس وصخبهما باستثناء دق الحرفيين حوله، هناك فقط كان يسترجع إيقاعه، فيميزه أهل الحارة من بعيد، ويدركون أن الأشباح السايرة لم تدفن بعد.

وإذا كانت أسطورته ونجوميته قد انزوت، إلا أن شارع "محمد علي" لا ينسى أبناءه. فباستطاعتهما سؤال أي من يصادفونه في الشارع عن والده، وسيحكي لهما من هو عبده خان.

ثم توقف الابن بغتة كما توقفت إيزابيل، وحدق فيهما دون رد فعل، كعازف يجهل كيف ينهي مقطوعة.

حل عليهم الصمت خلسة قبل أن يسأله إذا كانت بحوذته اسطوانات حية لوالده. ترددت عينا الابن كأنهم يتكلمون في محظورات ولكنه نهض واختفى في غرفة مجاورة. حدق في مريم التي ابتسمت له ابتسامة مغصوبة لتغيظه. كان مأخوذاً باقتحامه عالم الرجل هكذا، دون غرض واضح.

رجع خاو اليدين.

– عم عبود الحلاق.. كان صاحب والدي أوي.. جايز يكون محتفظ باسطوانة.. الواضح أنه ما كانش عاوز يشيل الحاجات دي في البيت.

قال "الحاجات دي" بنوع من الازدراء. سألته مريم وهما على العتبة لما لم يقتف أثر والده وعزف الطبلة. فهز رأسه مستنكراً.

– أستغفر الله.. أنا شغال في النجارة.. والدي الله يسامحه بئا..

ثم ردد وكأنما يبرئه:

– كان زمنه غير زمننا..

قبل أن يختفي من حياته سأله:

– علاقتكم كانت كويسة؟

حدق فيه الابن باستغراب، ثم تمتم:

– مقدرش أقول إني كنت أعرفه أوي.. مكناش بنقضي وقت مع بعض.. هو مكانش فايقلي لما كنت صغير، ولما ابتدا يفوق كنت كبرت..

كنت باسمع من الناس عنه.. الله يرحمه..

..

تبعا الوصفة لدكان عم عبود..

وجداه بجانب محل "موبيليا" يصطف أثاثه فوق الرصيف. وقفا على العتبة وجالا بأعينهما في الداخل.. لم يحتو المكان سوى كرسي واحد جلس فيه شاب بروب أبيض بدا أنه الحلاق، يشاهد التلفاز في ضجر.

قرع الزجاج فتنبه لهما الحلاق مدهوشاً.

- عم عبود؟ ده ما بثاش بينزل من البيت.. أنتم عاوزينه في حاجة؟

ردت مريم:

- إحنا بنعد بحث عن شارع "محمد علي"، وكنا محتاجين نتكلم معاه شويه.

أومأ الرجل برأسه كأن يجيئ إليه هذا الطلب كل يوم، ثم قال في حماس كمن عثر عن شيء يلهيه.

- هوريكم البيت! أصل مش هعرف أوصفهلكم.. أنا اسمي منعم!

انجرفوا إلى شارع جانبي يفضي إلى مسجد الرفاعي. جلس فوق الرصيف ثلاثة أطفال يحفرون الأرض بكروت موبايل شحن مستعملة، حملق أحدهم في مريم وهم يمرون بجوارهم، وسألها:

- أنت اسمك إيه؟

ابتسمت وسألته بدورها:

– مريم وأنت؟

– صبحي.

توقفت وانحنت لتلمس شعره المبطط.

فشدها من يدها ورمقته بعدم تفهم. كان منعم قد سبقهم واختفى بداخل عمارة صغيرة مثل سالفتها.

عاتبته بعينيها، لكنه كان متوتراً من المكان ومن كل شيء حوله.

ترك السكان أبواب الشقق مفتوحة، ورمقا وهما صاعدان قدم حافية لرجل ممدد في مجلسه.

اختار منعم باباً مغلقاً ليطرقه بقوة. شرح لهما:

– عم عبود أصله سمعه تقيل حبتين.

انتظروا حتى فرغ من القرع وتحرك الباب كاشفاً عن رجل نحيف شعره ناصع البياض في منتصف السبعينيات أو ربما أكثر.

صاح منعم:

– عم عبود ازيك؟ أنا معايا ضيوف عاوزين يسألوك عن عم عنتر صاحبك. أصلهم بيدرسوا موسيقى شرقي.

استغربا من همة منعم في اختلاق القصص لمساعدتهما، كان بلا شك يعلق أهمية كبيرة بمجيئهما. اقتادهما منعم للداخل وكأنه بيته.

– اتفضلوا.. اتفضلوا.. عم عبود كان صاحب المرحوم الروح بالروح.. مش كده يا عم عبود؟

لم يعط عم عبود أي إشارة على موافقته لدخولهم وتسمر جانب الباب.

– أقعدوا يا جماعة!

قال منعم بهمة. جلسا في إحراج بينما وقف عم عبود بعدم ارتياح.

– إحك يا عم عبود! عيشنا كده معاك الزمن الحلو!

رد عم عبود بتأفف:

– أحكي إيه يعني؟

– أي حاجة.. يا عم عبود ما تخافش! الناس دي معايا.. دول هيكتبوا مقالة في مجلة.. قول لهم أنت بس!

حملق عم عبود بامتعاض أمامه حتى ظننا أنه من الأفضل أن ينسحبا. ثم جلس أخيراً وتمتم:

– عبده ما كانش بيحب الكلام الكتير! هو اسمه محمد بس كلنا كنا بنقوله يا عبده..

كان يقضيان معظم وقتهما أمام التلفاز. المرحوم ألف الهدوء في أيامه الأخيرة، بعيداً عن إزعاج المقاهي والشوارع. كان التوتر يصيبه أحياناً، فيعلم أن ماضيه حل به، رغم مقاومة عبده له، وكانت تصطحب هذه الحالات تعكير مزاجه ونوبات من الكآبة. ولما لم يطق الاحتمال كان يطبق شنطته ويتجه نحو القلعة، ليبحث عن بقعة خالية يستكن فيها ويطلق سراح نفسه المأسورة..

فكانوا يسمعون طبلته..

يقال إنه فقد سرعته واتسم بدلها بالحكمة وصار يوظف ويدخر طاقته بإتقان.

– أنا مبفهمش في الحاجات دي بصراحة. أخري بسمع إذاعة القرآن الكريم وأم كلثوم.

ذات ليلة عثر عليه منكفئاً فوق طبلته بلا حركة. كان قد فارق الحياة. ولما حملوه كانت يديه مطوقة في شكل قبضة، لم يتمكن أحد من فتحها، كأنه طوق الصوت للأبد..

دعا عم عبود مترحماً على صديقه، ثم استغرق خلسة ورأسه منحن كأنه يتغلب على الصورة في ذهنه.

جاء بعض الرفاق ليقدموا الوداع الأخير، عازفون وراقصات، ساروا معه أخر مشوار، كان عددهم ضئيلاً، معظمهم لم يلتقوا به منذ سنوات.

– عبده كان طيب.. طيب أوي. عيبه بس أنه كان بيسرح كتير.. ولما كان بيبعد.. ما كانش في مخلوق يقدر يرجعه تاني.. هو إنتم كنتم بتسألوا ليه؟

– بنعد بحث لمجلة.

– إيه؟

– مجلة!

– أه. طيب جبولنا نسخة بئا!

مال إلى الأمام وسأله:

- أخر طلب يا عم عبود.. أنت ما عندكش اسطوانة للمرحوم وهو بيعزف؟

حدق عم عبود أمامه جاهداً ليتذكر، ثم وجه منعم ليبحث في شنطة سوداء تحت سريره.

- بيقولوا أن عبده خان راح لساعاتي عمله ساعة خاصة.. الكلام ده صحيح؟

رمقه عم عبود باستغراب وتمتم:

- عبده كان أصلاً ساعاتي..

ثم استغفر الله..

وعاد منعم بغلاف مغبر منظره مزري. ظن الاسطوانة محطمة ومس الغلاف الذي يحتوي الصوت من العالم الأخر برهبة.

وهما راجعان إلى السيارة كانت الناس مرتكزة حول التلفاز في مقهى يتابعون فيما يبدو رجلاً يسير في شارع خال، يرتدي زياً رياضياً، وينادي بصوت محشرج كمسحراتي يوقظ النائمين:

- بن علي هرب! بن علي هرب!

ثم أتت مذيعة القناة وضحكت بعصبية.

- توافدت علينا معلومات شبه مؤكدة أن طائرة الرئيس التونسي ابن علي تحلق فوق فرنسا.

ساد صمت في المقهى يكف لسماع إبرة تقع. ثم أظهر البرنامج صوراً لمظاهرات عدة وشاباً تونسياً يصرخ في الكاميرا.

- on est libre .on est libre!

ضرب رجل من الجالسين كفه، وتشجع آخر يرتدي جلباباً أبيض وغمغم:

- سبحان الله!

تحشرجت أنفاسه وخشى أن يلتقط نفساً خاطئاً يفسد الإيقاع.

تدحرجت السيارة فوق شارع بور سعيد في طريقهما إلى وسط البلد. أمسكت مريم يده وأسندت رأسها إلى كتفه. قال كأنما يطمئن نفسه:

- Everything will be alright!

أخذ يدها وطبع عليها قبلة، ثم تخيل عبده خان جالساً في فناء القلعة المهدم، مطلقاً طاقة تغمر الناس، اعتادوها لدرجة أنهم لم يتوقعوا زحف الليل دونها.

13

وضع الأسطوانة بإحكام في جهاز الأسطوانات العتيق الذي ورثه عن جده.

التمع ظهرها المشروخ وراحت تدور أسفل الإبرة الحديدية وتصدر أصواتاً متحشرجة وكأنها تستيقظ بعد عمر من النسيان.

ميز نغمات كامنجا وعود وقانون وطبلة خافتة في الخلفية.. ثم علت الكمانجا واندست الآلات الآخرى.. كانت موسيقى شرقية قديمة ترنو برقة وتعبر عن مستوى عازفيها الرفيع.. وبعد قليل تراجعت الآلات الآخرى لتفسح المجال للعود بصوته المكتوم الكلاسيكي الذي يعبر عن الوقار الشرقي، وآخيراً جاءت الطبلة.. ولت الضربات بسرعة مذهلة وفياضة.. كان الصوت نقياً رغم رداءة التسجيل، بمقدرته أن يميزه وسط

ألف صوت.. بدا بسيطاً في تكوينه.. وهو يعلم أنه ليس كذلك. سمع إيقاعات لم يظنها ممكنة.. كانت الطبلة ترضخ وتستجيب لعازفها بكل الأصوات..

لم يدم التسجيل كثيراً.. تلت حشرجة وتوقف.

أعاد التسجيل مرة ثانية وثالثة ورابعة، وهو يدرس الإيقاع ساعياً لحفظ ذلك الصوت بداخله. ولما بدأ التكرار يفقده لذته، أخرج الأسطوانة بحذر وبحث لها عن غلاف يليق بها.. عليه أن ينقلها في أسرع وقت إلى "سي دي" قبل أن يفقدها للأبد.

جلس محملقاً في الجهاز أمامه لا يدري ماذا يفعل بنفسه. ولما لم يحتمل السكون فتح الشرفة، والتف الهواء البارد حوله، كأنه كان منتظراً بالخارج بفارغ الصبر.

انتعشت روحه وغمرته طاقة الهواء المحبوسة والطاقة التي فرغها فيه عبده خان.. أخذ الطبلة التي أهداها له أصدقاؤه وتحسس الحرفين المنقوشين بجانبها: م.ع.

..

صعد فوق سطح العمارة الذي اكتظ بالأسلاك وأطباق القمر الصناعية..

تراءت له البيوت الرتيبة القابعة في الخلفية.. وتقاعد القمر محايداً فوق جبل من العتمة.. بينما زحف غشاء الليل كركوب ملكي على الأرض يمسح بأطرافه أثار الوقت..

حاول عبده خان إعادة صناع الوقت. لتدوي طبلته كأنها متأخرة عن العالم.

مس فوق الطبلة بأنامله فامتزجت بصماته ببصمات مالكها.. وامتزج إيقاعه بإيقاعها.. تسارعت أنامله فوقها حتى لم يعد يشعر بها.. أوسعها ضرباً بكل ما يملك، وكانت أنامله تعرف طريقها..

ظل يضرب ويضرب.. الطبال "سادي" و"مازوخيست" في الوقت نفسه..

وبعد ما توقف لاهثاً، خيل له أن صدى الطبل مازال يدوي..

تلك الليلة آوت الناس إلى فراشها على أثر إيقاع غامض سيطر على سكينتهم المعهودة، وملأهم بطاقة مضطربة، فلم يتبينوا إن كانوا قد تخيلوا الصوت.. قبل أن يخمد ويعتلي الصخب أذنهم من جديد.. ولكن ليس دون أن تخلف لأذنهم إيقاعاً يهتدون به في هذا النشاذ اللامنتهي..

الشاعر.. والكلمات المفقودة

الليلة الآية مقلوبة..
حرية.. حرية..

ألتراس أهلاوي

أكنت تتحدث عن ثورة..
يستحسن بك أن تعدو بعيداً..
لأن أخيراً الموائد قد انقلبت..

تريسي شابمان

1

- الفرقة مش بس العازفين.. الأغنية الجاية.. كلمات الشاعر عاطف كمال.. وعاطف معانا من البداية..

..

علت الصفافير.. تكدست الجماهير.. واشتد هياجها.. أطلق صاروخ أشّعل في السماء الغائم.. وصل ذروته وتعداها.. ثم تساقط لاهثاً.

تلاه صاروخ ثان وثالث. هللت الجماهير وأطلقت زفيراً مثل حيوان هائج.

ذكره المشهد بحفل صاخب تتجمع فيه الأصوات في "كورال" منسجم لتطالب به الفرقة بما تشتهي سماعه.. إلا أن هذا "الكورال" كان موجهاً لمئات عساكر وضباط الأمن المركزي في زيهم الأسود المنتشرين في شارع

"قصر العيني" في مواجهتهم.. كان بإمكانه تشمم الدخان الكابس..

انطلق صاروخ أخر يخترق مادة السماء لينهال عليهم.

ضغط ضابط عصا معدنية لأسفل، فارتدت قنبلة متقوسة في الهواء، كست ذيول دخانها لون السماء البرتقالي كأنه يحترق..

ثم وكأنه تم الاتفاق على هدنة موقتة، أذّن رجل ملتح فوق أرض المعركة.. فهدأت النفوس وتوحدت الصفوف.. وقف رجل لا يتمتع بأي نفوذ في حياته، نكرة لمن نكرته الحياة، ليؤم مئات الأجساد في حركة واحدة وسط شارع تعبره آلاف السيارات في اليوم العادي.. تردد على مسمعه أن هذه صلاة حرب.. فهم لم يسجدوا إلى الأرض، بل ظلوا واقفين..

وبعد أن فرغوا.. تفجرت النداءات ورجع المتظاهرون يهللون في حماس كأنهم ازدادوا إيماناً وعزيمة..

كان مازال الجو مشحوناً.. مازال المتظاهرون يرفضون إخلاء الميدان..

أطلق صاروخ أخر لتفرقتهم عنوة، هبط وسط الصفوف الأولى، فهلعوا وانسحبوا بينما ارتفعت أيدي الصفوف الثانية مرددين: صمودا! صمودا!

لعبة قط وفار.. كر وفر.. فريق يتراجع أثر الدخان الخنيق، وما يلبث أن يتقدم فريق أخر، كأنها معركة سيوف في أراضي القرون الوسطى.

التف عشرات الشباب الغاضبون حول كاميرا مصور لقناة أجنبية ليسجل تلك اللحظات من وجودهم. هتفوا بحنق: حرية! حرية.. وجوه

عارية كساها الخوف والرهبة.

ترقب رد فعل المتظاهرين. إذا تراجعوا، سيتراجع. إنها مخاطرة محسوبة.

بادلهم الأمن المركزي بقذيفة أخرى، فرد شباب بقذف الأحجار، ثم اخترقت قنبلة الأبعاد وهوت على بعد أمتار منه. تسرب منها الغاز في عجل، وهرول هو ومن حوله بعيداً والاختناق يكاد يصيبهم.

انهالت الدموع ودق قلبه كجرس إنذار. تمكن بصعوبة من تسلق سور الحديد الأخضر ناحية "هارديز". كان المخرج الوحيد لتفادى الأجساد المندفعة.

ركض نحو طلعت حرب. ولما أحس أنه خارج نطاق الخطر، استلقى فوق الرصيف وظل يسعل ويبكي بحرقة.

اقترب منه فتى صغير وناوله بصلة.

- شم دي!

قربها من أنفه وتابع من حوله، كانوا يذرفون دموعاً مثله.

- عاطف!

جذبه صديق وسارا معاً نحو شارع البستان.

- جاز ابن هرمه! بس أنا صورتهم.. هحط الصور على اليوتيوب وافضحهم دلوقتي.. ما تيجي ناكل.. الغاز ده بيجوع أوي.

اصطحبه إلى عربة الكبدة قبال جراج البستان، ولما تشمم الرائحة

وعى أنه لم يتناول أي لقمة طوال اليوم. اجتنبا عشرة ساندويتشات راحا يلتهمانها بشغف.

ثم سأله صديقه وهو يمضغ بفم ممتلئ:

- تفتكر هيفضوا الميدان؟

2

بدأت الاحتجاجات عند نقابة المحامين في رمسيس، يوم 25 يناير.

كانت تعليمات الشرطة احتواء المتظاهرين وعدم التعرض لهم. اكتفت قوات الأمن بفرض الحواجز كي لا يعيق المتظاهرون المرور، وتعامل الضباط معهم بأقصى أدب وضبط النفس مخاطبين إياهم بـ"حضرتك" و"لوسمحت".

تعرف على وجوه مألوفة من المعارضة وسط المتظاهرين، ضمنهم الصحفي "محمد عبد القدوس" الذي كان يحمل مكبراً في يديه وينتظر فرصته في الهتاف. لكن سرقت منه فتاة محجبة الأضواء، راحت تهتف خارج "الكردون" الشعارات، والمتظاهرون يرددونها خلفها. رجاها ضابط أن تلتزم بالتعليمات وتسير داخل الكردون، ولكنها أبت في تحد

وصرخت والمتظاهرون يرددون خلفها:

- أههههههه!

خاطب "محمد عبد القدوس" عساكر الأمن المركزي وناشدهم بتغيير موقفهم والانضمام للشعب حيث ينتمون، لما يلاقونه من مهانة واستبداد النظام الفاسد أجمعين. اتبع طريقة اجتذاب وتفكيك خطوط العدو، وكان قد قرأ عنها في كتاب لـ"جين شارب" عن المقاومة السلمية.

راقب وجوه الجنود البسيطة وخيل إليه أنه لقى الاستجابة على وجوههم..

وبعد قليل ظهر عشرات المحتجين على الجانب الأخر، فهتف المتظاهرون: تعالوا!

بذل الأمن قصارى جهده لاحتوائهم، إلا أنهم ظلوا يضغطون بأجسادهم حتى نجح عدد منهم في الانفلات مهرولين ناحية رمسيس والأمن يتبعهم.

رن هاتفه. كان توفيق.

- عاطف.. أنا في المهندسين.. تعالى بسرعة.. فيه مسيرة كبيرة.

استقل تاكسي وراح يتفحص الشارع ليتفقد أثر المجموعة التي فلتت.

علق السائق غير مصدق:

- اتجننوا دول ولاّ إيه؟ يلا.. خليهم يهللوا شوية!

في المهندسين انطلقت مسيرة لمئة شخص تقريباً في شارع جامعة الدول العربية. تجمعوا بجانب الرصيف قاصدين البطل أحمد. لم يبدوا مثل متظاهري رمسيس. لم تصدر منهم الهتافات المعهودة. دلت وجوههم القلقة وحركاتهم المترددة بأنها أول مظاهرة يشاركون فيها.

لاح متفرجون فضوليون في الشرفات، نالوا هتافات المتظاهرين:

- انزل! انزل!

أوقفت سيدة محجبة سيارتها بغتة في منتصف جامعة الدول، وخرجت تهتف في غضب تخلله الخوف، رافعة ذراعيها لأعلى: تحيا مصر.. تحيا مصر..

ثم استقلت السيارة واستأنفت مسيرتها في الحال..

التقى بتوفيق قبال "هارديز" وراحا يرددان الهتافات مع المسيرة حتى وصلا إلى مطلع أكتوبر، ثم افترقا عنهم وارتادا مقهى هادئاً بالعجوزة.

تمتم توفيق راضياً وكأنه هو منظم المسيرة:

- إيه رأيك؟ المظاهرات ملعلعة في شبرا وكمان في السويس.

تابعا التلفاز. كان المذيعون يشيدون بالمظاهرات السلمية وبأداء الشرطة لعدم احتكاكها بالمتظاهرين، فازداد توفيق حماساً.

ثم ظهر محلل سياسي على قناة فضائية رافضاً المقارنة بين مصر وتونس معللاً أن الفرق بينهما شاسع، ففي تونس الشعب متعلم بنسبة 90 في المئة، ناهيك أن عدد الأمن في مصر يصل إلى مليون ونصف، مما يجعل اندلاع أي ثورة شبه مستحيلة.

بعد وهلة سأله توفيق إذا كان يريد أن يتفقد الأجواء في التحرير. اتفقا على الالتقاء لاحقاً أمام الجامعة الأمريكية، ثم انقطعت شبكة المحمول، و لم يتمكن من الوصول إليه تلك الليلة.

3

حذف الكلمة واستبدلها بأخرى.. ضاع المعنى في مكان ما..

حاول أن يستدعي صورة المرأة المحجبة التي أوقفت سيارتها في نصف الشارع.. وما الذي دفعها إلى النزول..

حملق في الورقة فارغة أمامه.. تخيل الوجوه المحتنقة.. ونفسه يسير وسطهم..

..

لا. لا شيءعلى الإطلاق..

مصر تكتب تاريخاً جديداً.. وهو لا يكتب شيئاً..

لم يخف في حياته مثلما خاف ذلك اليوم، وهو يحمل توفيق بعيداً عن

بطش الشرطة.. منذ ذلك ولا يستشعر بشيء سوى غضب مكتوم..

يتلقى إشارات مضطربة داخله. كل ما يتخيله استنساخ، ترجمة فورية، ضاع أصلها..

حاول أن يجد كلمة لوصف حاله.. وبعد ما قطف المعاني من جذور الكلمة، ذابت في حبر نشف فور بمجرد اعتناقها الورقة المطوية، فقطعها ورماها في الزبالة..

كله كلام مسترسل..

والده هو من أحبه في الشعر.. لحبه لـ"أمل دنقل"، قال له أنه احتضر لرهف إحساسه، لأنه تحمل ما يفوقه.. وحذره أنه مرض يلازم كل الشعراء..

تناول أوراق "الغرفة 8".. وقرأها للمرة الآلف.. دونها وهو يحتضر..

..

لا. لا شيء على الإطلاق..

4

تكثف انتشار الأمن في الشارع اليوم التالي.

نجحوا في إجلاء الميدان ليلاً بالقوة بعد ما استخداموا رشاشات المياه والقنابل المسيلة للدموع بغزارة. فرض لواءات ومخبرون متنكرون في ملابس مدنية سيطرتهم الكاملة مانعين أي تجمهر أو وقوف غير داع في الميدان. جلس في "كنتاكي" قرب النافذة ينتظر شيئاً أن يحدث.

تم الإعلان في الجرائد عن حالة وفاة بالسويس وأخرى بسيناء. توعد المتظاهرون بالانطلاق في مسيرات يوم الجمعة عقب الصلاة من جميع المساجد الكبرى، أطلقوا عليها "جمعة الغضب".

من الجانب الأخر ناشد مسئولون وبرلمانيون الشعب ألا ينحازوا لمن يحرضوا على الفتنة ويودون تخريب البلاد.

شاهد مخبرين يجران شابين وقد كبلا حركاتهما بذراعيهما، والشابان يرددان أنهما لم يفعلا شيئاً، بينما المخبران ينصحانهما بالالتزام بالهدوء. كان لواء شرطة يمسك جهازاً لاسلكياً ناحية السور ويتحدث في توتر ملحوظ. ارتمت زجاجة مياه بلاستيك على بعد أمتار منه، فارتقب المخبرون وتجمعوا محاولين التبين من المصدر، لما توالت واحدة أخرى.

أمر اللواء مخبراً بتفحص الشقق في البيت المقابل. بينما توقف المارة ليساعدوا اللواء في رصد قناصة المياه المعدنية. وجهت الأنامل لنافذة في طابق علوي، فطمأنهم اللواء بلغة الضابط الواثق في قدرات فريق عمله:

– أنا هجيب لكم ك. أمه دلوقتي!

اتضح نهاية أخر الأمر أنه طفل يمكث بمفرده في الشقة من قام بتلك الفعلة، ولما علم اللواء تبدد التوتر من على وجهه، لكن ما لبث أن تكهرب مرة أخرى عندما تجمهر مارون لدى محطة المترو بـ"طلعت حرب" في مخالفة واضحة للتعليمات، والشرطة لا تأبه تلك المرة لتفرقهم. تسمروا بجانبهم وكأن الكل منتظر فوجاً يخرج من المحطة. تخلى عن حصنه في "كنتاكي" وراح يتفقد المحطة مثلهم، سأل رجل:

– هو في إيه؟

– قفلوا المترو!

ثم ظهروا فجأة. عشرات مرددين الشعارات اندلعوا من المحطة، والأمن ينهال عليهم ضرباً. كسا المخبرون الساحة في غمضة عين موسعين نصفهم ضرباً، ومحتجزين النصف الأخر.

كانت الرقة في التعامل مع المتظاهرين قد انتهت.

هرول ليحتمي من بطش الأمن داخل "كنتاكي". وفعل أخرون مثله، فأغلق "المناجر" المطعم سريعاً وصاح:

- أرجوكم ابعدوا عن الشباك.. علشان سلامتكم!

تسلل من باب جانبي وشاهد ضابط أمن دولة يرتدي ملابس مدنية يستوقف فريقاً تليفزيونياً ويسحب منهم "الديسك".

لقد تعلموا الدرس إذاً. ظنوا أن مظاهرة الأمس ستستمر لبضع ساعات ثم يرجع بعدها المتظاهرون إلى بيوتهم ويشيد الجميع بأداء الشرطة، لكن الباب الذي واربوه بات من الصعب إغلاقه.

سار إلى "رمسيس" لعل المتظاهرين يتجمعون هناك. عند تقاطع "عبد الخالق ثروت" هرول تجاهه ناس منزعجة. وقّف أحدهم وسأله:

- هو في إيه؟

كانت المعركة ناشبة قبال مبنى "الأهرام" والشوارع أشبه بساحة حرب. كست حجارة محطمة الأسفلت، واعتلا الدخان من بعيد. وشت وجوه العساكر والضباط المواجهون للمتظاهرين بالخوف. تخلخلت صفوفهم والضباط يصرخون فيهم أمرين إياهم بعدم التراجع. لكن الأحجار ظلت تنهال عليهم وأعداد المتظاهرين في تزايد. لقد أمنوا التحرير ونسوا رمسيس.

بدا أن الأمن لن يتمكن من الصمود أكثر من ذلك.. بلغ "تويتر" أن هناك مظاهرة متجهة إلى "ماسبيرو".

لما وصل الموقع كان الأمن قد سد الكورنيش، وامتدت خلفه مئات السيارات بلا حركة.

اقترب عشرات المتظاهرين من الكوردون الأمني مرددين الهتاف الذي سيشتعل خلال أيام في المنطقة بأكملها: الشعب يريد إسقاط النظام!

دنوا من الحاجز الأمني وتوقفوا أمام العساكر رافعين قبضاتهم ومرددين شعارهم بقوة، قبل أن يتفرقوا ناحية "عبد المنعم رياض".

تعجب من أن الشعب له إرادة، وهؤلاء للتحدث نيابة عنه.

فيما ذلك اشتدت المعارك في السويس وبدأ الإعلام يقارنها ببوغازي التونسية.

راح الإعلام القومي بعد إشادته بالمظاهرات وسلميتها يوم 25 يناير، يحذر من الأيادي الخارجية التي تريد العبث والمساس بأمن الوطن. فيما أعلنت وزراة الداخلية أنها لن تتهاون مع أي تظاهر وأنها ستتخذ كافة الإجراءات ضد مخالفي القانون.

مر يوم الخميس هادئاً ولكن مشحوناً. وصل عدد القتلى إلى خمسة والمعتقلون للمئات.

وكان الكل متأهباً في انتظار الجمعة..

5

– لو منزلناش دلوقتي.. هننزل إمتى؟

كان "الجاز كلب" خال عن المعتاد بالنسبة ليوم خميس. جلسوا حول البار يتشاورون ويتجادلون في جدوى النزول. سادت حالة من التوجس والترقب في المدينة كلها، وأوت الناس مبكراً تلك الليلة إلى بيوتها. صممت لبنى على الحق في التظاهر، ووافقها توفيق وفاروق وجنو بينما سخر خالد وشادي من المظاهرات.

اتفقوا على أن يتقابلوا غداً أمام "الأوبرا" حيث عزم الفنانون الانطلاق من هناك إلى التحرير.

ثم بدأ العد التنازلي..

5

4

3

2

1

..

تجول مع توفيق بسيارته قبل موعد الصلاة. لم تشر الشوارع الهادئة بتفشي انتفاضة جامحة بعد عدة ساعات.

توقفا عند محطة "on the run" في "البطل أحمد" واجتنيا القهوة.. كان متوتراً ويرتاد المرحاض كل حين. ثم دارا بالسيارة حول "مصطفى محمود" الذي كان محاطاً تماماً بكردون أمني شمل الميدان بأكمله.

تمتم توفيق بقلق:

– المصلين مش هيعرفوا يتخطوهم!

بدا الأمر أروع في "رمسيس". حملت ثلاث ميكروباصات بلطجية بأشكالهم المألوفة والمريبة أمام نقابة الصحفيين.

– دول مبيهزروش المرة دي ناويين لهم بجد!

حاول الاتصال بلبنى كي يحذرها، ولكن الشبكة كانت معطلة. قررا الذهاب إلى "الأوبرا" لعلهم يلتقيان بها.

أغلقت جميع الشوارع المؤدية إلى التحرير، وتصدى الأمن للمتظاهرين قبل كوبري "الجلاء".

ركن توفيق السيارة أمام حديقة "الأندلس" قرب موقع الشرطة، فسأله بذعر:

- أنت اتجننت؟ هتقف جنبيهم؟

أشار توفيق إلى الشارع:

- أعمل إيه طيب؟ مهو مقفول!

ظلا جالسين في السيارة حتى اندفع فجأة العساكر أمامهم تجاه الكوبري. سمعا الهتافات تتلاحم كقوة صاخبة وخرجا من السيارة ليشاهدا المشهد عن قرب. تجمع المتظاهرون على الجانب الأخر من الكوبري، وكان مظهرهم مهولاً.

حاول الأمن ردعهم بقنابل مسيلة للدموع، والمتظاهرون يهللون ويعلنون عن غضبهم. لم يتمكن من حصر أعدادهم، ربما كانوا آلافاً.

همس له توفيق بلهفة وقد رجعت له روح المغامرة.

- تعال نصورهم من فوق المركب!

صعدا فوق مركب راسية تقع بين الطرفين. كان العاملون فوقها متضامنين مع المتظاهرين، ويشتكون من فرط استخدام الغاز. صوروا الشرطة بكاميرة هواتفهما. انتاب الضباط والعساكر السعال والبكاء بدورهم.. لم يكن الهواء في صالحهم وكان الدخان الذي يطلقونه على المتظاهرين يرتد تجاههم.. ثم ضلت قنبلة مسيلة للدموع مسيرها، مثل

كثيرين وقعوا في النيل، وارتطمت بشرفة على ناصية الشارع، أشعلت فيها النيران.

بدأ الأمن يتراجع تحت ضغط المتظاهرين الذين ظلوا يتقدمون ويعيدون قذف القنابل المولعة تجاههم.. انتبه لدربكة وسط صفوف العساكر المتخلخلة.. غادرا موقعهما فوق المركب ودنا منهما بحذر.. رقد فوق الأسفلت عسكري والدماء تكسو وجهه المنتفخ.. حاول مدنيون إسعافه ووقف بجانبه لواء مستاء يطلب الإسعاف في اللاسلكي.. كانت عيناه بازغة للخارج وينفث أخر أنفاسه.

ثم تحول الموقف.. وولى الاختراق.. اجتاز آلاف الشباب الجسر تحت استسلام وانسحاب الشرطة كاملاً.. لم يبدوا بهذه الغزارة.. تبقى القليل من الضباط والعساكر المفزوعين الذين احتموا بسور نادي "القاهرة" والمتظاهرون يلوحون في وجوههم بغضب، وعيونهم تغمرها الدموع، بينما قام متظاهرون آخرون بفرض كوردون بشري يفصل بين العساكر والمتظاهرين وهم يصيحون:

– أيد واحدة! أيد واحدة!

ثم رفع أحد ذراع شرطي لأعلى وقبله مثلما فعلوا في تونس.

كان هدف المتظاهرين ميدان التحرير..

اجتازا "الدقي" ناحية فندق "سفير"، ثم صعدا كوبري "أكتوبر" متجهين إلى "الزمالك". تجمع بعض المتظاهرين أمام نادي "الجزيرة"، كان منظرهم أنيقاً ويرتدون بدلاً وملابس فاخرة، بينما انصرفت مظاهرة

أخرى في شارع "26 يوليو" متجهة إلى كوبري "مايو"، أيضاً في طريقها إلى التحرير.

قال توفيق مازحاً:

– تفتكر هيطلع زي "زين العابدين" ويقول أنا فهمتكم؟

تجولوا بسيارتهم كأنها مغامرة وسط مدينة مشتعلة وتفكر فيما حدث للبنى..

سارا فوق "أكتوبر" عكسي مثل باق السيارات وانعطفا إلى "رمسيس". وجدا الطريق مغلقاً. وظهر متظاهرون أول الشارع يحملون الحجار والعصيان، بينما اقتربت قوات الأمن من الجانب الأخر. أطلقوا القنابل المسيلة للدموع.

– أنا زهئت من دين أم الدخان ده!

هربا إلى شامبليون. وتراجع المتظاهرون ليلموا شملهم قبل أن يخترقوا الشارع الموازي ويتصدى لهم الأمن من جديد. كانت معركة بين الحجارة والدخان..

ظلا يتنقلان وسط الشوارع الضيقة.. ولكنهما لقيا أنفسهما مجدداً وسط اشتباكات. عبّأ الهواء بالغاز القارص، فخرجا من السيارة واحتميا برأسيهما بين فخديهما فوق الرصيف.

رمق توفيق رجلاً واقفاً في فانلة حملات في شرفة، فناد عليه:

– والنبي يا ست، إرملنا بصلاية!

– ست إيه يا توفيق. ده رجل.

– هو أنا شايف حاجة!

غاب الرجل طويلاً ثم ارتطم شيء أمامهما بالأرض. كانت بصلة كبيرة للغاية. تشمماها بالدور، ولما تسربت شحنة جديدة من الغاز، احتميا داخل السيارة.

فجأة قرع شخص النافذة بقوة. امتلكهما الفزع وتفحصا فتاة محجبة تلوح بذراعيها. فتح لها توفيق الباب، وبمجرد أن استقلت المقعد الخلفي راحت تسعل وتبكي، فناولها البصلة.

لما هدأت لعنت في الداخلية ودعت عليهم، واصفة لهما الانتهاكات الفادحة التي مورست ضد الصحفيين منذ الصباح. اتضح أنها صحفية في صحيفة مستقلة أرسلت لتتبع الأحداث في "رمسيس". ولكن تفاقم الأمر ووجدت نفسها حبيسة، والأمن لا يفرق بين متظاهر وغيره.

سأل توفيق:

– وبعدين، هنعمل إيه دلوقتي؟

قاموا بمحاولة للخروج. اقتربوا من مخبرين تمركزوا أول الشارع، أشاروا إليهم أن الطريق خال، فأسرعوا تجاه "أكتوبر". شاهد فوق الكوبري سيارة منقلبة ومشتعلة.

صاحت الفتاة:

– هتنفجر فينا!

فصرخ توفيق:

- أعمل إيه طيب؟

ألقى نظرة للخلف، ثم تطلع مرة أخرى للكوبري. عزم أمره وداس بنزين:

- أشهد أن لا إله إلا الله.

صعدوا الكوبري واتجهوا تلك المرة تجاه "مصر الجديدة". شاهدوا الدخان يتصاعد أسفلهم. همهم:

- ده قسم رمسيس.

اصطفت سيارات، وخرج ركاب فضوليون ليتفرجوا. ثم عبرتهم أول دبابة متجهة إلى التحرير.. أوقف توفيق السيارة مذهولاً، وخرجا ليتتبعها.. تلتها دبابة أخرى.

توقفت سيارة على الجانب الأخر، وفتح شاب نافذة سيارته وسأله:

- هو في إيه؟

رد شارداً وهو يتتبعها حتى اختفت عن مرماه:

- الجيش نزل!

- إيه؟

حل بالشاب الفزع وانطلق متجهاً إلى التحرير.

استداروا في "صلاح سالم"، عازمون على العودة إلى قلب الأحداث، وهم لا يدرون ماذا ينتظرهم.

همهمت الفتاة:

– يا دي المصيبة. الجيش هيضرب في الشعب!

فرد توفيق:

– الجيش عمره ما ضرب في الشعب!

– يا ترى ماما عامله إيه دلوقتي مع الواد؟

– هو انت عندك ابن؟ وجوزك ازاي سمحلك تنزلي؟

– مهو صحفي هو كمان وبيغطي الأحداث!

وصلوها إلى ميدان "عبد المنعم رياض" ونصحاها بالتوجه مباشرة إلى البيت، ثم سارا على أقدامهما إلى "ماسبيرو". احتشد هناك مئات المتظاهرين وحاولوا اقتحام المبنى وهم يقرعون الأبواب الموصدة.. كانت النيران تلتهم مبنى "الحزب الوطني" والدخان الرمادي يتصاعد في جوف الليل..

ثم ظهر العسكر، جاءوا ليأمنوا مبنى الإذاعة والتليفزيون.

مرت لحظة ارتباك بينهم وبين المتظاهرين، ولا يدري أياً منهما كيف سيواجهه الأخر.

بادر المتظاهرون وهتفوا: الجيش والشعب إيد واحدة!

ثم راح المتظاهرون يحتضونهم ويقبلونهم بينما ضباط الجيش يبادلونهم بحذر..

دوى انفجار بعيد لم يستطع تحديد موقعه.. ورددت أنباء عن احتراق

أقسام شرطة في القاهرة بأكملها، ثم ترامى لهما أنه تم نهب المتحف المصري.

عدل المتظاهرون عن فكرة اقتحام "ماسبيرو" وقال أحدهم إن الرئيس سيلقي خطاباً بعد قليل.

– يلا نرّوح!

شاهد أشخاصاً تغادر مخزن "ماسبيرو" حاملين شاشات وكراسي..

توقف العالم كله كما عهده. كانوا على صدد اجتياز حقبة جديدة مجهولة وغامضة.

في طريقهما إلى البيت وجدا سيارات الأمن المركزي متمركزة فوق كوبري "مايو".

قال توفيق بشماتة:

– انسحبوا!

في منزله كان والداه يتابعان "الجزيرة". ظهر باللون الأحمر أسفل الشاشة خبر عاجل وعلقت المذيعة بابتسامة مرتبكة:

– سبحان الله. شاهدنا الموقف نفسه في تونس، والأن هو يتكرر في مصر..

غيرت أمه القناة وشاهدوا مراسلة العربية "راندا أبو العزم" والمخرج "خالد يوسف" يستنجدون بالمواطنين لحماية المتحف المصري. طوقت "راندا" خنصرها وبنصرها في الهواء، وأفادت للمشاهدين أن "خالد يوسف" "يخشى ما يخشاه"..

لم تكن الأمور قد اتضحت بعد. لم يتبين عدد القتلى ولا كيف سيكون رد فعل النظام..

كان الكل يقامر بقدومه إلى الميدان في الليالي الأولى، وكان موقف الجيش غائماً.. ولا يدري أحد ما يدار خلف الكواليس.. وراهن المتظاهرون على احتلالهم الميدان..

6

قيل إن البرادعي متوجه إلى التحرير لإلقاء كلمة.

لم يكن الميدان قد تزين بعد باليافتات الملونة، ولم تكن خيم الثوار والمسارح نصبت بعد وتكونت اللجان الشعبية. لم تكن الأعداد بالكثافة التي ستصل إليها في الأيام المقبلة..

اصطفت شخصيات المعارضة المعروفة فوق الصنية الصدرية في الميدان وراحت تخطب في الوجوه المتأهبة. حمل عجوز مكبر صوت وألقى خطاباً بالعربية الفصحى مليئاً بالشعارات الفارغة التي أثارت في نفسه والأخرون الضجر.

قامت فتاة محجبة ممتلئة وقاطعته هاتفة:

- شعبية! شعبية!

ترجاها رجل أن تكف وتعطيه فرصة ليكمل خطابه، ولكنها باغتته في عنف:

- مين دول؟ وليه همّ بيتكلموا أصلاً؟

رقب المعارضين المعتصمين في قلق، وسمع أحدهم يقترح دعوة إحدى الشباب للتحدث، فلما أبدى الأخر استعجابه.

- مش دي ثورتهم!

أتى البرادعي من ناحية قصر النيل، وألقى كلمة قصيرة أعلن فيها عن تأييده للجموع دون أن يلقي ترحيب حقيقي، ثم انسحب دون أن يراه.

تحولت ساحة المرور التي لم يكن له ملامح بارزة، غير كونها ساحة تساق إليها ألاف السيارات يومياً، إلى قاعدة شعبية هائلة. خرج منبوذو الأرض ليستردوا ما لم يملكوه و لم يوعدوا به يوماً. أقيمت مستشفيات و صيدليات ميدانية. نصب البائعون عربات الكبدة و الكشري، و اكتسب الميدان طابعاً شعبياً.. تكونت لجان من المتطويعين لتنظم الدخول والخروج، يفتشون الداخلين مرددين الاعتذارات واستياءهم من البلطجية الذين يشيعون الإرهاب في الميدان. شكلت لجان لاستقبال وتوديع المتظاهرين بالتصفيق والغناء مطالبين إياهم بالرجوع وجلب أصدقائهم، وأصدقاء أصدقائهم وجيرانهم معهم..

تعجب من قدرة هؤلاء على التنظيم وولائهم التام وبياتهم في البرد والقلق الدائم فوق الأرصفة المتسخة ومداخل المحلات. لأول مرة تتاح لهم الفرصة ليثبتوا جدارتهم وأنهم يساوون شيئاً، وقد تجلت حياتهم بمعنى يفوق ذاتهم.

توالت مليونيات عمت بالفرحة وروح الانتصار. تفاقمت الأغاني الوطنية ورفرفت الأعلام وأحست الناس أنها تصنع تاريخها بنفسها.

لم ير في حياته وجوهاً مثل تلك الوجوه السعيدة، كأنهم فازوا ببطولة العالم في كرة القدم. ولعل فوز مصر ثلاث مرات متتالية بكأس أفريقيا في كرة القدم واحتفال الجماهير واحتلالها الشارع أوحى لها ما بوسعها فعله لو أرادت.

ثم توالت موقعة الجمل.. توافد أنصار النظام متجمهرين أمام ماسبيرو، رافعين صور مبارك ومستخدمين الشعارات نفسها لصالحهم. انتشر البلطجية حول "عبد المنعم رياض" وراحوا يطاردون المتظاهرين والصحفيين.

تبددت الفرحة، وتأهب الشعب لحرب أهلية، بينما توعدت "نوارة نجم" في التحرير بمحاكمة مبارك.

توالت مليونية أخرى وكفة الموازين في صالح التحرير. ثم بدأت مرحلة غامضة تشهد الشد والجذب السياسي.

اجتمعت أحزاب فقدت شرعيتها بالشارع بحكومة "أحمد شفيق" و"عمر سليمان"، دون التوصل لأي اتفاق. وأصبح الإخوان قوة سياسية لا يستهان بها وشكل إئتلاف شباب الثورة.

..

ألقى مبارك ثلاث خطابات متشابهة واعداً بالإصلاحات وعارضاً لإنجازاته الوفيرة.

تعنت الثوار وتعنتت الحكومة. تهاتفت الناس في بيوتها على برامج "التوك شو". بكى ممثلون على الهواء، وهاجم التليفزيون المصري التحرير واتهمه بالعمالة، لقد وعد مبارك بالتخلي عن السلطة، لماذا لا يعطونه إذاً الفرصة؟ لكن الثوار رفعوا شعار: لا تفاوض قبل التنحي، وازداد الانقسام.

توقفت الحياة التي اعتادوها لثمانية عشر يوماً. آوى الناس إلى فراشهم ليلاً، لا يدرون ما يتوقعونه الغد، بينما تصنع القرارات السياسية في التليفزيون..

وليلاً كان يحلم بهتاف المتظاهرين..

7

بدا أنه لن يتقدم أبداً وسط الحشود الهائلة..

التصق بأجساد توقفت حرمتها. واندمج مع سارين في ممرات منشقة عن الكتل الرئيسة وسط ممرات بشرية ضيقة، حاول الابتعاد قدر ما أمكن عن البؤر شديدة الزحام ناحية "كنتاكي" و"هارديز".

وصل مقهى "طلعت حرب". كسا مدخله قماشة كبيرة واكتظ داخله بصحفيين ويساريين ومتظاهرين يلتقطون أنفاسهم، ويحللون ويتكهنون بالأحداث، بينما تفرس أخرون جرائدهم في صمت.

طلب شيشة تفاح. ثم أخرج "المصري اليوم" الذي اشتراه الصباح، واندمج في قراءة مقال مضحك يفترض اتهامات الفصائل السياسية لبعضها فيمن تسبب في هطول الأمطار البارحة. فالثوار حملوا الحكومة

المسئولية الكاملة، وهي بدورها نفت معللة أنها أياد خارجية، أما الإسلاميون فبشروا الشعب بأنها بشرى إلاهية، فيما أشارت 6 أبريل أن أمن الدولة له دور مباشر..

اقتحم رجلان المقهى، أحدهما قصير القامة يحمل كاميرا كبيرة، والأخر ضخم الجثة له شارب كث، يمسك ميكروفوناً مشعراً يشبه الليفة. ارتمّا منهكين وبدا على وجهيهما الوجوم.

قال الرجل القصير:

– حسبنا الله ونعم الوكيل في الشعب المصري.

اقترب منه النادل ضاحكاً:

– مالك بس يا أستاذ مظهر؟ مين اللي مزعلك؟

– يا أخي كل واحد عاملي زعيم..عاوزني أسجل معاه، واللي عايزني أسجل مع ابنه.. واللي فاكر نفسه مخرج يقوللي خدلي اليافتة دي.. ولأ، ما تصورش دول.. ولما تتكلم معاه يقولك إيه.. ده حقي.. حق إيه وهباب إيه؟

تدخل رجل جالس على مائدة مجاورة بدا أنه غير راض عن الكلام:

– يا فندم الناس دي بتالها خمسين سنة مكبوتة.. أنتم إعلاميين ودوركم تنقلوا طلبات الشعب.

ارتفع حاجبا مظهر في استغراب كأنه لم يقل سوى ذلك:

– يا سيدي طلباتهم فوق راسي.. بس أنا ما ينفعش أصور مع ميت ألف بني أدم.

أبدى رجل على مائدة أخرى امتعاضه من الحوار:

– والله الإعلام هو اللي مبوظ الدنيا.. كل قناة ليها توجهاتها..

– فعلاً أنتم عاوزين يعني تصوروا مع ناس معينة علشان تظهروا اللي على كيفكم؟

هب فيهما مهندس الصوت ثائراً:

– لو سمحت خليك في حالك والزم حدودك!

– الله الله.. في إيه يا عم؟؟

تدخل النادل ليهدأ الأجواء بينهم، فوجه مهندس الصوت اللوم لمظهر:

– بقول لك إيه يا مظهر.. أنا عاوز أشربلي كباية شاي.. الله يرضي عنك.. قبل ما نطلع للمرستان ده تاني.. خلينا قاعدين ساكتين علشان أنا مش ناقص اللي يقوللي تلت التلاتة كام. أه.

همهم مظهر:

– أه هو ده عيبنا.. ما حدش عاوز يسمع التاني.

..

جلس فوق رصيف "طلعت حرب" يأكل من علبة كشري"، بجانب كشك كان بائعه يتحدث في التليفون مع المالك، مستنجداً به لإغلاقه الكشك خشية التعرض لعملية نهب أخرى. وقف خمسة شباب عن قرب يشربون "حاجة ساقعة"، تحدث أحدهم بانفعال في التليفون.

– لأ يا حاج.. أنت ما تعرفش حاجة.. أه.. والله مانت عارف!

ظنه يهاتف مديره في العمل واندهش لفج خطابه.

– لو كنت عارف ماكنتش تقول كده.. البلد مش كويسة.. أنت قاعد في الخليج أصلك ومش دريان باللي بيحصل.. مش هرّوح يا حاج.. وخد أخويا كلمه.

دس الهاتف في يد شقيقه الأصغر، فتكلم الأخر بصوت خافت واحترام، وراح يهاود أباه.

قال الأخ الأكبر بعد ما أنهى المكالمة:

– أبوك ده هيشلني!

– أنا بئى أمي لسا قفلة معاي التليفون.. بتسألني أنت فين يا حبيبي.. قلتلها في التحرير.. قالتلي طب لما تخلص عدي على أختك في الساونا علشان تروحها.. ساونا؟

قهقه شاب آخر واستطرد:

– عيلة غريبة!

– يا عم ما هم بيتفرجوا على القناة الأولى.. أنت عاوز إيه؟

– طب محنا كنا بنشوف ماما ساميا.. وطلعنا زي الفل أهه!

– بكره نترحم على أيامك يا سوسو!

– أنت فلول ياد والنعمة.

– يا بن الموكوسة. افرض الإخوان مسكوا وهم راكبين راكبين..

– يابني إخوان إيه.. أدي دقني أهه لو مبارك مشي..

..

استكملت المفاوضات بين عمر سليمان والمعارضة. وأبى شفيق مبدأ التنحي، معللاً أن حتى الملك فاروق لقي مراسم وداع تليق بمقامه.

استشعر الثوار حركة خيانة يوم 10 فبراير قبل أن تعلن مصادر غير رسمية أن الشعب بصدد سماع أخبار سارة، فتوجه كالآلاف إلى الميدان في انتظار ما ظنوه خطبة الوداع..

8

شعت الوجوه بالفرحة، كقبل كل خطاب منتظر.

تبدد التوتر وابتهجت الوجوه بعد ما تردد في الصباح أن الجيش ربما ينوي فض الميدان بالقوة.

مرت أمامه مجموعة شباب يطبّلون ويلتوون بأجسادهم ورؤسهم يميناً ويساراً هاتفين كأنهم في زار: ارحل! ارحل! والتف شباب حولهم ضاحكين يصورونهم بهواتفهم.

جلس فوق الرصيف وأسند وجهه على مرفقه قبل أن يغفا وتهوى رأسه. نظر في الساعة. كانت الثامنة. أحس بجوع شديد وقام باحثاً عن موزعي الطعام. وجد قرب "كنتاكي" فتاة محجبة تتبرع بأكياس زرقاء.

ابتسمت له وسألته:

– واحد كفاية؟

احتوت الشنطة الخبز والمربى والجبن. التهمهم بشغف وتنبه لفتاة يافعة تسير أمامه ذهاباً وإياباً. تفرس ملامحها وجسدها. كانت رشيقة القوام ترتدي سروالاً ضيقاً أسود يظهر ساقيها الطويلتين. وبرزت وجنتاها مشدودتين مثل الفارسيات.. أخرجت من جيبها محمولاً صغيراً أسندته على أذنها، ومالت برأسها قليلاً وهي تحجب بيدها شفتيها لتوصل صوتها لمحدثها. كان قد فرغ من طعامه لما ربتت يد على كتفه. التفت ليواجه سامية مشرقة الوجنتين. حادثته كصديق قديم.

ثم لمحت الفتاة اليافعة فجرت لها وتبادلا التحية بغبطة أنثوية وصوت رفيع يدل على عنصر المفاجأة. تحدثت الفتاة وشفتاها تلتويان مثل "سيلفيستر ستالوني"، ثم التفتت سامية إليه وأرادت أن تعرفهما على بعض، لكنها لم تتذكر اسمه. أردف بحرج:

– عاطف.

– عاطف أيوة.. أروى.. عاطف.. عاطف شاعر على فكرة.

غمزت له كأنها تعوضه عن نسيانها اسمه. ثم جذبت سامية فتاة أخرى واللحظة الثانية ابتعلهما الميدان. وجد نفسه وجهاً لوجه مع أروى. عاينته بعينين أنثويتين متفحصتين لما يستطيع تقديمه.

– وأنتِ بتعملي إيه كده؟

غيرت وقفتها لترتكز بثقلها على ساقها الأخرى.

– أنا مستنية صحفية أمريكية هترجملها حوار.

– أجندة يعني.

التوت شفتيها:

– بالظبط كده.. أنا بنتمي لتنظيم أجنبي بيحث الناس على تناول المخدرات وممارسة الجنس الجماعي في الميدان.

أثارته مجرد الفكرة.

– وبتعملي إيه غير الترجمة و.. الإثارة؟

رمقته فيما يشيه التأفف، فقال مسرعاً:

– بهزر!

– بدرس أدب انجليزي في جامعة القاهرة وبمثل في وقت فراغي.

– بتمثلي؟ واو!

كانت أصغر مما ظن. سأل محاولاً أن يبدو مبهوراً:

– سينما ولا مسرح؟

ردت بنبرة تدل على عدم اهتمام:

– بقوم بدور واحدة حامل في فيلم.

كانت تقترب منه كلما تحدثه ليسمعها، فالتزجت أنفاسها بأذنه.

– وهتستعدي للدور ده ازاي؟

– واحد صاحبي هيساعدني في موضوع الحمل.

رمقها في ذهول، فأردفت:

– أنت زي التليفزيون المصري كده بتصدق أي حاجة؟

كان على استعداد لترك الميدان على الفور ليجلس معها في مكان هادىء.

– ما تسمعني حاجة كتبتها كده عن الثورة!

– بقالي فترة مش عارف اكتب حاجة.

– ناقصك الإلهام؟

أثارته شفتاها الملتويتان.

– ما سمعتش عن "الهوموباتي" قبل كده؟ الطب البديل.. في ست في الميدان ناصبة خيمة بتعالج المتظاهرين اللي مروا "بتراوما". تحب أوريها لك؟

– والميعاد بتاعك؟

نظرت في الساعة.

– هبّعت للصحفية تجيلي على هناك.. أصل أنا هترجم حوار معاها.

كادت أن تضل منه وسط الزحام وهي تتسلل برشاقة وتلتحق بالطوابير المارة، متحاشية الطوابير الراكضة. دارت أحاديث المتظاهرين حول خطاب مبارك وتوقعاتهم بتخليه عن السلطة.

قال لنفسه لن يرحل، ليسوا بهذه القوة.

اعتلى شاب مسرحاً على يمينهم وراح يعزف الجيتار ويغني:

- اضحكي يا ثورة..هاها.. قالك إيه.. قلة مندسة.. اضحكي يا ثورة..

أشارت ناحية "عمر مكرم".

- شايف الخيم اللي هناك؟

انبثقت رائحة كريهة أمام خيمة مرا أمامها طلت منها قدمان حافيتان.

وصلا خيمة علقت خارجها يافتة مكتوب عليها بالفلوماستر: "هوموباتي".

أدخلت الفتاة رأسها بالداخل، فاختلس نظرة لمؤخرتها الصغيرة، كانت مسطحة.. أشارت له بالدخول.

افترشت الأرض بالبطاطين، وأومضت الخيمة إضاءة خافتة نابعة من لمبة نيون. ملأ المكان رائحة بخور وتسربت موسيقى خافتة من جهاز "أي بوت" في الخلفية.

قرفصت الفتاة واتخذت ساقيها شكل "أكس" كقوسين. خاف أن يقتحم أحد الخيمة ويتهمها بالفاحشة.

- هي فين العرافة؟

- لازم بتجيب حاجة. ثم هي مش عرافة!

كان إحساس غريب أن يطوف آلاف المتظاهرين بالخارج، بصخبهم اللامنتهي، يرتطمون بالخيمة كل حين فينتفض ظلالهم الشبحي المعكوس على قماش الخيمة الأبيض.

انتظر منها أن تشرح له ماذا يفعلان.. لكنها أغلقت عينيها وراحت تمارس "اليوجا"، فلم يجرؤ على مقاطعتها. تفكر أن الخطاب سيفوته.. اهتزت الخيمة أثر ارتطام أحد بها. مالت الفتاة إلى الأمام وطلت برأسها للخارج.. استشم عطرها.. هممهت شيئاً لم يفهمه.

قرفص بجانبها وحدق في الظلال الراقصة. أوشك النعاس أن يغلبه مجدداً.. دوى من السماعات صوت "ترومبيت" حاد.. ثم علا الصوت.. تلته خروشة.. رجع واحتد صوت "الترومبيت" قبل أن يلقي رجل أسود بصوت ثقيل:

– في يوم أتو وأخذوا الشيوعيين.. ولم أقل شيئاً.. لأني لست شيوعياً.

التوى "الترومبيت" في ألم. فيما استأنف الرجل بصوته الجهوري:

– ثم جاءوا وأخذوا أهل الدين اليهودي.. وأنا لم أقل شيئاً.. لأن وقتها لم يكن لدي أي إيمان.

خفضت الفتاة رأسها وتلت صلاة، محركة رأسها مع توازن الكلمات.

أخذ "الترومبيت" انعطافاً، وحلقت النغمات برخاء في الخيمة.

– ثم جاءوا ذات يوم وأخذوا النقابيين.. وأنا لم أقل شيئاً.. لأني لم أكن نقابياً..

انتفخ وتحشرج الصوت.. بدا كأن وحشاً ثقيلاً يتنفس..

- ثم حرقوا الكنسية الكاثوليكية ذات يوم.. ولكني لم أقل شيئاً.. لأني كنت بروتستانتياً..

تنهد الرجل وهمهم كلمات بلغة غريبة، فيما خمد صوت "الترومبيت" تدريجياً.

- ثم أتوا ذات يوم وأخذوني أنا..

علا عويل حاد ودوى صراخ حيواني مدفون بداخل الانسان من قبل الميلاد.

استأنف الصوت نادماً:

- ولكني لم أقل شيئاً.. لأني كنت مثلهم.. مذنب بالإبادة الجماعية وانتهاكات حق أي بشر أراد الحياة.(*)

التوت الموسيقى وتداخلت طبقات صوتية لآلات مختلفة.

اشتد صوت الترامبيت ليفصح عما هو غير إنساني، ورغم ذلك له صلة مباشرة بالإنسان.

وثبت مفاتيح البيانو بعنف، وصرخ رجل في الخلفية. التوى البخار في الخيمة كثعبان أعرج. واهتز المكان ورجت الخيمة. دندنت الفتاة وامتزجت حواسها كلياً بالموسيقى. راحت رأسها تهتز مع نغمات فوضوية لا تعترف بأي انسجام.

انتابه الشعور بأنهما بارحا الميدان وأنه لو أزاح القماش، لن يجد مخلوقاً بالخارج..

(*) أغنية Don't let it happen here لـ"شارلز مينجيس" النص لـ"مارتين نيموللير".

تخيل رجل أسود، طويل القامة، عريض المنكبين، يعتلي مسرحاً عاري الصدر، بشرته سوداء مثل الليل في آخره، يعلو شامخاً ويخاطب شعبه بوقار زمن سابق..

راقب المارد الأسود شعبه، غير مستعد للعدول عن إيمانه:

– نحن نريد شعراً مثل السكين!(*)

أطلق عويلاً، وتسارع الإيقاع كطاقة شريرة.

طوق الرجل إناء البخور بيديه واقترب منه محدقاً فيه بعينين مخيفتين كمن فقد رشده.

– أنت عارف أنا شايف إيه؟

وثبت مفاتيح البيانو في انتقام فاجر.

صرخ مؤكداً على كل حرف:

– مؤامراة دسيسة!

ثم قهقه عالياً. وذاب صوته مع "بيانو" فقد السيطرة.

أوحت الموسيقى برقص قبائل تصيح في جنون وتتبع طقوساً قديمة مثل موسيقاها. وصرخ الرجل:

– أعطني الحرية أو أعطني الموت!

..

(*) مقولة "لي روي جونس" أو "أميري بركة" شاعر وممثل الحركة الأفرو أمريكية للفن في الستينيات من القرن العشرين.

لفحه هواء بارد وامتثلت أمامه امرأة في الأربعينيات، ترتدي جاكيت صوف قصيراً، شعرها ملموم ووجهها يشع بالوداعة. قالت معتذرة:

- أنا أسفة على التأخير!

تبعتها سيدة أجنبية، الصحفية. رمقته الفتاة كأنها تترقبه منذ فترة. فكر في مطالبتها برقم هاتفها، ولكنه سرعان ما وجد نفسه بالخارج وسط المتظاهرين..

تهاتفت الناس على إلصاق هواتفها بأذنيها، ووعى بصره على صورة "مبارك" تعلو شاشة بعيدة في مواجهة "هارديز".

كان الخطاب قد بدأ..

9

- إرفع رأسك فوق.. أنت مصري!

علت الصفافير.. تكدست الأجساد.. واشتد هتافها.

اختلطت أصوات بأجساد تجمعت ككتلة واحدة وداهمت الصفوف حتى المسرح.

كان منهكاً ليشعر بأي شيء..

بدت له الأيام الأخيرة كعربة ملاهي تعلو براكبها لأعلى نقطة ممكنة ثم تهوى وتخسف به الأرض خسفاً..

استحال الوصول للميدان ليلة التنحي.. أراد الكل التواجد في هذه اللحظة، ليحكي عنها لاحقاً..

سار مع توفيق وفاروق وخالد فوق كوبري "أكتوبر". تابعوا مواكب وحشود لم تظهر لها ملامح لكثرتها.. تبلورت وجوه غافلة معبرة عن فرحة، ما لبثت أن تحولت لشيء عادي.

ساروا إلى العجوزة. خلا هذا الجانب من المدينة من أي احتفالات. لم تعبرهم إلا سيارات عشوائية تدلى من منافذها أعلام مصرية.

استراحوا فوق دكة على الكورنيش، وتمتم فاروق:

– خلصت على خير الحمد الله!

أانتهت حقاً؟ والمجلس العسكري؟ والإخوان؟

..

دعتهم "الساقية" اليوم المقبل للعزف مع فرق أخرى ب"قاعة النيل".

لم يتمكن من كتابة أي شيء.. ظن أنه بحاجة لوقت كي يستوعب..

امتد الفراغ في أحشائه وابتعد عن المسرح آثراً الاختلاء دون الابتعاد كلياً عن الناس.

هبط الأدراج الفياضة للنيل. توارت الموسيقى وانعزل عن جو الاحتفال.

كان الجو رطباً والهواء رقيقاً. رمق مجموعة من الشباب يسيرون فوق كوبري "مايو" يرفرفون بعلم كبير.. قبع بجانبه شاب يدخن سيجارة بتأفف. لم يشارك في مراسم الفرحة مثله.

قرفص واستوى بصره فوق المياه. تمادت أعشاب وأوراق ذابلة قطفتها الرياح وطافت فوق سطح المياه بلا غرض.. هبت فجأة موسيقى شعبية

نابعة من مركب عابرة تحمل على متنها شباب يصفقون ويحتفلون بطريقتهم.

لمح ورقة شجر احتفظت بنضارتها، هزتها المياه برقة، ارتطمت بالسور الذي دفعها بعيداً عن متناوله كلما اقتربت.

تزحزح قليلاً ليلامس أطرافها.. مال بجسده ليجذبها بخنصره محافظاً على توازنه..

مد ذراعيه وساقيه.. بات على وشك نيلها.. لامس أطرافها... والتفت حول خنصره..

ثم.. أطلق النهر فرقعة قصيرة كضفدع ابتلعه النهر..

ووثب ضفدع صغير استقر فوق الورقة التي اهتزت تحت وزنه الواهن، وغاصت به قليلاً، وما لبثت أن سيطرت على طوفانها.

تسمر فوقها وهلة يستطلع الأجواء.. ثم أطلق نقيقاً عابراً.. ووثب بعيداً..



تدور رواية ظمأ الليل عن فرقة من الفرق الموسيقية التي غمرت الساحة في مصر في السنوات الأخيرة. وتتابع أبطالها الذين سرعان ما وجدوا أنفسهم يتحملون مسئولية في مجتمع فارض عليهم قيوده الاجتماعية والسياسية، يتخبطون فيه ويصطدمون بواقعه. ولكن حين يعتلون المسرح يتحولون لكائنات خارقة تُمتع جمهورها وتصف فيما عجزت عنه في حياتها اليومية.

شريف عبد الصمد

من مواليد القاهرة 1979. حاصل على الدكتوراه في التاريخ الأمريكي من جامعة برلين الحرة، ويعمل بالصحافة في مصر.

له رواية "شيء من الماضي" صدرت عن دار العين.

تصميم الغلاف: سلمى فهمي



